شورى عمر واختيار عثمان

جاء النص القرآني صريحاً بالدعوة للشورى "وأمرهم شورى بينهم"[١] والتزم الرسول (ص) بهذا التوجيه فكان يشاور أصحابه في الكثير من الأمور العامة[٢].

وعلى الرغم من الأشارات التي تبيّن أن الرسول (ص) أراد أن يكتب للأمة كتاباً لا يضلّون بعده، وإجماع المصادر الإمامية على رواية حديث الغدير[٣]، فلم يعرف عن الرسول (ص) أنه استخلف أحداً، أو قرر شكلاً معيناً لنظام الحكم من بعده[٤]، بل ترك الأمر للأمة لاختيار ما تراه مناسباً وفقاً لظروف المجتمع وتطورات الأوضاع العامة فيه.

والتزم الخلفاء الراشدون بنهج الشورى في الحكم، مع مراعاة الظروف في التطبيق. وجاء الاجتماع في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول (ص)، وما طُرح فيه من آراء ومناقشات تأكيداً على هذا النهج[٥].

وأشار أبو بكر في أول خطاب له بعد البيعة إلى التزامه بتطبيق الدستور الإسلامي، "كلام الله وسنة رسوله" أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[٦].

وعَهَد أبو بكر إلى عمر بن الخطاب من بعده، وهو اختيار يتماشى مع العرف العربي، الذي يجيز للشيخ /السيد أن يعيّن خلفاً له في ظروف خاصة[٧]. إلاّ أن أبا بكر تجاوز المفاهيم القبلية الضيقة إلى المفاهيم الإسلامية الواسعة فلم يولِ ذا قرابة[٨]، بل جعل الأهلية والقابلية هما معيار هذا الاختيار، "فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر"[٩]. وقال: "واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم"[١٠]، لتجنب الأمة مخاطر الفتنة والانقسام وقال:

"اللهم إني لم أرد بذلك إلاّ صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به.."[11].

ويُفهم من بعض الروايات أن أبا بكر شاور عدداً من الصحابة قبل العهد إلى عمر، فجاءت ردود فعلهم مختلفة بين مؤيد لهذا الاختيار أو معارض له. فقد أثنى عثمان بن عفان، وأسيد بن حضير الأوسي، وعبد الرحمن بن عوف على تسمية عمر، لشخصيته المتميزة[12].

وانحصرت المعارضة بعدد من المهاجرين والأنصار، ركزوا فيها على جانب واحد من شخصية عمر وهو الشدّة. فقد بينت الروايات أنهم خوفوا أبا بكر من لقاء ربه لاختياره عمر نظراً لشدته، "ما تقول لربك إذا استخلفت علينا عمر، وقد عرفت فظاظته وغلظته وشدته..."[13].

ويبدو أن قناعة أبي بكر بعمر كانت ثابتة، إذ جاء في عهده لعمر "... إني استخلفت عليكم بعدي بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا..."[14].

وكان عمر بن الخطاب كثير المشاورة للصحابة فيما لم يتبين فيه أمر الله ورسوله **. كالتشاور في معاملة الأراضي المفتوحة مثلاً.**

وعندما أُثيرت مشكلة الخلافة في حياته وطُلب إليه أن يستخلف، أبى ذلك، ويشير المِسْور بن مخرمة (ت ٦٤هـ/٦٨٣م)[15] إلى هذا الأمر فيقول: "كان عمر بن الخطاب وهو صحيح يُسأل أن يستخلف فيأبى"[16]. ولم يستقر رأي عمر على فكرة الاستخلاف حتى طُعِن[17]، وتردد بين أن يستخلف أو أن لا يستخلف أحداً، وقال: "إن أستخلف فسنة، وإن لم أستخلف فسنة، توفي رسول الله (ص) ولم يستخلف وتوفي أبو بكر فاستخلف"[18].

فهو يرى أن لديه موسعة في الاقتداء بالرسول (ص) الذي لم يسم أحداً أو بأبي

بكر الذي عهد إليه بالخلافة من بعده. ولكنه في الواقع اختار اتجاهاً آخر بأن جعل الخلافة شورى بين ستة من الصحابة، توفي رسول الله (ص) وهو عنهم راضٍ[١٩]، وأكد على هذا الاتجاه بقوله "والأمر بعدي شورى"[٢٠].

وترد روايات كثيرة، يُفهم منها أن عمر جعل الخلافة شورى في ستة من الصحابة، وإنه لم يكن مطمئناً إلى أن ترشيح أحدهم يلقى قبولاً من الآخرين، وهو يعلم بأنهم يمثلون مراكز قوى في المدينة، فهم سادة القوم وقادتهم "... إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلاَّ فيكم"[٢٣]. ويبدو أن كل واحد منهم كان يرى نفسه أهلاً لهذا المركز، ويظهر هذا واضحاً في حديث عمر "إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس"[٢٤]، كما يظهر في قول الزبير لعمر بعدما طعن: "وما الذي يبعدنا منها –يقصد الخلافة– وليتَها أنت فقمت بها ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة"[٢٥].

ويرد تساؤل عن الظروف التي دفعت عمر بن الخطاب إلى التفكير بجعل الخلافة شورى بين ستة من الصحابة، ويفترض هنا ملاحظة الروايات لاستخلاص صورة تقريبية عن تلك الظروف.

ولعل أول رواية ترد في هذا الإطار هي رواية عمرو بن ميمون (ت ٧٥هـ/٦٩٤م)* ، يشير فيها إلى حيرة عمر في اختيار خلف له، وعبر عن ذلك عندما طعن قائلاً: "من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول أنه أمين الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب لله" وحين أشير عليه بعبد الله بن عمر رفض قائلاً: "... إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان

---

* الإمام أبو عبيد الله المذحجي، قدم الكوفة زمن الصديق، فروى عنه وعن عمر وعلي ... الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج١، ص٦٥.

شراً فشرعنا آل عمر، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجلٌ واحد ويسأل عن أمـــر أمة محمد". هذا وأشار عمرو بن ميمون إلى أن عمر فكر بعد إلحاح من الحــاضرين أن يعهد –وأشار إلى علي– ولكنه عدل عن ذلك بقوله: "... فما أريد أن أتحملها حيـاً وميتاً"(٢٦).

ويبين صاحب الإمامة والسياسة بأن عمر ذكر بعض الأسماء لاستخلافها، لم يكـن من بينها اسم سالم، بل تضمنت أسماء شخصيات من قريش والأنصار، مثـــل: أبـي عبيدة وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل(٢٧).

ويورد ابن أعثم (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) معلومات مشابهة لمعلومـــات عمـرو بـن ميمون عن حيرة عمر في اختيار خلف له، وورد فيها أسماء معاذ بن جبـــل وســالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة عامر بن الجراح(٢٨).

ويلفت الانتباه في روايتي عمرو بن ميمون وابن أعثم ما ذكره عمر عـــن ســالم مولى أبي حذيفة، وهو الذي أكد أن الإمامة في قريش، وهذا ما احتج به على الأنصار يوم السقيفة بقوله "والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيّها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم"(٢٩). ويظـــهر هــذا أيضاً في إشارته إلى صهيب عند تكليفه بإمامة الصلاة: "وليصل بكم صـــهيب هــذه الثلاثة أيام التي تشاورون فيها، فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم"(٣٠).

وبعد هذا، يمكن القول بأن إشارة عمر كانت إلى صحابة توفوا، سواء كانوا مـــن قريش أو من غيرها، مما يشعر بعدم استعداده لاستخلاف أحد.

ويعطي سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م) * معلومات أخـــرى عـــن ظـــروف

---

* هو سيف بن عمر التميمي، كوفي، يقدم النظرة العراقية في الأساس، ويستفيد من روايات قبيلته تميـم. انظر: عبد العزيز الدوري، **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص٣٧.

الشورى، فيبين أنه لما طُعن عمر، وتأكد عمق إصابته، جمع العامة فقال: "أيها الناس إن الأمر اليوم في أمة محمد أمركم، أنتم شهود الأمة وأهل الشورى، فمن رضيتم به فقد رضوه، ومن اجتمعتم عليه اجتمعوا عليه... وإنكم إن تؤمروا في حياة مني أجدر أن لا تختلفوا بعدي، هل تعلمون أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء الستة نفر الذين مات رسول الله (ص) وهو عنهم راض؟ قالوا: لا، قال: فإني أرى من الرأي إن تابعتموني أن نجعل ذلك بهم فيؤمروا بعضهم، فقالوا: فإنا قد رضينا ذلك وجعلناه إليهم"(٣١).

تبين هذه الرواية بأن عمر استشار الناس في اختيار الستة، وحصل على موافقتهم، وهذه الرواية مفردة، وكأنها جاءت تعبّر عن نظرة الناس لهؤلاء الستة.

ويبدو أن موضوع الخلافة كان يتردد أحياناً، وربما يؤكد هذا كثرة الروايات التي تتحدث عن انطباعات عمر عن الصحابة، ومجملها تؤكد أن عمر لا يرى أن يعهد لواحد بالذات. ودلالة هذه الروايات مثل رواية عوانة بن الحكم، والواقدي، وابن عمر، أنها جاءت قبل أن يُطعن عمر، وربما في أكثر من مناسبة.

فيذكر عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/ ٧٦٤م)* أن عمر علق على كل واحد من الستة بما يمنعه من تسميته للخلافة فقال: "إن أولِّ عثمان بن عفان، أولِّ رجلاً صالحاً في نفسه، أخاف إيثاره قراباته، وأن يغلبوه على رأيه، وأن أولِّ علياً، أول شجاعاً تقياً على دعابة فيه، وخليق أن يحملهم على طريقة صالحة، وإن أولِّ الزبير فوَعقة**، لقس..***، وإن أولِّ طلحة أولِّ رجلاً ذا بأو وكبر، وإن أول ابن عوف، أول رجلاً

---

* عوانة بن الحكم: إخباري كوفي، يقدم الرواية الأموية للحوادث، لم يتحيز لأحد. انظر عبد العزيز الدوري، **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص٣٦ ـ ٣٧.

** وعقة: يضجر ويتبرم... وحريص. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٠، ص٣٨٢.

*** لقس: الشره النفس الحريص على كل شيء. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٦، ص٢٠٨.

لين الجانب، سلس القياد، فليس يصلح هذا الأمر إلاّ شدة في غير عنف ولين في غير ضعف..."[٣٢].

وأوضح الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م)* في روايتين له انطباعات عمر عن رجال الشورى، فوصف علي في روايته الأولى بأن فيه "بطالة وفكاهة"، ووصف طلحة "بالزهو"، وعبد الرحمن بن عوف بأنه "رجل صالح على ضعف فيه"، ووصف سعداً بأنه صاحب "مقنب** وقتال"، ووصف الزبير بأنه "لقس مؤمن الرضى كافر الغضب"، أما عثمان فكان يخشى منه عصبيته لأهله[٣٣].

وتضمنت رواية الواقدي الثانية تحفظات عمر على خمسة من رجال الشورى وهم: عثمان، الزبير، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف دون الإشارة لعلي[٣٤].

ويذكر ابن عباس ملاحظات عمر على رجال الشورى، فوصف علياً رجل فيه دعابة، ووصف الزبير بأنه وعقة لقس، ووصف طلحة بالكبرياء، وأشار إلى سعد بأنه "ليس بصاحب هذا الأمر"، ووصف عبد الرحمن بن عوف بأنه ضعيف، وأشار إلى عثمان بأنه "كلف بأقاربه" وكررها مرتين[٣٥].

وهناك روايتان رواية لصاحب الإمامة والسياسة[٣٦]، ورواية لابن أبي الحديد[٣٧]، تجعل تعليقات عمر على رجال الشورى بعد أن طُعن، ولا نعرف مصادر هاتين الروايتين أصلاً.

بعد هذا لا بد من الإشارة بأن انطباعات عمر عن رجال الشورى لم تكن وليدة

---

* الواقدي، محمد بن عمر: عرف أنه منطقي في رواياته ومنتظم، وذكر ابن النديم أنه كان يتشيع. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢. عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

** مقنب: جماعة الخيل والفرسان، يريد أنه صاحب حرب وجيوش. ابن منظور، لسان العرب، ج١ ص٦٩٠.

الساعة التي طعن فيها عمر، بل هي نتاج تفكير عميق في الاستخلاف. وقد جاء قول عمر لابنه عبد الله عندما طلب منه أن يستخلف ما يؤكد ذلك "ثكلتك أمك أرأيت الوليد ينشو مع الوليد وليداً، وينشو معه كهلاً، أتراه يعرف من خُلقه، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فما أنا قائل لله إذا سألني عمن أمرت عليهم، فقلت فلاناً وأنا أعلم منه ما أعلم"(٣٨).

ترد روايات، يفهم منها أن عمر كلّم جميع أعضاء المجلس ما عدا طلحة بن عبيد الله لغيابه آنذاك.

فيذكر عبد الله بن عمر أن عمر كلّم عبد الرحمن بن عوف فقال له: "... وإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحملن أقاربك على رقاب الناس"(٣٩). ويظهر أن هذه الرواية تنوه بمكانة عبد الرحمن بن عوف عند عمر.

وجاء في رواية عامر بن عبد الله بن الزبير، أن عمر نوّه باسمي سعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام، حيث قال: "... وأنتما فاتقيا الله إن وليتما شيئاً من أمور المسلمين"(٤٠). ويظهر أن هذه الرواية زبيرية إذ تدخل الزبير فيمن حادثهم عمر.

ولكن أكثر الروايات تذكر أن عمر كلّم اثنين من رجال الشورى هما علي وعثمان.

فيذكر عمرو بن ميمون (ت ٧٥هـ/٦٩٤م) وكان شاهداً يوم طُعن عمر، أن عمر قال لعلي "يا علي لعل هؤلاء سيعرفون لك قرابتك من النبي (ص) وصهرك... ثم قال له: فإن وليّت هذا الأمر فاتق الله فيه، ثم دعا بعثمان فقال: يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله ولا تحمل آل أبي معيط على رقاب الناس"(٤١).

ويذكر ابن أبي مُليكة (ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م) أن عمر انفرد بعلي وعثمان وطلب

منهما أن لا يحملا أقاربهما على رقاب الناس، إن آل الأمر إليهما(٤٢).

ويبدو من هذه الروايات أن عمر لاحظ ببعد نظره أن علياً وعثمان هما أبرز رجالات المجلس، فخصهما بالحديث.

وهكذا أقام عمر مجلساً ينسجم مع فكرة الشورى في الإسلام. ويلاحظ أن العرب عرفوا الشورى في تقاليدهم السياسية، كما تمثل في مجلس القبيلة(٤٣)، الذي يتكون من المتنفذين ورؤساء العوائل في القبيلة لانتخاب شيخ لها(٤٤). وعرفت مكة فكرة الملأ ومحلّه دار الندوة(٤٥)، **كما عرف عرب الجنوب مجالس الشورى**(٤٦)، وقد أشار القرآن الكريم إلى الملأ في سبأ، "قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون"*.

ورأى عمر بن الخطاب ضرورة تنظيم إجراءات الشورى بعدما تنبه لظهور بوادر الخلاف بين أعضاء المجلس، إذ ترد إشارات تبين أنهم اختلفوا وعلت أصواتهم في أول اجتماع لهم في حياة عمر، فنبههم عبد الله بن عمر قائلاً: "سبحان الله، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد"(٤٧).

وفي إشارة أخرى أن عبد الله بن عمر قال: "إن أمير المؤمنين حي بعد، خليفتان، ينظر أحدهما إلى الآخر"(٤٨)، أو قال: "أتؤمرون وأمير المؤمنين حي"(٤٩)، فتنبه عمر ونظّم إجراءات الشورى.

ويبدو أن أول الإجراءات هو تحديد مدة التشاور بثلاثة أيام لئلا تطول المدة دون جدوى وتجنباً لأية ملابسات.

فيذكر عمرو بن ميمون (ت ٧٥هـ/ ٦٩٤م) قول عمر بهذا الشأن "... فإن مت

---

* **النمل**: ٣٢.

فتشاوروا ثلاثة أيام... ولا يأتين اليوم الرابع إلاّ وعليكم أمير منكم"(٥٠). وأشار ابن عمر، إلى المدة، وإلى نطاق المشورة بقول عمر "تشاوروا ثلاثاً...، قالوا: ومن نشاور يا أمير المؤمنين؟ قال: تشاورون المهاجرين والأنصار وسراة من ها هنا فإنكم تختارون"(٥١).

وأشار أبو مخنف (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م) إلى مدة التشاور(٥٢). وكذلك فعل سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)(٥٣).

أما الإجراء الثاني فكان تعيين مراقبين للإشراف على اجتماعات المجلس، ولحثّ أعضائه على الانتهاء من الاختيار.

وتجمع الروايات أن عمر كلّف أبا طلحة الأنصاري للقيام بتلك المهمة، فيذكر عمرو بن ميمون (٧٥هـ/ ٦٩٤م) قول عمر بهذا الشأن "يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم"(٥٤). وقريب من ذلك ما جاء في رواية أبي مخنف (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤)* (٥٥)، ورواية الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م)(٥٦).

وحذّر عمر من الاختلاف، وشدّد في مراقبة التطبيق. فيذكر عمرو بن ميمون (ت ٧٥هـ/ ٦٩٤م) أن عمر حث أبا طلحة قائلاً: "... فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه –أضرب رأسه بالسيف– وإن اتفق أربعة فرفضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس"(٥٧).

---

* أبو مخنف: هو لوط بن يحيى، إخباري كوفي، يورد عادة الصورة الكوفية، وهو أميل للعلويين تجاه الأمويين. ابن النديم، **الفهرست** ص١٠٥ – ١٠٦. عبد العزيز الدوري، **المرجع السابق**، ص٣٥.

ويشير أبو مخنف (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م) إلى صورة أخرى للإجراءات "... فإن اجتمع اثنان على رجل، واثنان على رجل، واثنان على رجل، رجعوا في الشورى، فإن اجتمعوا أربعة على واحد وأباه واحد كانوا مع الأربعة، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة كانوا مع الثلاثة الذين فيهم ابن عوف..."(٥٨).

ويذكر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م) صيغة أعم لإجراءات عمر بهذا الشأن "ليتبع الأقل الأكثر، فمن خالفكم فاضربوا عنقه"(٥٩). أو قال "فمن نغل بأمركم فاضربوا عنقه"(٦٠).

وهذا التباين في الروايات يشعر بأن التفاصيل لم تكن واضحة تماماً.

وتتحدث الروايات عن اجتماعات المجلس، فيذكر المِسْوَر بن مخرمة (ت ٦٤هـ/ ٦٨٣م)، أنه بعد دفن عمر، نادى عبد الرحمن بن عوف على الخمسة الحاضرين من أهل الشورى، وكانوا يريدون التوجه إلى بيوتهم، فاجتمعوا في بيت فاطمة ابنة قيس الفهري، فقال لهم: "يا هؤلاء إن عندي رأياً وإن لكم نظراً، فاسمعوا تعلّموا، وأجيبوا تفقهوا" ثم قال "... لكل أجل كتاب، ولكل بيت إمام بأمره يقومون وبنهيه يَرعون. قلدوا أمركم واحداً منكم تمشوا الهوينى وتلحقوا الطلب" ثم تكلم عثمان فقال: "... لا يخرج أمرنا منّا، ولا يدخل علينا غيرنا إلاّ من سَفِهَ الحق ونكل عن القصد، وأحر بها يا ابن عوف أن تترك وأحذِر بها أن تكون إن خولف أمرك وترك دعاؤك، فأنا أول مجيب لك وداع ما دعوت ومعينك على ما أمرت.." وتكلم سعد بن أبي وقاص فقال في نهاية قوله "... وأخذت لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيت لنفسي فأنا به كفيل، وبما أعطيت عنه زعيم، والأمر إليك يا بن عوف، بجهد النفس وقصد النصح..." وأخيراً تحدث علي فبين أنهم بيت النبوة ومعدن الحكمة، ثم قال "... لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم... اسمعوا كلامي وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا الجمع تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود حتى تكونوا جماعة...".

ثم يبين المِسْوَر بن مخرجة أن عبد الرحمن تساءل عمن يخرج نفسه من هذا الأمر ويوليه غيره؟ فسكتوا جميعاً، فقال عبد الرحمن: "فإني أخرج نفسي وابن عمي" فرضوا جميعاً دون استثناء(٦١). ويعلق المِسْوَر بن مخرجة قائاً: "فوالله ما رأيت رجلاً بذ قوماً أشد مما بذهم به حين ولّوه أمرهم، حتى ما من رجل من الناس يبتغي عند أحدٍ من أولئك الرهط رأياً ولا يطأ عقبه"(٦٢).

ويبين عمرو بن ميمون (٧٥هـ/ ٦٩٤م) أنه بعد دفن عمر، اجتمع رجال الشورى فكانوا خمسة لغياب طلحة، وتناقشوا طويلاً فلم يصلوا إلى قرار، وتنبه أبو طلحة الأنصاري لهذا الأمر، وكان رقيباً على اجتماعهم، فأعلمهم أنه لن يزيد مدة التشاور عن الأيام الثلاثة التي أمرهم بها عمر. وعلى إثر ذلك أخذ عبد الرحمن بن عوف المبادرة فقال "أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم، فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها، فوافقوا جميعاً دون تعليق، باشتثناء علي الذي طلب منه موثقاً بإيثار الحق والابتعاد عن الهوى، فرضي عبد الرحمن، شريطة أن يعطوه مواثيقهم جميعاً بتأييد اختياره لهم"(٦٣).

ويذكر حُميد بن عبد الرحمن (ت ٨٩ أو ٩٠هـ/ ٧٠٨ أو ٧٠٩م) أن المِسْوَر أخبره أن رجال الشورى اجتمعوا للتشاور، فقال لهم عبد الرحمن بن عوف "لست بالذي أنافسكم هذا الأمر ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف..."(٦٤).

ويبين أبو مخنف (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م) إن أصحاب الشورى لم يقوموا بشيء يوم دفن عمر، فلما أصبحوا جمعهم أبو طلحة للمناظرة، فلما رأى عبد الرحمن طول مناقشاتهم دون طائل، ومحاولة كل واحد منهم دفع صاحبه عن الخلافة، قال لهم: "أنا أخرج نفسي وسعداً من الأمر على أن أختار معشر الأربعة أحدكم، فقد طال التناجي وتطلع الناس إلى معرفة خليفتهم وإمامهم، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل

البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم، فأجابوا إلى ما عرض عليهم إلاّ علياً فإنـــــه قـــال: "أنظرِ". ثم وافق علي بعد أن أخذ موثقاً من عبد الرحمن أن "لا يميل إلى هـــوى وأن يؤثر الحق ويجتهد للأمة وأن لا يحابي ذا قرابة"(٦٥). فتعهد عبـــد الرحمـــن الالـــتزام بذلك.

والملاحظ أن الروايات الكوفية كرواية عمرو بن ميمون وأبي مخنف، تظهر عـــدم اطمئنان علي إلى إجراءات عبد الرحمن بن عوف، والتخوف من الميل إلى عثمـــــان لأنه صهره، لكن هذه الروايات كوفية جاءت لتؤكد حق آل البيت في الخلافة.

وقال الواقدي(ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) أنه لما مات عمر جعل أصحاب الشورى أمرهم إلى عبد الرحمن بن عوف ليختار لهم(٦٦).

أما المدائني (ت٢٢٥هـ/٨٣٩م)* فاكتفى بالإشارة إلى اجتماع رجال الشورى بعد دفن عمر، ما عدا طلحة، الذي كان غائباً (٦٧).

ويبن أبو الصالح الحنفي(٦٨) في روايته أن صهيباً صلى بالناس يومين بعـــد دفـــن عمر، فلما كان اليوم الثالث قال لهم"...اختاروا لأنفسكم فيما بينكم وإلا فقـــد اعـــتزلت الصلاة في آخر هذا اليوم كما امرني أمير المؤمنين عمر" فقام عبد الرحمن بن عوف تحت منبر الرسول (ص) فقال "يا معشر الناس على أماكنكم ...." ثم قال "يا معشـــــر الناس ألستم تعلمون أن عمر بن الخطاب جعل هذا الأمر في ستة؟ قالوا: بلى، قــــال: فإني خارج منها ومختار لكم فما تقولون؟ قالوا: رضينا، وأقبل على علـــي وعثمـــان فقال: ما تقولان: فقالا: رضينا"(٦٩).

والملاحظ في هذه الرواية أنها تنفرد بالإشارة إلى أن اجتماعات الشـــورى كـــانت

---

* المدائني: إخباري بصري، يتميز بالدقة، ويظهر أنه يتبع أسلوب المحدثين في نقـــد الروايـــات، عبـــد العزيز الدوري، **المرجع السابق**، ص٣٨ ــ ٣٩.

بالمسجد، وأن عبد الرحمن حصل على تفويض من الناس في المسجد باختيار الخليفة من بين أهل الشورى، وهذا مخالف لما قرره عمر في إجراءات الشورى.

ويتحدث صاحب الإمامة والسياسة، عن اجتماعات المجلس، فيبين أنه بعد موت عمر اجتمع القوم بحضور عبد الله بن عباس والحسن بن علي وعبد الله بن عمر، فتشاوروا لمدة ثلاثة أيام ولم يصلوا إلى شيء، فقال لهم عبد الرحمن بن عوف"هذا يوم عزم عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم، ثم قال: فإني عارض عليكم أمراً .. أن تولوني أمركم وأهب لكم نصيبي منها، وأختار لكم من أنفسكم". فوافقوا جميعاً، ثم قال لهم: "اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فجعل الزبير أمره إلى علي، وجعل طلحة أمره إلى عثمان وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف"(٧٠).

ويفهم من هذه الرواية أن طلحة كان موجوداً، وتنفرد بالإشارة إلى حضور الحسن بن علي وعبد الله بن عباس، وكأنها تريد التذكير بفضل بني هاشم(٧١).

ويذكر ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) أنه بعد دفن عمر جمع أبو طلحة رجال الشورى للتشاور، ووقف على باب البيت للمراقبة مع خمسين من الأنصار بسيوفهم. وتشاور القوم فاختلفوا، فقام طلحة ووهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعلمه بأن الخلافة لا تصل إليه وعلي وعثمان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي، ووهب الزبير حقه لعلي لأنه ابن عمة علي، ووهب سعد حقه لابن عمه عبد الرحمن وكلاهما من بني زهرة. وهذا يعني أنه لم يبق إلا ثلاثة: عبد الرحمن وعلي وعثمان، فقال عبد الرحمن لهم "أيكما يخرج نفسه من الخلافة ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين، فلم يتكلم منهما أحد، فقال عبد الرحمن: أشهدكم إنني قد أخرجت نفسي من الخلافة على أن أختار أحدهما ..."(٧٢).

إن موضوع التنازل وتكوين ثالوث لاعتبارات قبلية وشخصية، إشارات انفرد بها صاحب الإمامة والسياسة، وابن أبي الحديد، ولا نجد ما يؤكدها في الروايات الأولى.

وهكذا، أجمعت الروايات على أن أعضاء المجلس ما عدا طلحة الذي كان غائباً بأرضه بالسراة* اجتمعوا بعد دفن عمر مباشرة، فلم يصلوا إلى قرار، وربما كان ذلك لطموح كل واحد منهم، إلى أن أبدى عبد الرحمن بن عوف استعداده للتنازل عن حقه، فرفضوا جميعاً، وعهدوا إليه ليختار واحداً منهم. وقام عبد الرحمن بن عوف بسلسلة من المشاورات والاستفسارات، ابتدأها بأهل الشورى. فيذكر المِسْور بن مخرمة (ت٦٤هـ/ ٦٨٣م) أن عبد الرحمن استدعى علياً فقال له: إن لم أبايعك فمن تشير علي فقال: عثمان، وألقى على عثمان نفس السؤال، فأشار إلى علي، أما الزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص فأشارا إلى عثمان(٧٣).

ويذكر المِسْور بن مخرمة في رواية أخرى له أن عبد الرحمن بن عوف خرج متخفياً لا يعرفه أحد يستطلع آراء الناس في المدينة "فما ترك من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس إلا ويقول عثمان"(٧٤).

ويوضح عمرو بن ميمون (ت ٦٤هـ/ ٦٨٣م) تحركات عبد الرحمن بن عوف، فيبين أن عبد الرحمن خلا برجال الشورى الأربعة، علي وعثمان والزبير وسعد، كلاً على انفراد، وطرح عليهم سؤالاً واحداً "لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر"، فأشار عثمان إلى علي، وأشار علي والزبير وسعد إلى عثمان.

ثم قام عبد الرحمن باستطلاع الآراء في المدينة، فلاحظ إجماع"أصحاب رسول الله (ص) ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس" على عثمان(٧٥).

ويبين الليث بن سعد (١٧٥هـ/ ٧٩١م) إجماع أهل الشورى على استخلاف عثمان أيضاً(٧٦).

---

* السراة: أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣ ص٢٠٤ ــ ٥٠٢.

وبقي على عبد الرحمن بن عوف أن يحسم الأمر بين علي وعثمان، ويوضح المِسْوَر بن مخرمة (ت ٦٤هـ/ ٦٨٣م) في روايتين له تفاصيل ما حدث. فيبين في روايته الأولى، أن عبد الرحمن بن عوف طلب من المسور بن مخرمة في الليلة الثالثة أن يأتي إليه بعلي وعثمان، فابتدأ بعلي، ثم عثمان، وتوجهوا جميعاً إلى عبد الرحمن بن عوف، فالتفت إلى علي وعثمان وقال: "إني قد سألت عنكما وعن غيركما فلم أجد الناس يعدلون بكما، هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي. فالتفت إلى عثمان فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم". وانطلق الثلاثة إلى المسجد فتكلم عبد الرحمن فقال: "أيها الناس، إني قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم، فلم أجدكم تعلون بأحد هذين الرجلين، إما علي وإما عثمان، فقم إلي يا علي، فقام إليه علي ... فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، ثم نادى عثمان فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر، قال: اللهم نعم..." ثم قال عبد الرحمن بن عوف: "اللللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان... وازدحم الناس يبايعون عثمان...."[٧٧].

ويذكر المِسْوَر بن خرمة في روايته الثانية، أن سعداً كلم عبد الرحمن ابن عوف فقال: "يا أبا محمد ما كان أحق بهذا الأمر منك، قال: إنك يا سعد تحب أن يقال: "ابن عمه خليفة، وإنك يا مِسور تحب أن يقال خاله خليفة" وأعلن عبد الرحمن براءته منها قائلاً: "والله لأن تؤخذ مدية ... فتوضع هاهنا.... أحب إلي من أن ألي من أمر النلس شيئاً"، وطلب من المسور أن يأتيه بعلي وعثمان، فلما أتيا مجلس عبد الرحمن بن عوف، حمد الله ثم قال: "إني قد فليت الناس عنكما، فأشيرا عليَّ وأعيناني على أنفسكما، هل أنت يا علي مبايعي إن وليتك هذا الأمر على سنة الله وسنة رسوله، بعهد

الله وميثاقه وسنة الماضين قبل؟ قال: لا، ولكني على طاقتي، وأعاد القول على علي ثانية، إن وليتني هذا الأمر على سنة الله وسنة رسوله وميثاقه وسنة الماضين قبل ـقالها عثمان في الثلاث". ثم خرج عبد الرحمن إلى المسجد فقال لعثمان: "... إذن فبايعه على سنة الله وسنة رسوله بعهد الله وميثاقه" ويعلق المسور قائلاً: "فعرفت أن خالي كان أصوب، أشكل عليه رجلان فأعطاه أحدهما وثيقة ومنعه الآخر إياها"(٧٨).

ويذكر عمرو بن ميمون (ت ٧٥ هـ/ ٦٩٤م) أنه في الليلة التي ينتهي فيها الأجل المحدد للتشاور، وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى منزل المسور بن مخرمة وطلب منه أن يدعو الزبير وسعداً، وبدأ بالزبير فقال له "خل ابني عبد مناف وهذا الأمر" فقال: نصيبي لعلي، وقال لسعد: أنا وأنت كلالة، فاجعل نصيبك لي فاختار، قال: إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان فعلي أحب إلي، أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا، وارفع رؤوسنا، قال: يا أبا إسحاق، إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار، ولو لم أفعل وجّعل الخيار إليّ لم أردها، ثم قال: ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه....".

وطلب عبد الرحمن من المسور بن مخرمة أن يأتيه بعلي، فلما حضر تحدث معه طويلا "وهو لا يشك بأنه صاحب الأمر"، ثم طلب من المسور أن يأتيه بعثمان فكان "في نجيهما حتى فرق بينهما أذان الصبح". ويعلق عمرو بن ميمون على ذلك فيقول: "قال لي عبد الله بن عمر: يا عمرو من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم، فوقع قضاء ربك على عثمان....".

ويتابع عمرو بن ميمون روايته، فيبين أن عبد الرحمن بن عوف اجتمع في المسجد بمن حضر من المهاجرين، وأهل السابقة من الأنصار، وأمراء الأجناد، فأعلمهم عن رغبة الناس بالعودة إلى أمصارهم وقد علموا اسم خليفتهم، وعلى إثر ذلك أشار عمار بن ياسر إلى علي قائلاً: "أيها الناس، إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه

وأعزنا بدينه، فأنّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيتكم".

وصدق عمار المقداد بن الأسود. واقترح ابن أبي سرح اسم عثمان، وصدقه عبد الله بن أبي ربيعة. وخاف سعد بن أبي وقاص من افتتان الناس وطلب من عبد الرحمن الإسراع في الأمر، فدعا عبد الرحمن علياً فقال "عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي: قال: نعم، فبايعه......"(٧٩).

وقول علي كما جاء في الرواية يعني أنه يلتزم بسنة الله ورسوله ما استطاع، ويجتهد في سيرة الخليفتين أبو بكر وعمر بن الخطاب.

ويذكر حُميد بن عبد الرحمن (ت ٨٩ أو ٩٠هـ/ ٧٠٨ أو ٧٠٩م)عن المسور بن مخرمة، أن عبد الرحمن طلب من المسور أن يأتيه برجال من المهاجرين للتشاور معهم، كما طلب أن يأتيه بعلي ثم عثمان، فكان عثمان "آخر من ناجى وآخر من دعا". ثم دعا من كان حاضراً من المهاجرين من قريش، وأهل السابقة من الأنصار وأمراء الأجناد فقال لهم "أما بعد، يا علي، فإني قد نظرت في الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان بن عفان، ... ثم أخذ بيد عثمان فقال: نبايعك على سنة الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس...."(٨٠).

ويبين أبو مخنف (ت ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م)، أن عبد الرحمن بن عوف أخذ بيد علي فقال له"عليك عهد الله وميثاقه إن بايعتك أن لا تحمل بني عبد المطلب على رقاب الناس، ولتسيرن بسيرة رسول الله (ص).... فقال علي: لا أحمل عهد الله وميثاقه على ما لا أدركه ولا يدركه أحد، من ذا يطيق سيرة رسول الله (ص)، ولكني أسير من سيرته بما يبلغه الاجتهاد مني... ثم أحلف عثمان وأخذ عليه العهود والمواثيق أن لا يحمل بني أمية على رقاب الناس، وعلى أن يسير بسيرة رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر لا يخالف شيئاً من ذلك فحلف له. ثم إن عبد الرحمن عاد إلى علي فأخذ بيده

وعرض عليه أن يحلف تلك اليمين... فقال علي: عليّ الاجتهاد، وعثمان يقول: نعم فبايعه عبد الرحمن... وبايعه أصحاب الشورى.... "[٨١].

وينفرد سيف بن عمر (ت١٨٠هـ ـ٧٩٦م) بالقول أن عبد الرحمن اجتمع برجال الشورى رجلاً رجلاً فأشار كل منهم إلى عثمان، أما عثمان نفسه فإنه أشار إلى علي، ثم تكلم عبد الرحمن فقال: "أنشدكم الله، هل تعلمون أن رسول الله (ص) قال: ليؤمكم أقرؤكم، فإن كانوا في القراءة سواء فأفقههم، فإن كانوا سواء فأسنّهم؟ قالوا: نعم، قال: هل تعلمون هذا اجتمع في أحدٍ منكم غير عثمان؟ فبايعوه، فبايعوه..."[٨٢].

هذه رواية غريبة، لأن عثمان إن تقدم في السن، فإن علياً معروفٌ بفقهه وعلمه الغزير، ولأن الرواية تجعل علياً يتخلى عن حقه دون سبب، كما أنها وحدها تشير إلى الحديث.

ويبين أبو صالح الحنفي الكوفي، أن عبد الرحمن بن عوف طلب من علي وعثمان أن يبسطا أيديهما، فقال لعلي: "ياأبا الحسن إن صار هذا الأمر إليك أتسير سير صاحبيك؟ قال: نعم، فأعاد القول على علي فقال مثل قوله الأول" وقال لعثمان: فقال: نعم، قال في أخي هذا وأوصى إلى عثمان. فقال عبد الرحمن: معاشر الناس ألستم راضين بأحد هذين، أيهما بايعتموه؟ فقال علي: "أشهد لن يبايعني ولن يبايع إلا عثمان.....". ثم قال: "... ولئن فعلتم لأسمعن ولأطيعن" فضرب على كفه بالبيعة فكانت أول كف وقعت على يد عثمان"[٨٣].

هذه رواية كوفيه فيها نظر، لأنها لا تعطي سبباً للاختيار، وتضعف موقف عبد الرحمن بن عوف.

اتجهت عامة الروايات، باستثناء رواية واحدة وهي رواية سيف بن عمر إلى أن اختيار عثمان حسّم بموافقته بالسير على كتاب الله، وسنة رسوله، واتباعه سيرة الخليفتين من بعده. أما علي الذي عُرف بفقهه وسعة علمه فأشار إلى الاجتهاد وفقا

للظروف، وهذا التوجه قد يثير شيئاً من التساؤل عند البعض. ولكن يبدو أن وراءه أسباباً يتعلق بعضها بعلي والبعض الآخر بعثمان. ومن هذه الأسباب ما قيل عن مشاركة علي في غزوات عديدة أورثت ضغائن عليه(٨٤). وكانت هناك فكرة التخوف من استئثار بني هاشم بالخلافة وحجبها عن بقية قريش، أحد أسباب الاتجاه إلى عثمان، وقد أشار علي صراحة إلى هذا الأمر، فقال للمقداد ابن الأسود "..... إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول إن وليّ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم"(٨٥).

أما الأسباب الخاصة بعثمان فربما كان أبرزها عامل السن، حسب التقاليد عند العرب عامة، وعثمان شيخ بني أمية(٨٦) وهنا يرد احتمال قيام الأمويين بنشاط مكثف لصالح عثمان(٨٧)، فنجحوا في التأثير على الناس.

وهكذا تمت بيعة عثمان، فاستقبل بخلافته المحرم من سنة ٢٤هـ/٦٤٥م(٨٨). وأقبل طلحة في اليوم الذي تمت فيه البيعة، فبايع عثمان أسوة بقريش والناس(٨٩).

الحواشي

١- القرآن الكريم. **الشورى** ٣٨.

٢- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ ـ ٨٣٣م)

السيرة النبوية، أربعة أجزاء، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م. ج٢ ص٦١٤ ـ ٦١٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن هشام، السيرة.

٣- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منبع (ت٢٣٠هـ / ٨٤٤م)

الطبقات الكبرى، (٩) مجلدات، دار صادر، بيروت، د.ت. ج٢ ص٢٢٦.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن سعد، الطبقات.

المفيد، محمد بن النعمان العكبري (ت ٤١٣هـ).

الإرشاد، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٢م، ص.١.

الطوسي، محمد بن الحسن بن العلي (٤٦٠هـ)، **تلخيص الشافي**، تحقيق حسين صادق، بحر العلوم، مطبعة الآداب، النجف، ص ١٠ ـ ١٥.

الموسوي، إبراهيم، **عقائد الإمامية الاثنا عشرية**، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، العراق، ١٣٨٧هـ، ص٧٢ فما بعدها.

٤- ابن سعد، **الطبقات**، ج٢ ص٢٢٦.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م).

أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، يخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م، ج١ ص٥٤١. وسيشار إليه على النحو التالي: البلاذري، أنساب.

٥- ابن سعد، **الطبقات**، ج٣ ص١٨٢، البلاذري، **أنساب**، ج١ ص٥٨١.

اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧ م) **تاريخ اليعقوبي**، جزءان، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠، ج٢ ص١٢٣.

وسيشار إليه على النحو التالي: اليعقوبي، تاريخ.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ /٩٢٢م)

تاريخ الرسل والملوك، (١٠) أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج٣ ص٢٠٢ـ٢٠٥، ٢١٩ـ٢٢٠.

وسيشار إليه على النحو التالي: الطبري، تاريخ.

ابن أعثم الكوفي، أحمد (ت٣١٤ هـ /٩٢٦م).

كتاب الفتوح، (٨) أجزاء ، تحقيق محمد عبد المعين خان، نشر مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٩٦٨م، ج١ ص٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن أعثم، الفتوح.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ /١٤١٨م)

مآثر الإنافة في معالم الخلافة، (٣) أجزاء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٤م، ج١ ص٣٨، ٤٠، ٤١.

وسيشار إليه على النحو التالي: القلقشندي، مآثر.

٦- الطبري، **تاريخ**، ج٣ ص٢٢٤.

٧- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (١٠) أجزاء، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م، ج٥ ص١٩٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: جواد علي، **المفصل**.

٨- جواد علي، **المفصل** ، ج٥ ص١٩٤.

٩- الطبري، **تاريخ**، ج٣ ص٤٢٨.

١٠- ابن سعد، **الطبقات**، ج٣ ص٢٠٠.

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ٢٩٧هـ / ٩٠٩م).

كتاب الخراج، اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخرانة التيمورية رقم ٦٧٤ فقه، مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م، ص١٣.

وسيشار إليه على النحو التالي: أبو يوسف، الخراج.

١١- ابن سعد، **الطبقات**، ج٢ ص٢٠٠

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧ هـ /١٢٠٠م)

مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق زينب إبراهيم القاروط، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص٥٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن الجوزي، مناقب.

١٢- ابن سعد، **الطبقات**، ج٣ ص١٩٩

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ /٨٩٢م)

أنساب الأشراف (الشيخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما تحقيق إحسان صدقي العمد، ط١، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٨٩م، ص١٦٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: البلاذري، أنساب ـ الشيخان.

ابن الجوزي، **مناقب** ص٥٤.

١٣- البلاذري، **أنساب** ـ الشيخان ص١٤٧، أبو يوسف، الخراج، ص١١.

١٤- ابن سعد، **الطبقات**، ج٣ ص٢٠٠

مصعب الزبيري، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ /٨٥٠م)

كتاب نسب قريش، تصحيح وتعليق أ. ليفي بروفنسال، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م،ص١٠٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: مصعب الزبيري، نسب.

الطبري، **تاريخ**، ج٣ ص٤٢٩

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت٥٧١هـ /١١٧٥م) **تاريخ مدينة دمشق** وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، (عثمان بن عفان). تحقيق سكينة الشهابي، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٨٤م، ص١٧٦، ١٧٧.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن عساكر، تاريخ (عثمان بن عفان).

١٥- ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي (ت٧٢٨ هـ /١٣٢٧م)

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، (٤) أجزاء، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د. ت، ج٣ ص١٦٣.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن تيمية، منهاج.

١٦- أبو يوسف، **الخراج**، ص٢٦، ٢٨، ابن عساكر، **تاريخ**، ج١ ص٥٨٢.

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م)

كتاب الاستخراج لأحكام الخراج، دراسة وتحقيق محمد إبراهيم الناصر، (د.م: د.ن) ١٤١٢ هـ /ص٩٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن رجب، الاستخراج.

١٧- المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف (ت٧٤٢هـ /١٣٤١م)

تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (٣٥) جزءاً، تحقيق بشار عواد معروف، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣ ــ ١٩٩٢م. ج٢٧ ص٥٨١ــ ٥٨٣.

وسيشار إليه على النحو التالي: المزي، تهذيب.

الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (٨) أجزاء، ط٦، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م، ج٧ ص٢٢٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: الزركلي، الأعلام.

١٨- ابن سعد، **الطبقات**، ج٣ ص٦١

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ /٨٩٢م)

كتاب جمل من أنساب الأشراف (بنو أمية ــ بنو عبد شمس)، (١٣) جزءاً، حققه وقدم له سهيل زكّار، رياض زركلي، بإشراف مكتب البحوث والدراسات، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م، ج١ ص١٢٣.

وسيشار إليه على النحو التالي: البلاذري، أنساب (بنو أمية ــ بنو عبد شمس).

ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص ١٨٠.

١٩- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ /١١٧٥م)

تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها (بعض المجلد الثاني والخمسين والمجلد الثالث والخمسون (عمر بن الخطاب) تحقيق سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، ص٣٧٢.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن عساكر، تاريخ (عمر بن الخطاب)

٢٠- البلاذري، **أنساب** (الشيخان) ص٣٤٩، الطبري، تاريخ، ج٤ ص٢٢٧.

٢١- البلاذري، **أنساب** (بنو أمية، بنو عبد شمس)، ج٦ ص١١٩، ١٢٣، الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٨، ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص ١٨٠، ابن الجوزي، **مناقب**، ص ٢١٤، ٢١٩.

٢٢- البلاذري، **أنساب** (بنو أمية ـ بنو عبد شمس) ج٦ ص١١٩.

٢٣- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٨، ابن عساكر، **تاريخ** (عمر بن الخطاب) ص٣٧٩.

٢٤- **المصدر نفسه**، ج٤ ص٢٢٨، **المصدر نفسه**، ص٣٧٩.

٢٥- ابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م).

كتاب نهج البلاغة، (٤) أجزاء، جمع الشريف الرضي، ومعه شرح ابن أبي الحديد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩١١، ج١ ص٦٢.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن أبي الحديد، نهج.

٢٦- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٧ـ ٢٢٨.

٢٧- ابن قتيبة (منسوب)، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٠هـ /٨٨٣م)

الإمامة والسياسة، جزءان، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه

للنشر والتوزيع، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٨ هـ /١٩٦٧م. ج١ ص٢٨.

وسيشار إليه على النحو التالي: صاحب الإمامة والسياسة.

٢٨- ابن أعثم، **الفتوح**، ج٢ ص٨٦ـ ٨٧.

٢٩- الطبري، **تاريخ**، ج٣ ص٢٢٢.

وانظر: الباقلاني، الإمام أبي بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣ هـ /١٠١٢م). **التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة**، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري، ومحمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص٢٠٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: الباقلاني، التمهيد.

٣٠- **صاحب الإمامة والسياسة**، ج١ ص٢٨.

٣١- سيف بن عمر التميمي (ت ١٨٠ هـ /٧٩٦م)

كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي، ط٢، دار أمية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٨هـ /١٩٩٧ م، ص٤ـ٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: سيف بن عمر، الردة والفتوح.

٣٢- البلاذري، **أنساب** (الشيخان) ص٢٢٨، انظر: مناقشات الباقلاني، التمهيد، ص ٢٠٥ـ ٢٠٨.

٣٣- البلاذري، **أنساب** (بنو أمية ـبنو عبد شمس) ج٦ ص١٢٠ـ١٢١.

٣٤- **المصدر نفسه** ج٦ ص١٢١.

٣٥- ابن عساكر، **تاريخ** (عمر بن الخطاب) ص٣٧٦_٣٧٧.

٣٦- **صاحب الإمامة والسياسة**، ص٢٩.

٣٧- ابن أبي الحديد، **نهج**، ج١ ص٦٢.

٣٨- ابن عساكر، **تاريخ** (عمر بن الخطاب) ص٣٧٤.

٣٩- البلاذري، **أنساب** (الشيخان) ص٣٥١.

ابن عساكر، **تاريخ** (عمر بن الخطاب) ص٣٧٦.

٤٠- ابن عساكر، **تاريخ** (عمر بن الخطاب) ص٣٧٥.

٤١- ابن سعد، **الطبقات**، ج٣ ص٣٤١.

البلاذري، **أنساب** (بنو أمية ـ بنو عبد شمس) ج٦ ص١٢٠، ١٢٢

وانظر: صاحب الإمامة والسياسة، ج١ ص٢٩.

٤٢- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص ١٨١.

٤٣- جواد علي، **المفصل** ، ج٥ ص٢٢٦، ٢٢٩.

خالد العسلي، **الشورى في العرف القبلي، الشورى في مكة قبل الإسلام، الشورى في الإسلام**، منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م، ص١٥،٢١.

٤٤- عبد العزيز الدوري، **النظم الإسلامية**، طبعة جديدة منقحة، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص١٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: عبد العزيز الدوري، النظم.

عبد العزيز الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**، ط٣، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤، ص٩٤.

٤٥- الجاحظ، عمرو بن عمر (ت ٢٥٥ هـ ــ٨٦٨م)

كتاب الحيوان، (٧) أجزاء، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٣، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨ــ ١٩٦٩م، ج٢ ص٩٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: الجاحظ الحيوان.

٤٦- جواد علي، **المفصل** ، ج٥ ص٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٢.

٤٧- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٩.

٤٨- ابن عساكر، **تاريخ** (عمرو بن الخطاب) ص٣٧٩.

٤٩- البلاذري، **أنساب** (الشيخان) ص٣٥١.

٥٠- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٩.

٥١- ابن عساكر، **تاريخ** (عمرو بن الخطاب) ص٣٧٩.

٥٢- البلاذري، **أنساب**، بنو أمية ــبنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٣.

٥٣- سيف بن عمر، **الردة والفتوح**، ص٥.

٥٤- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٩.

٥٥- البلاذري، **أنساب**، بنو أمية ــبنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٣.

٥٦- البلاذري، **أنساب** (الشيخان) ص٣٧٧.

ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٧.

٥٧- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٢٩.

وانظر: صاحب **الإمامة والسياسة**، ص٢٩.

ابن أبي الحديد، **نهج**، ج١ ص٦٢ــ٦٣.

٥٨- البلاذري، **أنساب**، بنو أمية ــ بنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٤.

٥٩- **المصدر نفسه**، ج٦ ص١٢٢.

٦٠- **المصدر نفسه**، ج٦ ص١٢٢.

٦١- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٤ــ٢٣٧.

٦٢- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٢ــ١٨٣.

٦٣- الطبري، **تاريخ**، ص٢٣٠ــ٢٣١.

٦٤- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٢.

٦٥- البلاذري، **أنساب**، بنو أمية ــ بنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٦ــ١٢٧.

٦٦- **المصدر نفسه**، ج٦ ــ ص١٢٥.

البلاذري، **أنساب** (الشيخان) ص٣٧٧ــ٣٧٨.

وانظر: ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان٩ ص١٨٧.

٦٧- ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ ــ ١٣٧٢م).

البداية والنهاية، (١٤) جزءاً، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج٧ ص١٤٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: ابن كثير، البداية.

٦٨- أبو صالح الحنفي، هو عبد الرحمن بن قيس الكوفي. تابعي، ثقة.

انظر، ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج٦ ص٢٥٦ــ٢٥٧.

٦٩- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٦.

٧٠- **صاحب الإمامة والسياسة**، ج١ ص٣٠.

٧١- قارن: جاء في رواية عمرو بن ميمون، أن سعد بن أبي وقاص منع عمرو ابن

العاص والمغيرة بن شعبة من الاقتراب من اجتماعات الشورى.

انظر: الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٠.

٧٢- ابن أبي الحديد، **نهج**، ج١ ص٦٣.

٧٣- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٧.

وانظر: ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٢.

٧٤- **صاحب الإمامة والسياسة**، ج١ ص٣٠.

٧٥- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣١.

٧٦- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٢.

٧٧- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٧ـ ٢٣٨.

وانظر: ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٤.

٧٨- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٤ـ١٨٥.

٧٩- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٢ـ٢٣٣.

٨٠- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٣.

٨١- البلاذري، **أنساب**، **بنو أمية** ـ بنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٧ـ١٢٨.

٨٢- سيف بن عمر، **الردة والفتوح**، ص٥ـ٦.

٨٣- ابن عساكر، **تاريخ** (عثمان بن عفان) ص١٨٦ـ١٨٧.

٨٤- ابن أبي الحديد، **نهج**، ج١ ص٦٣.

٨٥- الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٣.

٨٦- **المصدر نفسه**، ج٤ ص٢٣١.

٨٧- Levi Della Vida, Othman, E.1, vol: v1, p: 1008

وانظر: عبد العزيز الدوري، **النظم**، ص٣٤.

سمير محمود حمدان، **الخلافة، نشأتها وتطورها في المدينة زمن الراشـــدين**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٥، ص٦٠.

٨٨- البلاذري، **أنساب**، بنو أمية ـ بنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٩.

الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص١٩٣، ٢٤٢.

٨٩- البلاذري، **أنساب**، بنو أمية ـ بنو عبد شمس، ج٦ ص١٢٥.

الطبري، **تاريخ**، ج٤ ص٢٣٣ـ٢٣٤.

عمان في العصر الإسلامي

يتناول هذا البحث عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية في العصور الإسلامية.

تقع مدينة عمان على درجة طول ٣٣-٣٤ شرقاً ودرجة عرض ٣٢-٣٣ شمالاً وتقوم على نفس الموقع الذي كانت تقوم عليه مدينة عمان القديمة. ويكتنف الموقع الجبال من جميع الجهات. ويقوم في وسطها قلعتها المعروفة، وهي ذات موقع استراتيجي حصين يطل على المدينة من جميع جهاتها. وتحيط السهول الزراعية بها من الجنوب والشمال والغرب. وكان نهر ضيق يخترق المدينة ينبع من منطقة تدعى رأس العين حالياً، وكان هذا النهر يرفد أهالي المدينة بالمياه للشرب ولسقي المزروعات. وقد أدى التوسع العمراني في أطراف المدينة إلى إنشاء عدد كبير من البلديات والمجالس القروية، ولكن انتشار الأبنية العشوائي أدى إلى تداخل في حدود تلك البلديات والمجالس القروية مع حدود مدينة عمان، وإلى ازدواجية وتضارب في وضع الخطط والمخططات والمشاريع، ولهذا جاء قرار مجلس الوزراء بإنشاء عمان الكبرى ابتداءً من عام ١٩٨٧ لإنشاء إدارة بلدية وتخطيط للمنطقة كاملة، حيث ضمت كلاً من البلديات والمجالس القروية التالية إلى أمانة عمان الكبرى: الجبيهة، صويلح، تلاع العلي، بدر الجديدة، أم السماق، خلدا، وادي السير، أم قصير، المقابلين، البيادر، خريبة السوق، جاوا، القويسمة، أبو علندا. (انظر الخارطة ١،٢).

ويرى بعضهم أن مدينة عمان قد شهدت ازدهاراً ملحوظاً في العصور الهلنستية، والرومانية، والبزينطية، لم تحظ بمثله في العصر الإسلامية[1]. وترمي هذه الدراسة إلى إثبات أن عمان قد بقيت مزدهرة في العصور الأموية، والعباسية،، والفاطمية، والأيوبية، والمملوكية، وبقيت مركزاً لوالي البلقاء على مر هذه العصور، حتى أن المؤرخ المقريزي وصفها "بأم تلك البلاد". إلا أن هذه الأهمية تضاءلت في العصر العثماني مقارنة بمدن السلط، وعجلون، والكرك. وبعد اندلاع الثورة العربية الكبرى،

أصبحت عمان مركزاً لأحرار العرب. وقدم إليها الأمير عبد الله بن الحسين لقيادة الجيوش العربية، واتخذ منها عاصمة لشرق الأردن فيما بعد. وازدهرت مدينة عمان خلال حكم الهاشميين، وزاد عمرانها حتى أصبحت قبلة العلماء والمثقفين العرب.

- **وثمة عدد من المؤلفات التي تناولت مدينة عمان ومن أهمها:**

دراسة الأستاذ محمود العابدي بعنوان "عمان ماضيها وحاضرها، ١٩٧١". وكذلك كتاب يوسف غوانمة المعنون "عمان حضارتها وتاريخها، السنة ١٩٧٩"، ولكن هاتين الدراستين لم تشيرا إلى أعمال الحفر الأثري التي أجريت في مدينة عمان منذ عقد ونصف. وكان لهذه الاكتشافات دور كبير في الكشف عن الآثار الإسلامية في هذه المدينة وضواحيها، إذ أن هذه الاكتشافات عملت بدورها على تدعيم هذا البحث، ودلت بشكل علمي ملموس على مدى الازدهار والتطور اللذين شهدته مدينة عمان على مر الفترات الإسلامية.

وقد اعتمد الباحث في دراسته على ما يلي:

١- نتائج المسوحات الأثرية في المنطقة.

٢- نتائج الحفريات الأثرية في المنطقة.

٣- المصادر التاريخية والجغرافية استناداً إلى ما جاء في كتب الجغرافيين.

٤- ملاحظات الرحالة الأوربيين، الذين زاروا المنطقة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

٥- وصف للآثار المندثرة من خلال وصف المؤرخين والجغرافيين العرب والرحالة الأوربيين.

تاريخ الاستيطان البشري في مدينة عمان:

تدل التنقيبات الأثرية على أن بداية الاستيطان البشري في عمان يرجع إلى الألف

السابع ق.م حيث كشفت التنقيبات الأثرية عن قرية عين الغزال التي تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري. منذ الألف السابع وحتى الألف الرابع قبل الميلاد[٢]. كما عثر في عام ١٩٥٥ في مطار عمان المدني على موقع يعود إلى العصر البرونزي الأخير ١٦٥٠-١٢٥٠.٠ق.م[٣]، وعثر في هذا الموقع على العديد من القطع الأثرية التي تعود إلى تلك الفترة، وعلى العديد من القطع الأثرية والفخارية المستوردة من اليونان، وقبرص، ومصر، وسورية، والعراق، وهذا دليل آخر على التبادل التجاري القائم في ذلك الوقت، وعلى أن المدينة كانت مأهولة بالسكان، وأنها كانت ذات موقع استراتيجي وتجاري[٤].

وفي بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد أسس العمونيون دولتهم التي امتدت من نهر الزرقاء شمالاً حتى وادي الموجب جنوباً، ومن نهر الأردن غرباً والصحراء شرقاً، واتخذوا مدينة عمان عاصمة لهم وأطلقوا عليها اسم (عمون).

وقد وصفت مدينة عمون بأنها مدينة حصينة ذات أسوار قوية وذلك لموقعها الاستراتيجي في جبل القلعة[٥]. وكذلك لوجود بعض الأبراج الممتدة على التلال المنتشرة حول المدينة حيث كانت تعتبر أبراج مراقبة وكذلك كانت تعتبر الخط الدفاعي الأول عن المدينة[٦].

وفي عام ٧٣٢ق.م خضعت عمون للآشوريين على يد تجلات بلاسر[٧]، وخضعت عمون بعد ذلك لبابليين، وبعدها للمصريين، فقام فرعون مصر بسامتين الثاني بغزو فلسطين والأردن[٨]. وبعد ذلك خضعت عمان للحكم الفارسي بعد أن قضى الملك كوركش على البابليين، وانتقلت جميع المناطق التابعة لهم، بما فيها الأردن، إلى الإمبراطورية الفارسية، وكانت عمان ضمن الولاية الخامسة والتي أطلق عليها اسم "مرزبانه عبر نهرا" والتي كانت تضم كلاً من سورية، وفلسطين، والأردن، وقبرص[٩].

وبعد انتصار الاسكندر المقدوني على الملك دارا الثالث، ملك الفرس، سنة ٣٣٣ق.م تقدمت قواته نحو سورية فاحتلت سورية، والأردن[١٠]. وبعد وفاته أصبح

الأردن ضمن أملاك القائد سلوقس، ولكن في عام ٣١٢ق.م. استطاع بطليموس الأول أن يضم الأجزاء الجنوبية من سورية إليه، والتي شملت الأردن وفلسطين، وكانت مدينة عمان من ضمنها(١١).

وفي عهد الإمبراطور بطليموس الثاني (فلادلفوس) ٢٨٥-٢٤٧ ق.م أصبح اسم المدينة (فلادلفيا) تخليداً وتكريماً له(١٢). وأخذت المدينة طابعاً جديداً من حيث التنظيم، والعمارة، والفنون التي أدخلتها الجاليات اليونانية والمقدونية فتغلغلت الثقافة الهلنستية في سورية. وتيجلى ذلك من خلال إنشائهم المدن التي كانت تعد مراكز مراقبة للطرق التجارية الموجودة في الأردن ومن أهمها، فلادلفيا "عمان" جدارا "أم قيس"، وبيلا، "طبقة فحل"، وغيرها من المدن(١٣).

وفي القرن السادس قبل الميلاد استقر الأنباط في مدينة البتراء في جنوب الأردن، والتي اتخذوها عاصمة ملكهم. وقد استطاع الأنباط في القرن الرابع قبل الميلاد السيطرة على الطرق التجارية بين مصر والشام والجزيرة العربية(١٤). وقد تأثرت مملكة الأنباط بالحضارة الهلنستية. وفي عام ٦٤ق.م تمكن القائد الروماني (بومبي) من احتلال سورية، وبذلك وقعت مدينة عمان ضمن أملاك الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت تابعة لولاية سورية، والتي أصبحت عاصمتها إنطاكية(١٥)، وبقي جنوب الأردن تحت حكم الأنباط.

وتمكن الإمبراطور الروماني (تراجان) عام ١٠٦م من السيطرة على أملاك الدولة النبطية، وأُلحقت مدينة البتراء بالولاية العربية(١٦)، وأولى الإمبراطور تراجان هذه المنطقة عناية كبيرة لما تتمتع به من مركز تجاري مهم، فأنشأ العديد من الطرق، أهمها الطريق المعروف باسم فياتراجان أو الطريق السلطاني، والذي يربط مدينة بصرى بمدينة عمان، وحتى البتراء وثم إلى العقبة أو ايلة(١٧).

وأقام الرومان العديد من الحصون المنيعة لحماية الطرق التجارية، وكذلك لحماية القوافل من غارات البدو(١٨). وفي تلك الفترة اهتم الرومان بمدينة عمان اهتماماً كبيراً، فأعادوا تخطيط المدينة، وأنشأوا العديد من المنشآت مثل (الفورم)،

والمدرج (الاوديون)، وشارع الأعمدة، والحمامات، وأقاموا بعض المعابد، ومن أهمها معبد الإله هرقل[١٩]، والذي تم بناؤه على القلعة. وعند ظهور الدين المسيحي اعتنقه العديد من السكان، فانتشرت الكنائس في العديد من المدن، وذلك وبعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوماً في عام ٣١٣م يعرف باسم مرسوم ميلانو ترك الحرية كاملة لممارسة الدين الجديد، فعثر في مدينة عمان على العديد من الكنائس التي تتخذ التصميم البازليكي، منها واحدة في قلعة عمان، وأخرى في منطقة الصويفية، وفي القويسمية وغيرها من المناطق حيث كانت تعتبر مدينة عمان مركزاً أبرشياً مهماً، وهي واحدة من الأبرشيات التسع عشر التابعة لمدينة بصرى. وعندما عقد مجمع نيقه المسيحي حضره عدد من أساقفة مدينة عمان، ثم تحول بعد ذلك إلى بطراكية[٢٠]. وفي عهد الخليفة أبي بكر الصديق فتحت مدينة عمان على يد القائد يزيد، بن أبي سفيان، وذلك ضمن فتوحات المسلمين لبلاد الشام فيما بين ١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م[٢١].

وتبعت مدينة عمان إدارياً لدمشق (٢٢)، ونظراً لما تمتعت به من مكانة تجارية وجغرافية فقد أولها الخلفاء الأمويون جل اهتمامهم وعنايتهم، ومما يؤكد ذلك إقامتهم للعديد من القصور، والمساجد، والمساكن فيها[٢٣]، وأصبحت مدينة عمان، أحد مراكز سك العملة الإسلامية في تلك الفترة[٢٤].

وجعلها الخلفاء الأمويين مركزاً لكورة البلقاء وأصبحت المركز الرئيسي لجميع المراكز الإدارية فيها. واشتهرت عمان وضواحيها بكثرة البساتين والمزارع[٢٥]. وأشار بعض الجغرافيين إلى أنها تعرف باسم معدن الحبوب[٢٦] لما اشتهرت به من خصوبة أراضيها وإنتاجها الكثير للحبوب، وكذلك لوقوعها على طريق الحج الشامي الذي يربط دمشق بالديار الإسلامية المقدسة[٢٧].

وهناك بعض الروايات التي تتحدث عن فقدان مدينة عمان لدورها بعدما انتقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد في العصر العباسي وأنها أصبحت مهملة مقارنة بما كانت عليه إبان العصر الأموي[٢٨]. ولكن التنقيبات الأثرية الحديثة تناقض هذا

الادعاء، إذ أنه عثر على دلائل استيطان وإعادة استخدام لبعض المباني الأثرية التي كانت قائمة في ذلك الوقت في جبل القلعة(٢٩)، كما أن كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب تتحدث عن أهمية عمان ودورها، وأنها كانت مركزاً لوالي البلقاء في العصر العباسي(٣٠).

وفي عام ٦٢٦هـ-١٢٢٩م تشكلت إمارة الكرك الأيوبية المستقلة بزعامة الملك الناصر داود(٣١)، وكانت تشمل كلاً من الكرك، والسلط، وعجلون، والبلقاء، والأغوار، ونابلس، والقدس، والخليل، وبيت جبريل، وأصبحت عمان إحدى مدن إمارة الكرك الأيوبية(٣٢). وبعد ذلك دب النزاع بين الأيوبيين في الشام ومصر، وأدى إلى الاستنجاد بالأجنبي، فمنهم من استنجد بالفرنجة ومنهم من استنجد بالخوارزمية إلا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب تمكن من هزيمة هؤلاء الأمراء بمساعدة بعض الأمراء الأيوبيين(٣٣). وبعد موته تولى الحكم الملك المغيث بن عمر(٣٤)، وفي هذه الأثناء تعرضت ديار الإسلام إلى هجوم التتار المدمر، فدخلوا دمشق في عام ٦٥٨هـ-١٢٦٠م، ثم تابعوا مسيرهم نحو فلسطين والأردن، وعاثوا فيها الفساد. وبعد أن هزم التتار في معركة عين جالوت في عام ٦٥٨هـ-١٢٦٠م وعندما اعتلى الظاهر بيبرس لعرش دولة المماليك في مصر والشام، أدرك ما تمتاز به منطقة الأردن (شرق الأردن) من أهمية لموقعها الاستراتيجي الهام لتوسطها بين مصر، والشام والعراق، والحجاز، فقام بإعادة بناء قلعة الربض التي هدمها التتار(٣٥)، وإعادة ترميم قلعة السلط. أما مدينة عمان فقد أصبحت مدينة هامة ومركزاً (لكورة من كور دمشق) ومكان إقامة الوالي المسؤول عن المنطقة(٣٦). وفي فترة حكم المماليك شهدت مدينة عمان اهتماماً خاصاً من الناصر محمد، فزاد في عمرانها وأبطل المكوس المفروضة على أهلها(٣٧)، وفي فترة سلطنة الناصر حسن الثانية زاد نفوذ الأمير صرغتمش. وفي هذه الفترة أولى الأمير اهتماماً خاصاً بالمنطقة، وبنى في عمان مدرسة، وعمل على نقل الولاية والقضاء إليها حتى قيل إن مدينة عمان "جعلت أم تلك البلاد(٣٨)".

وبعد سقوط دولة المماليك على يد الأتراك العثمانيين وقعت جميع أملاك دولة

المماليك في يد الدولة العثمانية، وتوالت النكبات الطبيعية على المنطقة فتحولت عمان في القرن الخامس عشر للميلاد إلى قرية صغيرة ثم هجرها أهلها ولم يبقَ فيها من أثر لحياة سوى ورود قطعان الماشية إليها للاستقاء من ماءها. إضافة إلى بعض المحطات التي عكست اهتمام العثمانيون بالمنطقة كبناء الحامية العثمانية التي جعلت لحماية الخط الحديد الحجازي، ومما زاد في أهميتها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وصول جماعات من الشراكسة إليها[٣٩].

وبعيد قيام الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي، ٩ شعبان ١٣٣٤هـ-٩ حزيران ١٩١٦م، تم إرسال القوات العربية لتحرير بلاد الشام ابتداءً من تحرير مدينة العقبة على يد الأمير فيصل بن الحسين وبمساعدة القوات البريطانية تم تحرير مدينة عمان، ثم دخلت القوات العربية دمشق في تشرين الأول عام ١٩١٨م، إلا أن قوات الحلفاء قامت بتوزيع إدارة هذه البلاد كالتالي:

- الجزء الأول ويضم فلسطين ويتبع القوات البريطانية.
- الجزء الثاني ويضم لبنان والساحل السوري ويتبع القوات الفرنسية.
- الجزء الثالث ويتبع الأمير فيصل ويضم سورية الداخلية وشرق الأردن.

في العهد الفيصلي أصبحت مدينة عمان قضاء ضمن لواء البلقاء، وفي عام ١٩٢٠ تم استقلال سورية الطبيعية (سورية، لبنان، وفلسطين، وشرق الأردن) واتخذ أعضاء المؤتمر السوري إعلاناً بذلك، ونادوا بالأمير فيصل بن الحسين ملكاً عليها. ولكن هذه الدولة الفتية أجهضت بعد أن هزمت القوات العربية في معركة ميسلون، وتمكن الفرنسيون من الاستيلاء على دمشق[٤٠]، وأصبحت عمان مركزاً للحركة الوطنية في فترة الحكومات المحلية التي ظهرت في كل من اربد، السلط، والكرك، وأصبحت عمان في تلك الفترة موئلاً لأحرار سورية الذين بدعوا يتوافدون إليها.

وقد طلب زعماء المقاومة في عمان من الملك حسين علي في مكة إيفاد أحد أنجاله إلى شرق الأردن لكي يتزعم حركة المقاومة العربية ضد الاحتلال الأجنبي في بلاد

الشام، فأرسل ابنه عبد الله بن الحسين، فوصل إلى معان في ١١ربيع الأول ١٣٣٩هـ ١١تشرين الثاني ١٩٢٠م. وقد لقي الأمير عبد الله أشد الترحيب من زعماء المقاومة ومن سكان شرقي الأردن(٤١).

وفي عام ١٩٢١ اجتمع سمو الأمير عبد الله مع تشرشل في مدينة القدس، وتم الاتفاق بينهما على أن يؤسس سمو الأمير عبدالله إمارة شرق الأردن على أن تكون كستقلة استقلالاً إدارياً تاماً(٤٢).

ومنذ ذلك التاريخ وحتى وقتنا الحالي تمتعت مدينة عمان بأهمية خاصة لدى العائلة الهاشمية، حيث أولوها كل عناية واهتمام، وازدهرت ازدهاراً كبيراً على جميع المستويات.

المسوحات الأثرية:

أجري العديد من المسوحات الأثرية في الأردن، وكانت من ضمنها مدينة عمان؛ فمن أوائل الباحثين الذين أقاموا بعمل مسوحات أثرية نورثي (Northey) في عام ١٨٦٧م. وقد أشر المسح الذي قام به إلى بعض المعالم الأثرية الظاهرة للعيان في ذلك الوقت. مثل معبد هرقل، والكنيسة البيزنطية، وقاعة الاستقبال التي أطلق عليها اسم الكنيسة المصلبة، وقال أنها كانت مسقوفاً(٤٣).

ثم تبعه بعد ذلك كوندر (Conder) في عام ١٨٨١م، فقام بإجراء مسح أثري في منطقة شرق الأردن، وكانت عمان ضمن هذا المسح. وكشف المسح الذي أجراه عن بعض الآثار الباقية، فذكر وجود مسجد في وسط المدينة، وبقايا تعود إلى العصر الأموي، من أهمها القصر الأموي في جبل القلعة(٤٤). ثم قام بتلر (Butler) في عام ١٩٠٤م بإجراء مسح تحت عنوان "مسح لأقدم المباني الموجودة في سورية" وكان من ضمنها مدينة عمان، وأشار كذلك إلى المباني الموجودة في جبل القلعة في وسط مدينة عمان، وإلى العديد من المواقع المحيطة بعمان(٤٥). وقام جلوك (Glueck) في عام ١٩٣٤م قام فريق من دائرة الآثار العامة بإجراء مسح أثري في شرق الأردن وقد

كانت نتائج المسح غير دقيقة[٤٦]. وفي عام ١٩٧٦م قام فريق من دائرة الآثار العامة بإجراء مسح أثري في منطقة الجبيهة وتلاع العلي، فاكتشفت عدد من المواقع التي تعود إلى فترات مختلفة[٤٧]. وفي عام ١٩٧٧-١٩٧٨م قام نورثج (Northedge) بإجراء مسح أثري للمباني الإسلامية في عمان، فأشار إلى المسجد، وإلى القصر الأموي في جبل القلعة[٤٨]. وفيما بين الأعوام ١٩٨٤-١٩٨٧م قامت بعثة أمريكية بإجراء مسح أثري لمنطقة جنوب غرب مدينة عمان حول موقع يعرف باسم تل العميري[٤٩]. وفي الأعوام من ١٩٨٦ حتى ١٩٨٩ قامت بعثة أمريكية ـ أردنية أخرى بإجراء مسح أثري التي تعود في منطقة عين غزال، فتم الكشف عن العديد من المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات مختلفة[٥٠]. وفي عام ١٩٨٦م قام وائل الرشدان بإجراء مسح أثري لمنطقة أم السماق الجنوبي لمساحة ٥كم٢. حيث تم اكتشاف العديد من المواقع التي تعود إلى فترات مختلفة[٥١]. وفي عام ١٩٨٨ قام فريق مؤلف من دائرة الآثار العامة والمركز الأمريكي للأبحاث الشرقية بعمل مسح أثري لمدينة عمان الكبرى حيث تم العثور على حوالي (٢٢٢) موقعاً ترجع لمختلف الفترات[٥٢].

نتائج الحفريات الأثرية:

يقع جبل القلعة في قلب العاصمة عمان تحيط به الأودية من جميع الجهات فيما عدا الجهة الغربية حيث لا تزال الأسوار اليونانية قائمة. ويتكون التل من ثلاث مصاطب تتدرج من الشمال إلى الجنوب الشرقي، وقد أقام العمانيون في المصطبة الثالثة السفلية عاصمتهم التي ازدهرت من القرن الثاني عشر قبل الميلاد حتى السادس الميلادي. وعلى المصطبة الأولى أو العلوية أنشأت المعابد الرومانية التي تعرضت للهدم والنهب أثناء العهد البيزنطي، وقد بنيت المدينة الأموية فوق هذه المصطبة .وقدق تم اكتشاف جزء من هذه البيوت عندما قام مدير الآثار لانكستر هاردينج (Lankster Harding). في عام ١٩٤٩ بالتنقيب في موقع المتحف الحالي، وقد كشفت هذه الحفريات آنذاك عن بيت أموي يتألف من فناء مكشوف تحيط به عدة حجرات يتوسطها إيوان مستطيل الشكل. ووجد في إحدى هذه الغرف بئر تجميع لمياه الشتاء

التي كانت تُجمع من سقف هذا المنزل. وكان المنزل يتكون من طـــابقين، وفرشــت أرضيات الطابق الثاني بالفسيفساء الحجرية الملونة. وتم العثور في إحــدى خزائــن الحائط لهذا البيت على موجودات أثرية غاية في الأهمية، وذلك لدلالتــها الحضاريــة والتقدم الفني الذي تميزت به مثل مبخرة برونزية مزخرفة بزخارف نباتية، وأخــرى اتخذت شكلاً مربعاً تعلوه قبة، وعلى زواياه الأربع شراشيب. وعثر كذلك على زبديــة زجاجية، وكذلك على بعض الأسرجة الفخارية، والعديد مــن القطــع الفخاريــة ذات الزخارف المدهونة باللونين الأحمر والبرتقالي، وكذلك على العديد من الفلوس الأموية التي تؤكد تاريخ البناء ونسبته إلى العصر الأموي(٥٣).

وفي عام ١٩٧٥ قام كل من فوزي زيادين وكريستل بينــت (Cristal Bennett) بإجراء حفريات في المنطقة (أ) الواقعة إلى الشرق مــن الإيــوان الجنوبــي لقاعــة الاستقبال وبالقرب من موضع الخزان المائي الدائري الشكل. وكـــانت نتيجــة هــذه الحفريات الكشف عن العديد من البقايا المعمارية التي تعود إلى العصر الأمــوي(٥٤). وفي عام ١٩٧٦، استكملت أعمال الحفريات بتشكيل فريق عمل أردني برئاسة فـوزي زيادين وآخر بريطاني برئاسة كريستل بينت حيث تم الكشف في المنطقة (٢) عـــن بناءين كبيرين يتكون لأولهما من ست غرف تشبه إلى حد كبير البيت الــذي اكتشــفه لانكستر هاردينج من حيث استخدام المواد الأولية وطريقة البناء ومن حيث التصميــم وتوزيع الغرف. وإلى الغرب من هذا البناء تم الكشف عن شارع يمتد من الشمال إلى الجنوب، وعن البناء الثاني والذي يقع فوق بناء يعود إلى العصر البيزنطي(٥٥).

واستمرت الحفريات الأثرية في هذه المنطقة حتى عام ١٩٧٨ وتم الكشف الكلــي عن هذه المنطقة والبيوت التي تم ذكرها سابقاً(٥٦).

وفي عام ١٩٨٧ تم الكشف عن بناء يُعتقد بأنه بيت أموي كذلك، ويتكون من فنــاء مركزي وغرف موزعة على جانبيه الشمالي والجنوبي كما تم العثور في جبل القلعــة على آثار تدل على استيطان يعود إلى العصر العباسي، وذلك بعــد التنقيبــات التــي أجراها محمد النجار من دائرة الآثار العامة بالقرب من معبد هرقل. وابتداءً من عــام

١٩٩٣ قامت بعثة أسبانية باستكمال الحفريات الأثرية التي بدأتها في عام ١٩٧٨-١٩٨١ في القصر الأموي وشارع الأعمدة بإشراف انطونيو الماغرو[٥٧]. وأدت نتائج هذه الحفرية إلى التأكيد على الهوية الأموية للقصر.

القصر الأموي في جبل القلعة:

يقع القصر الأموي في الطرف الشمالي من جبل القلعة، ويعد من أهم الآثار الباقية للعيان على هذا الجبل، إذ يمتاز بارتفاعه عن باقي الآثار الباقية في هذه المنطقة، وتبلغ مساحة هذا القصر ٢١,٠٠٠م٢ لتشكل ما نسبته ١٧% من مساحة القلعة[٥٨]، ويشتمل القصر على العديد من الوحدات المعمارية التي ما زالت باقية حتى الآن، ومن أهمها الإيوان (قاعة الاستقبال)، ودارة الإمارة، وهو محدد بجدار خارجي على غرار الجدار الذي اكتشفه فوزي زيادين[٥٩].

ومن خلال المخطط العام للقصر يتبين أنه قد قسم إلى ثلاث مناطق سكنية بواسطة جدارين يمتدان من الشرق إلى الغرب، وسمك كل منهما ١,٣٠م، وهذه الأقسام هي: الجزء الجنوبي الجزء الأوسط، الجزء الشمالي.

يتقدم الجزء الجنوبي كتلة المدخل وتعرف باسم الإيوان، (صورة رقم -١- مخطط رقم ٣)، أو قاعة الانتظار. يقع هذا البناء في الطرف الجنوبي من القصر وإلى الشمال من المتحف الوطني للآثار، ويعد المدخل الرئيسي للقصر، ويتخذ شكلاً مستطيلاً مساحته ٢٤,٤٠م×٢٦,١١٠م. مدخله الرئيسي يقع في الجهة الجنوبية، يعلوه عقد على شكل حدوة الفرس وعلى جانبي المدخل مقعدان حجريان لكل منهما متكأ على شكل ربع دائرة في طرفها الجنوبي. أما مخططه الداخلي فمتعامد الشكل بأربع مناطق متساوية في مخططها إلا أنها متغايرة في التغطيات، حيث تم تغطية المنطقتين الشمالية والجنوبية بأقبية برميلية، أما في المنطقتين الشرقية والغربية فقد غطيت بأنصاف قباب، والساحة الوسطى لهذه المناطق مربعة الشكل ومكشوفة وتبلغ مساحتها حوالي ١٠م ×١٠م.

أما المناطق القائمة في زوايا التعامد الغربية والجنوبية الشرقية والشمالية فقد شغلت بثلاث غرف، سقفت بأقبية برميلية. وفي زاوية التعامد الشمالية الغربية درج حجري حلزوني الشكل يؤدي إلى سطح المبنى. ويعتقد بأن كتلة المدخل كانت تتكون من طابق واحد، أما أهم ما يميز هذا المبنى فهو الزخارف الحجرية التي تزين الجدران الداخلية للبناء المتعامد، وهناك ثلاثة أدوار من الحنايا مزينة بالأعمدة الملتصقة وفوقها أقواس في باطنها زخرفة مسننة. ويغطي الحنايا الداخلية زخارف نباتية من الوريدات، وأوراق الاكنتس، والأشكال الهندسية (صورة ٢،٣،٤)، وهي تشبه إلى حد كبير الزخارف الجبصية التي اكتشفت في قصر الحير الشرقي الذي بناه هشام بن عبد الملك في الجزيرة. أما المواد المستخدمة في البناء فهي الحجارة الكلسية الضاربة إلى اللون الزهري. ويبدو أن البناء استخدم قاعة انتظار لعامة الناس الذين يأتون لمقابلة الأمير أو الوالي، إذ أصبح لمقابلة الأمير أو الوالي آداب خاصة حيث أدخل معاوية بن أبي سفيان وظيفة الحاجب(٦٠).

المنطقة الجنوبية: تشغل هذه المنطقة مساحة تقدر بـ (٦٠٠٠)م٢ يتوسطها فناء مستطيل الشكل وعلى جانبيه الشرقي والغربي بابان يؤديان إلى جزءين يحتويان على مساكن تحيط بفناء داخلي. وإلى الغرب من الفناء الرئيسي للمنطقة الجنوبية هناك مدخل يؤدي إلى شارع، وهو يمتد بانحراف من الجنوب إلى الشمال (صورة رقم٥)، ويقسم الجزء الأوسط للقصر إلى قسمين، وتبلغ مساحة هذا الجزء ٩٨٥م. ورصف هذا الشارع ببلاطات من الحجر الجيري وضعت بشكل مواز للجدار الشمالي(٦١)، ويعود تاريخ هذه الرصفة إلى العصر الروماني(٦٢)، ويقسم هذا الشارع الفناء إلى قسمين، القسم الشرقي والقسم الغربي، وعلى الجانب الغربي للشارع يوجد ثلاثة مداخل تؤدي إلى وحدات سكنية لم يتم التنقيب عنها.

وعلى الجانب الشرقي للشارع مدخلان يؤديان إلى وحدتين سكنيتين... وينتهي الشارع في طرفه الشمالي بخمس درجات تفضي إلى مدخل عرضه ٣م، في الجدار الشمالي الفاصل بين القسمين الأوسط والشمالي. وهذا المدخل يؤدي إلى فناء المنطقة

الشمالية التي تبلغ مساحتها الإجمالية ١٠٠,٥م(٦٣)، وقد أقيمت هذه المباني فوق أنقاض الفترة الرومانية. والمباني التي توجد في هذه المنطقة تعرف باسم دار الإمارة وتشتمل على قاعتين رئيسيتين، الأولى قاعة استقبال، والثانية قاعة العرش. وتبلغ مساحة قاعة الاستقبال ٨,٦٠ × ٦,٩٠م وهي قاعة مستطيلة لها ثلاثة مداخل رئيسية هي: المدخل الشرقي والغربي ويؤديان إلى بعض الغرف الملاصقة للقاعة، أما المدخل في الجهة الشمالية فيؤدي إلى قاعة العرش، وتطل واجهتها الجنوبية المفتوحة على الفناء بكامل اتساعها (صورة رقم٦)، ويعتقد أن أرضية قاعة الاستقبال كانت مغطاة بفسيفساء أرضية، ويعتقد كذلك أنه كان يعلوها قبو ببرميلي، أما قاعة العرش فهي مربعة الشكل ويبلغ طول ضلعها (١٣م) ومخططها العام من الداخل على شكل صليب متعامد وتتوسطها ساحة مركزية مربعة الشكل (٧,٣٠م)) تحيط بها أربع فجوات مستطيلة (١,٧٠م × ٤,٨٠م) تؤدي كل منها إلى مدخل عرضه ١,٢٠م. وتؤدي هذه المداخل إلى الغرف المتاخمة لقاعة العرش، وعلى ما يبدو، فإن أرضية قاعة العرش كانت مرصوفة بالفسيفساء الملونة ذات الزخارف الهندسية التي تم العثور على أجزاء منها في عام ١٩٨٢ في أرضية هذه القاعة(٦٤). ويحيط بقاعة الاستقبال مجموعات من الوحدات السكنية، ومن خلال الحفريات الأثرية التي تمت في القصر فقد تم تأريخه إلى العصر الأموي، وربما أعيد استخدامه في العصر العباسي(٦٥).

رجم الكرسي:

يقع رجم الكرسي إلى الغرب من مدينة عمان وإلى الشرق من مستشفى مدينة الحسين الطبية وبلدة زادي السير(٦٦)، وقد ورد ذكر هذا الموقع عند ياقوت الحموي، حيث قال إنها زراعية(٦٧). وعندما زارها (كوندر) وجدها مهجورة(٦٨)، ووصفها (جلوك) بأنها آثار لبرج دائري يعود إلى الفترة العمونية(٦٩)، وقد بدأت الحفريات الأثرية في هذا الموقع في عام (١٩٨٣) بإشراف عبد الجليل عمرو من قسم الآثار في الجامعة الأردنية،وما تزال الحفريات مستمرة حتى الآن(٧٠). وكانت نتائج هذه الحفريات المتتابعة اكتشاف العديد من الآثار والمباني، ومن أهمها العثور على

معصرتين ومسجد تعود إلى العصور الإسلامية[٧١]. وسوف نورد وصفاً لهذه المباني.

المعصرة الأولى:

تتكون من أرضية مربعة تقريباً مخصصة للهرس، طول أضلاعها ٧,٤٠ × ٧,٥م مرصوفة (بالمكعبات) من الفسيفساء البيضاء، ويتوسطها حفرة ارتكاز (مخصصة لعمود ارتكاز وهو حجر كلسي تجويف (١,٣٠م × ٠,٧٠م) عمقه ٠,٣٥م. (صورة رقم ٧) (مخطط رقم٤)، وتحيط بأرضية الهرس ستة أحواض لحفظ العنب بعد جلبه من الكروم[٧٢]. ومساحات هذه الأحواض متفاوتة، ويفصلها عن أرضية الهرس جدار. وقد رصفت أرضيات الأحواض بالفسيفساء البيضاء، وكان العصير يجمع في حوضين كبيرين، ويوجد في أحد هذه الأحواض حوض صغير كان مخصصاً لتصفية العصير قبل وصوله إلى الحوض الكبير[٧٣]. كما وجد بالقرب من هذه المعصرة أماكن للتخزين منخفضة عن أرضية المعصرة، وربما كانت مغطاة بأقبية، حيث تم العثور في هذه المنطقة على طابون وحفر صغيرة مقصورة، يتضح أن بعضها كان له غطاء، ويغلب الظن أنها كانت تستخدم لتخزين جرار الخمر أو الخل[٧٤]، وقد أرخت هذه المعصرة إلى العصر الأموي استناداً للقطع الفخارية التي وجدت في الموقع، والتي تعود للفترة الأموية.

المعصرة الثانية[٧٥]:

تتكون من أرضية الهرس مربعة الشكل تقريباً (٥,٥م × ٥م) تتوسطها حفرة ارتكاز مخصصة لعمود ارتكاز، وهذا التجويف داخل حجر كلسي تبلغ قياساته (١,٣٠م ×٠,٧٠م) وعمقه (٠,٣٥م). ويحيط بأرضية الهرس حوضان تبلغ مسلحتهما (١,٨٠م×١,٥٠م) (صورة رقم٩).

رصفت أرضية الهرس والحوضان بفسيفساء حجرية بيضاء. وفي الجهة الغربية للمعصرة بئر تجميع لعصير العنب. وتصميم هذه المعصرة يختلف عن المعصرة الأولى، وهي أكثر تطوراً منها. وقد وجدت بعض القطع من الخزف الأيوبي والمملوكي، والفخار المدهون والمزخرف بالزخارف الهندسية التي تميز تلك الفترة،

كما تم العثور بعض القطع النقدية التي تعود إلى تلك الفترات. ويعتقد أن هذه المعصرة استخدمت في وقت سابق ربما في العصر الأموي، وذلك لاكتشاف العديد من الأسرجة التي تعود إلى العصر الأموي في هذه المعصرة.

المسجد:

مسجد مستطيل الشكل مساحته الداخلية (٩,٥٠م×٦٠,٠٠م)، تم العثور على ست دعامات مدمجة بالجدران(٧٦). وكانت أرضية المسجد مفروشة بمكعبات من الفسيفساء الحجرية البيضاء والكلسية، والملاحظ أن المحراب لا يتوسط جدار القبلة، وربما كان السبب في ذلك وجود الدعامة المدمجة في الحائط، والتي تتوسط الجدار. والمحراب مجوف وارتفاعه الحالي (١,٤٠م)، وعرض فتحته (١,١٠م)، وعمقه (١,٢٠م)، ويتخذ شكل نصف دائرة، وهو بارز عن جدار القبلة(٧٧). وبينت جدران المسجد من الحجارة(٧) المنتظمة، وفي الجهة الشرقية ثلاث درجات تؤدي إلى المدخل الوحيد للمسجد، ولا يتوسط هذا المدخل الجدار الشرقي. وأعاد المنقب تاريخ هذا المسجد إلى العصر الأموي لوجود (١٧) زبدية فخارية تعود إلى العصر الأموي(٧٨) (مخطط رقم٥).

كهف البصة:

يقع كهف البصة على بعد ١٧ كم جنوب غرب عمان، على الطريق الواصل بين بلدة وادي السير وقرية عراق الأمير. في عام ١٩٧٤ بدأ العمل في تنظيف هذا الكهف بعد أن اكتشف واجهة هذا الكهف التي كان يعلوها مثلث يتوسطه قوس يعرف بالقوس السوري(٧٩). وبعد تنظيف الواجهة الأمامية تم العثور على درج مكون من ست درجات صفت من الحجارة الكلسية تؤدي إلى مدخل الكهف، ثم العثور على باب على جانبيه عمودان لا يزال أحدهما قائماً تستند عليه واجهة الكهف. ووجد في هذا الكهف غرفتان صغيرتان، الأولى مساحتها ١,٦٥م ×٢,٨٠م يهبط إليها من ساحة بثلاث درجات(٨٠). أرضية هذه الغرفة كانت مغطاة بطبقة من الفسيفساء الحجرية الملونة يعتقد أنها تعود إلى العصر البيزنطي، وغطت هذه الأرضية طبقة من رصفة مكونة

من الحصى، والحجارة الصغيرة، والرمل تعود إلى العصر الأموي.

الغرفة الثانية فيدخل إليها من كدخل في الجهة الشرقية للغرفة الأولى وأرضيتها مماثلة لأرضية الغرفة الأولى[٨١]. وتم العثور في هذا الكهف على مجموعة من الدنانير الذهبية، والدراهم الفضية، والفلوس تعود إلى العصر الأموي المملوكي[٨٢]. وتعتقد الباحثة بأن هذا الكهف كان يستخدم في العصر البيزنطي ككنيسة بسبب طريقة تقسيمه من الداخل، إذ أن تصميمه يتبع تصميم الكنائس البازليكية المقسمة من الداخل إلى ثلاثة أروقة بواسطة صفين من الأعمدة عمودية على حنية الكنيسة[٨٣]. وفي الفترة الأموية تم إضافة الغرفتين المشار إليهما سابقاً (مخطط رقم٦). وبناء عليه أرخت الباحثة هذا الكهف إلى ثلاث فترات:

- الأولى: العصر البيزنطي (٥٠٠-٦٠٠م).
- الثانية: العصر الأموي من (٦٦١-٧٥٠م).
- الثالثة: العصر المملوكي (١٢٦٠-١٤٢٠٠م)[٨٤].

حفرية أم السمّاق الجنوبي:

يقع موقع أم السماق الجنوبي إلى الجنوب من مدينة عمان بحوالي ١٨كم، إلى الغرب من منتزه عمان الوطني.

بدأت أعمال التنقيب الأثري هناك في عام ١٩٨٠، وذلك في حفرية عرضية[٨٥]. وفي عام ١٩٨٦ تم استكمال أعمال الحفريات، وكان من أهم نتائجه اكتشاف موقع استيطاني ريفي يتكون من معصرة للعنب وفرن لشي الحجارة الجيرية، وأماكن للسكن، والإقامة، والتخزين وهذه محاطة بسور مبني من الحجارة الجيرية المشذبة، وينقسم الموقع إلى قسمين شرقي وغربي.

القسم الغربي يتكون: من معصرة، وفرن لشي الحجارة الجيرية، ومستودع تخزين، أما القسم الشرقي فكان مخصصاً للسكن.

وتتكون المعصرة من أرضية لهرس العنب مربعة الشكل يتوسطها حجر كلسي مجوف ليرتكز فيه لولب الارتكاز[٨٦]. وحوض لتجميع العنب وهو مربع الشكل (٢,٣٠م ×٢١٠ م) وفي الجهة السفلية لهذا الحوض حوض صغير منخفض عن أرضية الحوض السابق كان يستخدم لتصفية العصير.

أرضية هذا الحوض وأرضية الهرس مرصوفتان بالفسيفساء الحجرية بيضاء اللون[٨٧]، وهما مائلتان ميلاً انسيابياً بسيطاً نحو بئر لتجميع العصير يقع في الزاوية الشرقيَة الشمالية لحوض الهرس (عرضه ٠,٩٠م، عمقه ١,١٠م). وإلى الشرق من المعصرة عثر على فرن لشي الحجارة الجيرية مع مساحة مكشوفة بالإضافة إلى حوضين محفورين بالصخر ربما استخدما لطفي الحجارة الجيرية بالماء بعد الشي. والناتج بعد الطفي كان يستخدم لطلاء الجدران باللون الأبيض، أما الفرن فيتخذ شكلاً أسطوانياً محفوراً في الصخر، الجزء الشرقي منه مبني بالحجارة، وربما كان مغطى بقبة، ويوجد لهذا الفرن ثلاثة منافذ رئيسية، واحد في الأسفل وكان مخصصاً لوضع المواد المراد شيها بداخله، ومدخلان للتهوية. وكانت المواد المراد إحراقها تبقى في الفرن مدة عشرة أيام حتى يتم التحول لهذه الحجارة، حيث كانت تستخدم هذه المادة في البناء، ولا تزال آثار الحرق واضحة على جدران الفرن والحجارة ما زالت موجودة بداخله[٨٨] (مخطط رقم٧).

وإلى الجنوب من الفرن تم العثور على غرفة مستطيلة الشكل وبجانبها مبنى مستطيل تبلغ أبعاده ٥,٥٠م × ٤,٢٠م مبني من الحجارة الجيرية المشذبة قائم على جدران وأربعة أقواس دائرية الشكل كانت مخصصة لحمل السقف بواسطة عوارض حجرية[٨٩]. والتسقيفات كانت تشبه إلى حد كبير التسقيفات التي وجدت في قلعة الأزرق والمباني والمدينة التي وجدت في أم الرصاص، وفي منطقة حوران في جنوب سورية[٩٠]، وفي أنقاض هذه الحجرة تم العثور على بعض القطع من الفسيفساء الحجرية الملونة وجزء من قصارة جدارية كانت عليها زخارف ملونة باللون الأحمر أو البرتقالي، مما يؤكد أنه كان يوجد هناك طابق ثان، كانت أرضيته مرصوفة

بالفسيفساء الملونة وجدرانه مغطاة بالرسوم الجدارية. وتم العثور في هذا الجزء من البناء على نقش بالخط الكوفي البسيط محفور على قصارة هذا الحجر، يتضمن النص التالي "اللهم اغفر لعمر"(٩١).

وعثر في هذا البناء على جزء من هيكل عظمي في غير وضعه الطبيعي وعثر على العديد من اللقى الأثرية من أهمها قطع فخارية كاملة، ومناجل لقطف العنب، وعلى قطع نقدية تعود كلها إلى العصر الأموي(٩٢).

ونتيجة للدراسة المقارنة مع المباني الريفية الموجودة في حوران اتضح أن الطابق الأول كان مخصصاً للتخزين نتيجة للعثور على العديد من القطع في أماكنها، مثل المناجل، والأدوات الفخارية، وغيرها من القطع(٩٣).

- الجزء الشرقي: يتكون من أربع غرف ملتصقة بجدار السور المحيط بالموقع، أربع قواعد لأقواس كانت مخصصة لحمل السقف، كما في الطابق الأول في الجانب الغربي من الموقع، وذلك لوجود عوارض حجرية كانت مخصصة لتغطية السقف، ولهذه الغرفة باب وحيد من الجهة الغربية(٩٤).

- أما الغرفة الثانية فتبلغ أطوالها (٤,٦٠٠م × ٤,١٠م) وعثر على قواعد لقوسين كانت مخصصتين لقوس لحمل السقف. وأرضية هذه الغرفة مغطاة بطبقة من الملاط (القصارة) ويوجد في هذه الغرفة بابان، الأول من الجهة الغربية وهو الباب الرئيسي لهذه الغرفة وباب آخر يتصل مع الغرفة الثالثة.

- الغرفة الثالثة: أطوالها (٤٦٠م × ٤,١٠م) وهي تشبه الغرفة السابقة.

- الغرفة الرابعة: وهي غرفة مربعة الشكل تطل على الساحة الرئيسية من الجانب الشمالي بواسطة باب.

أرِّخ موقع أم السمّاق الجنوبي إلى العصر الأموي وذلك من خلال اللقى الأثرية التي تعود جميعها إلى العصر الأموي(٩٥). والموقع يعتبر من المواقع الاستيطانية الريفية المهمة في الأردن إذ أنه من المواقع القليلة التي زودتنا بمعلومات عن الحياة

والمباني الريفية التي تعود لهذه الفترة، إذ أن معلوماتنا في هذا الخصوص ضئيلة، لأن اهتمام الباحثين كان منصباً بالدرجة الأولى على دراسة القصور الإسلامية أو المنشآت الإسلامية الكبيرة. وكذلك تم العثور في هذا الموقع على العديد من القطع واللقى الأثرية الكاملة ومع بعض الفلوس النحاسية التي تعود إلى العصر الأموي، وقد تهدم هذا المبنى أثر الزلزال الذي ضرب المنطقة في عام (٧٤٧-٧٤٨م)[٩٦].

كهف أهل الكهف:

يقع كهف أهل الكهف في قرية الرجيب الواقعة على بعد ١٠كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة عمان. ولهذا الكهف أهمية دينية وتاريخية وأثرية، إذ ذكرت قصة أهل الكهف في القرآن الكريم في سورة الكهف بقوله تعالى:?أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً? آية (٩) من سورة الكهف. وقد ورد ذكر قرية القيم لدى العديد من الجغرافيين العرب. وربما كان اسم الرجيب الحالي محرفاً من الرقيم، إذ أن البدو المقيمين في المنطقة يلفظون القاف جيماً، ثم قلبت الميم باء[٩٧].أما الكهف ذاته فهو تجويف صخري فيه ستة نواويس حجرية منحوتة، ثلاثة في كل جانب. ومن خلال الحفريات الأثرية التي أجريت فيه ابتداء من عام ١٩٦٣ بإشراف رفيق الدجاني وبمشاركة رابطة العلوم الإسلامية عثر على العديد من القطع النقدية النحاسية والفضية تعود إلى العصور الرومانية، والبيزنطية، والإسلامية، ويبدو أن الكهف معروفاً منذ القدم، فأقيمت في العصر البيزنطي كنيسة صغيرة في عصر الإمبراطور جستنيان في عام ٥١٨-٥٢٨م ويعتقد أنها بنيت فوق الكهف[٩٨]. وفي العصر الإسلامي تم بناء مسجدين فوق الكهف تخليداً لذكرى أهل الكهف (صورة رقم ١٠).

المسجد العلوي:

مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ١٠م، ويعتقد بأنه بني على أنقاض صومعة بيزنطية وبنفس مساحة الصومعة. وجدرانه متهدمة حالياً، وما بقي منها يرتفع مدماكين أو ثلاثة مداميك عن أرضية المسجد. وهو مقسم إلى ثلاثة أروقة بواسطة أربعة أعمدة لا

تزال قواعدها موجودة. ويلاحظ أن المحراب مضاف إلى المسجد، يدل على ذلك اختلاف المواد المستخدمة في بناء المسجد. وهناك مدخل وحيد يقع إلى الشرق من المسجد، وثمة ساحة صغيرة أمام المدخل مساحتها (١٠م ×٢,٥م) في منتصفها عمودان على محور واحد وعمود آخر يقع إلى الغرب منهما (صورة رقم١١). وفي الزاوية الشمالية الشرقية غرفة صغيرة مربعة الشكل طول ضلعها ١,٥م يصعد لها بثلاث درجات، ربما كانت تستخدم كمئذنة وفي الساحة بئر عثر فيه على عدد من الأباريق التي تعود إلى الفترات الإسلامية ابتداء من الأموية وحتى الطولونية(٩٩) (مخطط رقم٨).

المسجد السفلي:

يقع هذا المسجد من الجهة الجنوبية للساحة المقابلة للكهف، وهو مستطيل الشكل عرضه٢,٥م وطوله ٤م. جدران المسجد حالياً على ارتفاع أربعة مداميك حجرية. ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف فتحته ١,٧٠م وعمقه ٢,٢٥م وهو بارز عن جدار القبلة، وإلى يمينه منبر حجري بارتفاع أربع درجات. يتوسط المسجد جدار عرضي يقسم المسجد إلى قسمين، القسم أكبر مساحة من القسم الأول، وللمسجد ثلاثة أبواب في جانبه الغربي(١٠٠) (مخطط رقم٨).

أما المواد المستخدمة في البناء فيعتقد رفيق الدجاني بأنها مأخوذة من كنسية بيزنطية كانت توجد في نفس الموقع، ودليله على ذلك وجود بعض الأحجار التي عليها بعض الرموز المسيحية(١٠١).

عمان من خلال كتب الجغرافيين العرب:

ذكرها ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) المتوفى سنة ٣٠٠هـ - ٩١٢م، وذلك عندما تناول ذكر كورة دمشق وأقاليمها، فذكر كورة عمان والجابية(١٠٢).

أما الأصطخري، أبو اسحق إبراهيم محمد، المتوفى في القرن الرابع الهجري-

العاشر الميلادي فقد حدد موقع مدينة عمان، فقال: "وعند البلقاء عمان الذي جاء في الخبر في ذكر الحوض أنه ما بين عمان وبصرى"(١٠٣).

وأورد المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله أحمد) المتوفى ٣٧٥-٩٥٨م وصفاً لمدينة عمان يقول فيه "أنها على سيف البادية ذات قرى ومزارع شاسعة وإنها معدن الحبوب". وكذلك يورد وصفاً للجامع فيقول: "إن بها جامعاً ظريفاً جميلاً يقع في طرف السوق صحنه مزين بالفسيفساء ويشبه جامع مكة المكرمة"، ويورد أيضاً بعض آثارها "منها قصر جالوت على جبل يطل عليها وربما كان يقصد قلعة عمان، وربما أيضاً قبر أوريا الذي أقيم عليه مسجد، وكذلك يورد بها ملعب سليمان، ولعله قصد المدرج الروماني. وتحدث عن الحالة الاقتصادية في عمان فقال: "أنها تشتهر بالتجارة وإنها كثيرة الفواكه"(١٠٤). أما ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل) المتوفى سنة ٣٨٠هـ-٩٩٠م. فقد أشار إلى مدينة عمان عندما كان يتحدث عن حوران والبثينة فأورد "أنها رستاقان عظيمتان من جند دمشق حيث مزارعها مباخس ويتصل أعمالها بحدود نهرين الذي عند البلقاء وعمان الذي جاء في الخبر أنه نهر ركي الحوض وأنه ما بين بصرى وعمان"(١٠٥).

ويذكر البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧هـ-١٠٩٤م، أن "عمان بلدة من عمل دمشق وأنها سميت بعمان بن لوط عليه السلام"(١٠٦).

وتحدث ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) المتوفى سنة ٦٢٦هـ-١٢٢٩م بتفصيل أكثر من باقي الجغرافيين لوصفه مدينة عمان وحديثه عن اسمها واشتقاقه، وتسميتها(١٠٧). ويذكر أن مدينة عمان "في طرف الشام وبالقرب منها الكهف والرقيم". وتحدث عن الحالة الاقتصادية في المدينة وما تشتهر به من الزراعة والتجارة(١٠٨)، وأشار إلى جامعها المزين بالفسيفساء.

أما ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد) المتوفى سنة ٦٤٨هـ-١٢٨٥م، فيورد أم عمان "مدينة البلقاء وسميت بعمان لوط"، كما يذكر أنها "إحدى كور (جند) الشام" ومدينة عمان كانت تابعة لكورة الظاهر، وعند حديثه عن أرض البلقاء يذكر فيها

مدينتين هما: مآب وعمان(١٠٩).

ويورد أبو الفداء (الملك الفريد عماد الدين إسماعيل) المتوفى سنة ٧٣٢هـ-١٣٣٢م أن عمان هي البلقاء ويصفها بأنها رسم كبير ويمر تحتها نهر الزرقاء حيث يقول أن: "حول عمان مزارع واسعة وأرضها طيبة وخصبة"(١١٠).

أما القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) المتوفى سنة ٧٢١هـ-١٤١٨م فيوضح أم مدينة عمان هي البلقاء كما يقول بعض الجغرافيين(١١١).

وابن سباهي (محمد بت سباهي) المتوفى سنة ٩٩٧هـ-١٥٨٩م، يقول أن عمان مدينة من "الإقليم الثالث من البلقاء"، ويعيد ما جاء به أبو الفداء ويضيف "بأن تربتها زكية وطيبة وعلى مقربة من مدينة عمان يوجد الكهف والرقيم"(١١٢).

وجاء عند القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي) المتوفى سنة ١٠١٩هـ-١٦١٠م أنها "رسم كبير وأن الزرقاء يمر من جانبها" وأنها مدينة تقع إلى القرب من الزرقاء(١١٣).

وفي الفترة الممتدة بين أواخر القرن الرابع عشر وأواخر القرن التاسع عشر، لا توجد بين أيدينا أية معلومات أو نصوص مكتوبة يمكن الاستناد إليها لمعرفة هل كانت مدينة عمان مأهولة بالسكان أم لا، إلا من خلال وصف الرحالة الأجانب الذين زاروا عمان على فترات متقطعة من القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين(١١٤).

فقد زار (سيتزن) مدينة عمان عام ١٨٠٦م وبعده (بيركهارت) الذي زارها في العام ١٨١٢م قادماً من مدينة السلط وواصفاً المدينة وآثارها القديمة(١١٥).

وفي عام ١٨٦٤ زار (تريسترام) مدينة عمان، وكتب عنها وصفاً موسعاً واصفاً إياها، والآثار الباقية التي لا زالت قائمة في عصره(١١٦).

وفي عام ١٨٧٦م زار (سيلاه مرل) عمان، وأقام فيها يومين، ابتدأ في وصف المدينة فذكر أولاً عمان عاصمة العمونيين، ووصفها بأنها فخمة وتحدث بعد ذلك عما

آلت إليه المدينة في العصر الروماني[١١٧]، إذ أضيفت إليها مسرحاً، ومنشآت عامة، وهيكل عظيم في التلة الشمالية وهو هنا يعني القلعة[١١٨]، وأكثر ما لفت نظر هذا الرحالة المعبد الروماني الذي يعلو التلة، ووصفه بأنه مبنى طوله مئة وستون قدماً وعرضه خمسون قدماً، ويوجد أربعة أعمدة في الجوانب الشرقية والغربية أما الشمالية والجنوبية فيوجد فيها ثمانية أعمدة تعلوها التيجان الكورنثية[١١٩]. ويضيف أن الرجال الذين صادفهم كانوا على درجة كبيرة من الذكاء. وفي طريقه من عمان إلى الزرقاء أشار إلى وجود العديد من القرى تقوم على ضفاف نهر الزرقاء الذي أطلق عليه اسم وادي عمان[١٢٠]. ويذكر أيضاً أن السمك كان يكثر في مياه الجدول "وادي عمان" ويذكر وجود كاتدرائية[١٢١].

وفي عام ١٨٨١ زار (كوندر) مدينة عمان فذكر أنه يتخللها جدول ماء صاف تحيط به شجيرات الدفلى، بينما الأبقار والجمال ترعى العشب الأخضر في المرج المنبسط بين التلال العارية من الشجر[١٢٢]. وأول ما صادفه جدار عظيم عند رأس العين، ثم هناك جسر روماني صغير وعدد من النواويس الحجرية على اليمين. ثم يستطرد: تظهر أمامك مدينة فلادلفيا الرومانية في واد ضيق بين التلال، فترى في المقدمة ضريحاً بديع البناء على الطراز الكورثي[١٢٣]، ثم خرائب لكنيسة، وحمامات رومانية. وإلى جانب الكنيسة جامع قديم ذو مئذنة متوسطة الارتفاع[١٢٤]. وأشار إلى وجود حمام يعود إلى العصر الإسلامي، وكذلك خان كان يقع إلى الشمال من الجامع، ويشغل المساحة الواقعة بينه وبين الحمامين الإسلامي والروماني. وترى إلى الجنوب تلة القلعة حيث تغطي منحدرات هذه التلة المنازل والأضرحة الرومانية[١٢٥]. ويستطرد في وصف مدينة عمان القديمة فيقول إنها أجمل المدن الرومانية في سورية، وكانت عامرة بالحمامات والمسرح، والأوديوم، وأضرحة كبيرة من الحجر. أما التلة أو القلعة فتحيط بهيكل واسع يعود إلى القرن الثاني للميلاد، وكذلك يعود المسجد والبناء الإسلامي في التلة (القلعة) إلى القرن السابع، على الأقل[١٢٦].

الآثار الإسلامية المندثرة:

أقيم في مدينة عمان العديد من المباني الإسلامية ولكن التوسع والامتداد العمراني للمدينة أديا إلى تهديم واندثار العديد من هذه المباني، وذلك للأسباب التالية:

١-المخططات التنظيمية الطموحة للمدينة في بداية هذا القرن والتي لم تراع وجود مثل هذه المباني.

٢-بناء المباني السكنية الحديثة في أماكن المواقع الأثرية.

- **ومن أهم هذه المباني المندثرة والتي وصفت في كتب الرحالة والمؤرخين والأثريين:**

١-الحمام:

أشار بعض الرحالة إلى وجود هذا الحمام في أواخر القرن التاسع عشر، وقد وصفه الرحالة كوندر بأنه حمام صغير مقام إلى الشمال من الجامع والخان. وهو بناء مستطيل الشكل يبلغ طوله ٤٠ قدماً، من الشمال إلى الجنوب، أما عرضه من الشرق إلى الغرب فيبلغ ٤٠قدماً، وهو مبني من الحجارة وكان يتألف من ثماني قاعات مغطاة بعقود مدببة، وذكر أنه كان هناك بعض الأحواض الخاصة للاستحمام حيث كان الجدول يزود هذا الحمام بواسطة قنطرة كانت تقع إلى الشمال من الحمام(١٣٩).

ولا يمكن التعرف إلى تاريخ هذا الحمام نتيجة الخراب الذي ألحق به في أواخر القرن التاسع عشر، وكذلك لعدم وجود أي دليل مادي يثبت تاريخ بنائه.

٢- الخان:

ويقع إلى الشمال من جامع عمان، ويشغل معظم المساحة الواقعة ما بين الحمامين الإسلامي والروماني. أما البناء فمستطيل يبلغ طول ضلعه من لشمال إلى الجنوب ٣٠٠قدماً وعرضه من الشرق إلى الغرب ١٧٠قدماً، وهو مكون من طابقين ومدخله بوابة كبيرة تؤدي إلى ساحة سماوية أو صحن مكشوف تحيط به مجموعة من البوائك

والتي تؤدي إلى الحواصل والمخازن في الطابق السفلي. أما الطابق العلوي فكان فيه غرف للإقامة.

وهذا الخان كان قائماً في أواخر القرن التاسع عشر عندما زاره الرحالة كوندر، وطاف به، وقدم وصفاً له، وقال إن معظم أجزائه متهدمة، وإن أبوابه ونوافذه كانت تعلوها العقود المدببة التي تشبه العقود التي أنشئت في الفترة الصليبية، فهو يقرر أنه ربما بنى في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر، أي في العصر المملوكي(١٤٠).

٣- مسجد عمان:

يقع هذا المسجد في موضع المسجد الحسيني الكبير في وسط مدينة عمان، وقد ورد ذكره لدى العديد من الجغرافيين العرب، فمنهم ابن خرداذبة المتوفى سنة ٣٠٠هـ-٩١٢م حيث شبهه بجامع مكة المكرمة، ويورد كذلك أن صحنه مزين بالفسيفساء(١٤١). وذكره ياقوت الحموي(١٤٢). وفي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي أشار إليه كوندر، وقد قام بوصفه والتقط له بعض الصور(١٤٣).

الوصف المعماري للمسجد: يتخذ المسجد شكلاً مستطيلاً تبلغ أطوال أضلاعه (٥٦,٨ × ٣٩,٧م). ويتكون من صحن مكشوف تبلغ أبعاده (٣٩,٧م ×٤٢,٨م) ويتكون من أربعة بلاطات موازية لجدار القبلة بواسطة ثلاث صفوف من الأعمدة وصف من البوائك مطلة على الصحن. ويخترق رواق القبلة مجاز قاطع الرواق المستعرض يقسم رواق القبلة إلى قسمين متساويين. والمجاز القاطع يتجه عمودياً على المحراب المجوف الذي يتوسط جدار القبلة، ويبلغ قطره الداخلي (٣,٥٨م) وينتهي بالأعلى بنصف قبة. أما الأروقة الجانبية والرواق المقابل لرواق القبلة فهي محمولة على أعمدة. وكان للمسجد ثلاثة مداخل، أوسطها أوسعها، أما الجانبيان فهما أصغر حجماً من الأوسط. وقد وجد أمام الواجهة الرئيسية للمسجد صف من الحفر المخصصة للأعمدة مما يدل على أن للمسجد رواقاً مقنطراً بواجهته الأمامية تشبه إلى حد كبير ما وجد في قصر الحلابات والجامع العمري في بصرى. وفي الزاوية الغربية من الجدار الغربي للمسجد كانت هناك مئذنة مزينة بنقش حجري يتكون من

عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

ويعتقد نورثج (Northedge) أن المسجد قد بني في العصر الأموي في فترة حكم الوليد بن عبد الملك أو يزيد بن عبد الملك في الفترة الواقعة فيما بين (٨٦*١٠٥هـ: ٧٠٥-٧٢٠) وأنه أعيد استخدامه وتجديده في نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس الهجري.

تم تجديده وإضافة المأذنة له في العصر المملوكي (القرن السابع - الثامن الهجري)[١٤٤]، وأعيد بناؤه في عام ١٩٢٣م حيث بني عليه مسجد حديث يعرف باسم المسجد الحسيني، والمخطط الذي نعرضه هو إعادة التخطيط الذي كان عليه المسجد في العصر الأموي (مخطط رقم١٠).

ومن خلال هذا العرض التاريخي واستعراض أعمال البحث الأثري والمسوحات الأثرية في مدينة عمان، من خلال وصف الرحالة والمستشرقين نجد أن الاستيطان البشري قد استمر في هذه المدينة طيلة العصور الإسلامية المختلفة.

المراجع

١- غوانمة، يوسف، **عمان حضارتها وتاريخها**، عمان ١٩٧٩، ص٢٥.

٢- كفافي، زيدان، **الأردن في العصور الحجرية**، منشورات لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩٠، ص١٣٤.

٣- العابدي، محمود، الحفريات الأثرية في الأردن خلال السنوات العشر الأخيرة ١٩٤٩-١٩٥٩ **حولية دائرة الآثار العامة**، المجلد الرابع والخامس، ١٩٦٠، ص٢١-٢٢.

ياسين، خير، **جنوبي بلاد الشام تاريخه وآثاره في العصور البرونزية**، منشورات لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩١، ص١٩٠-١٩٢.

٤- العابدي، محمود، الحفريات الأثرية في الأردن خلال السنوات العشر الأخيرة ١٩٦٠، ص٢١-٢٢.

٥- لانكستر هاردنج، جيرالد، **آثار الأردن**، ترجمة سليمان الموسى، عمان، ١٩٧٩، ص٧٥.

٦- المرجع السابق، ص٧٦-٧٧.

٧- بروستيد، جيمس، **تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي**، ترجمة حسن كمال، القاهرة، ص٣٧٠.

٨- فخري، أحمد، **مصر الفرعونية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٥، ص٣٦٧.

جيمس، بروستيد، تاريخ مصر، ص٣٩١.

ميخائيل، نجيب، **مصر والشرق الأدنى القديم**، ج٣، دار المعارف القاهرة، ١٩٥٩، ص٣٠٤.

٩- ميخائيل، نجيب، مصر والشرق، ج٣، ص٣٤٩.

حتي، فيليب، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، ج١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨-١٩٥٩، ص٢٤٠.

١٠- حتي، فيليب، تاريخ سورية، ١٩٥٨-١٩٥٩، ج١، ص٢٥٣.

١١- العبادي، مصطفى، **مصر من الاسكندر إلى الفتح الإسلامي**، القاهرة ١٩٦٩، ص٣٤.

حتي، فيليب، تاريخ سورية، ١٩٥٨-١٩٥٩، ج١، ص٢٦٦.

ميخائيل، نجيب، مصر والشرق، ١٩٥٩، ج٣، ص٣٤٩.

١٢- حتي، فيليب، تاريخ سورية، ١٩٥٨-١٩٥٩، ج١، ص٢٧٥.

13- Smith, G.A. **The Historical Geography of the Holy Land**, London, 1896, P.593.

١٤- ديسو، رينيه، **العرب في سورية**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ص١٥.

حتي فيليب، تاريخ سورية، ١٩٥٨-١٩٥٩، ج١،ص٢٧٠.

١٥- حتي فيليب، تاريخ سورية، ١٩٥٨-١٩٥٩، ج١، ص٣٠٩.

١٦- سالم، السيد عبد العزيز، **تاريخ الدولة العربية**، بيروت، ١٩٧١، ص١١٠.

١٧- الواقدي، **فتوح الشام**، ج١، طبع القاهرة ١٣٦٨هـ، ص٣٠.

غوانمة، يوسف، عمان، ١٩٧٩، ص١٥٦.

١٨- ديسو، رينيه، العرب في سورية، د١، ص٣٧.

١٩- حتي، فيليب، تاريخ سورية، ج١، ص٣٩٥.

٢٠- المرجع السابق، ص٤٠٣، حاشية رقم١.

٢١- البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) **فتوح البلـــدان**، نشــر (دي جويه)، ١٨٦٦، ص١٢٩.

٢٢- الأزدي، (أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصـــري) **كتـــاب فتـــوح الشام**، صححه وليم سوليس، طبع كلكتا، ١٨٥٤، ص١٤٣.

٢٣- الرشدان، وائل، **معالم الحضارة الإسلامية في المملكة الأردنية الهاشـــمية**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٩٤، ص١٠.

٢٤- حديدي، عدنان، فلوس نحاسية أموية من عمان، **حولية دائرة الآثار العامـــة الأردنية**، المجلد ٢٠، لسنة ١٩٧٥. ص٩-١٤.

٢٥- الحموي، ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله)، **معجم البلدان**، مطبعة دار السعادة، القاهرة، ١٩٤٧، ج١، ص٧٢٨.

٢٦- ٢٦-المقدسي، (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) **أحسن التقاسيم فـي معرفة الأقاليم**، الطبعة الثانية، (٧)، ١٩٠٩، ص٧٥٠.

الحموي ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٧١٩.

٢٧- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠.

الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٩٦٦.

٢٨- الحموي، ياقوت، **معجم الأدباء**، القاهرة، ١٩٣٦، ج١، ص١٨، ٤١-٤٢.

29- Bennett, C, Excavation at the Citadel, Amman, **ADAJ**, 1975, VolXX, P.P. 131-142.

٣٠- غوانمة، يوسف، عمان حضارتها، ١٩٧٩، ص١٦١.

٣١- المرجع السابق، ص١٦١.

٣٢- البويني (قطب الدين موسى بن محمد)، **ذيل مرآة الزمان**، ٤ أجزاء، مطبعـــة

دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٩٥٤-١٩٦١، ج١، ص١٣٩.

سبط الدين الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزاوغلي)، كتاب **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، الجزء الثامن، محفوظ مصور في تشيكاغو، من سنة ٤٩٥-٦٥٤هـ، ج٨، ص٤٣٢.

ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك الدوادري) **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء السابع، حققه سعيد عاشور، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٧٢، ج٧، ص٢٩٥.

٣٣- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٥٠٠-٥٠٤.

ابن أيبك كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٨.

الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاعمار) **دول الإسلام**، تحقيق فهمي شلتوت، وحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ١٩٧٤، ج٢، ص١٥٠.

٣٤- ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي إبراهيم) **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، ٣ أجزاء، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٣-١٩٦٣، تحقيق دوفيل سورديل وسامي الدهان ج٣، ص٧٥.

٣٥- أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) **المختصر في أخبار البشر المطبعة الشاهانية**، القسطنطينية، ١٢٨٦هـ، ج٣، ص٢١٣.

غوانمة، يوسف، عمان حضارتها، ١٩٧٩، ص١٣٠.

٣٦- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ص٩١.

غوانمة، يوسف، عمان حضارتها، ١٩٧٩، ص١٣٠.

٣٧- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل)، **البداية والنهاية**، القاهرة

التسجيل، دائرة الآثار العامة، ١٩٧٦م.

48- Northedge A. E. Survey of Islamic Buildings at Amman, **ADAJ**. 22, 1977-1978, P.P. 5-13. L.G. Herr, O. S. La Bianca.

49- Graty L. J. R. Battenfiled., Gl. Christopherson., D. R. Clark J. A. Cole., P. M. Daviau., L.E. Hubbard., J.I. Lawlor., R. Low., and R. W. Yaun Ker. Madaba plains project A preliminary of the First Season at Tell el Umeiri and Vicinity, ADAJ. 31,1987. P.P. 187-299.

. Madaba plains project: The 1987 Season at Tell el Umeiri and Vicinity, ADAJ .33, 1989 P.P. 145-176.

50- Simmons, A. and Kafafi Z. preliminary Report on the Ain Ghazal Arqchaeological Survey, 1987. ADAJ, 1988, 31, P.P. 27-40.

51- Rashdan, W. La Fouille D. Umm es-Summaq. Inventarile archeologique, notamment ceramique, These de Doctorat, university de Lyon II, 1988, P.P. 18-28.

52- Abdul Sami Abu Dayyah, Greenc, J. A., Haj Hlassan, I., Suleiman, E., Archaeological Survey of Greater Amman, Phase I, **ADAJ** 1991, P.P. 361-395.

53- Harding, L. Excavation on the Citadel of Amman **ADAJ**, I, 1951, P.P. 7-16.

٥٤- إبراهيم، معاوية، الحفريات الأثرية في الأردن ١٩٧٥، حولية دائرة الآثار العامة ١٩٧٥، ص١٥.

Bennett, C., Excavation at the Citadel, Amman ADAJ, 1975, Vol XX P.P. 131- 142. Bennett, C., Excavation at the Citadel (al Qal;a), Amman. Jordan, Levant, Vol X, P.P. 1-9.

Zayadine, F., Excavations on the Upper Citadel of Amman, Area AC 1975 and 1977, ADAJ 1977-1978 Vol

XX P.P. 20-56.

٥٥- إبراهيم، معاوية، كردي، حنان، الحفريات الأثرية في الأردن ١٩٧٦-١٩٧٧، حولية دائرة الآثار العامة، ١٩٧٨، ص٢-٢١.

56- Bennett, C. 1978, Opcit, P.P. 4-7.

Bennett, C, Northedge. A., Excavations at the Citadel Amman, 1976 Second preliminary Report, **ADAJ**, 1977-1978 Vol XXII P.P. 172-174.

57- Zayadine, F. Najjar, M. Greene, J., Recent Excavations on the Citadel of Amman, Lower Terrace, A Preliminary Report, ADAJ., Vol. P.P. 299-311.

58- Al Magro, A., Olavarri, E., A new Umayyad palace at the Citadel of Amman in SHAJ, ed., Hadidi, Amman, Dept. of Antiquities of Jordan, 1982. P.P. 305-322.

59- Almagro, A. Elpalacio Omeyade Amman La Arguitectura, Madrid, Instituo Hidpona-Arabede Culture, 1983, P. 45. Northedge , A. E., **Qalat Amman in the Early Islamic Period**, thesis PHD., London University 2 Vols, 1984. P.227.

Zayadine, F. Excavations on the Upper Citadel of Amman-Area A. C. (1975-1977) ADAJ, 1977-1978, 22P.22.

٦٠- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج١، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٥، ص٢٩.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، الجزء الأول والرابع، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الابياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ج١، ص٧١.

61- Almagro A., - 1983, Opcit, P. 46.

62- Northedge, A. E., 1977-1978, Opcit, P.6.

Northedge. Survey of the Terrace Area at Amman Citadel. Levant. 12. 1980. P. 138.

63- Almagro. A. 1983. opcit. P. 46.

64- Almagro. A. Olavarri E. 1982. opcit P. 312.

65- Northedge. A.,Bowsher. J., Hubner. U; MacAdam Wood. J. **Studies on oman and Islamic Amman**, London, Oxford, University Press Vol. I 1992, P. 86.

٦٦- ساري، صالح، عمرو، عبد الجليل، دراهم فضية وفلوس أيوبية وسلجلوقية من حفريات رجم الكرسي. **حولية دائرة الآثار العامة**، العدد الثامن والثلاثون، عمان، ١٩٨٩، ص١٣.

٦٧- الحموي، ياقوت، معجم البلدان ١٩٧٩، الجزء الخامس، ص٤٥١.

68- Conder, C. R. 1889, Opcit. P. 150.

69- Glueck, N. Explorations in Eatern palestine, III, AASOR. 1939, P. 162.

٧٠- ساري، صالح، عمرو، عبد الجليل، دراهم فضية، ١٩٨٩، ص١٣. انظر حاشية رقم١.

٧١- عمرو، عبد الجليل، ١٩٨٧-١٩٨٨، تقارير أولية عن حفريات منطقة رجم الكرسي، الموسم الرابع ١٩٨٧ والخامس ١٩٨٨م، عمان ملفات دائرة الآثار العامة.

٧٢- ملحم، إسماعيل، **معاصر عنب اليصيلة، دراسة مقارنة**، رسالة ماجستير، معهد الآثار والأنثروبولوجية ــ جامعة اليرموك ــ ١٩٩٢، ص١٦٧-١٦٩.

٧٣- المرجع السابق، ص١٦٨.

٧٤- المرجع السابق، ص١٦٨-١٦٩.

٧٥- عمرو، عبد الجليل، ١٩٨٨، تقرير.

Rashdan. W.. 1988. Opcit. P.P. 68-69.

٧٦- عجلوني، عيشة، المحاريب الأموية في الأردن، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٢، ص١٠٣.

٧٧- المرجع السابق، ص١٠٣.

٧٨- عمرو، عبد الجليل، تقرير مقدم إلى دائرة الآثار العامة، محفوظ في قسم التسجيل.

Amr. Abdel Jalil Handmade Umayyad Bowls with Excised Decorations from Rujm Al-Kursi, Jordan, Berytus, Vol 38, 1990, PP.171-178.

٧٩- صفر، زاهده، كهف البصة، (١٩٧٤)، حولية دائرة الآثار العامة، العدد التاسع عشر، ١٩٧٤، ص٥.

٨٠- المرجع السابق، ص٥.

٨١- المرجع السابق، ص٦.

٨٢- المرجع السابق، ص٦.

٨٣- المرجع السابق، ص٧-١٠.

٨٤- المرجع السابق، ص٧.

85- Zayadine, F. Recent Excavations and Restorations of the Department of Antiquities of Jordan, **ADAJ** 1981, XXV, P.P 341-440. Rashdan, W, 1988. Opcit, P.9.

86- Ibid, P. 48, 68 .

87- Ibid, P.P. 48, 68-73

88- Ibid, P.P. 73-75.

89- Ibid, P.P. 47, 48.

90- Ibid, P.67

فيلنف، فرانسوا، الاقتصاد الريفي والحياة الريفية في حوران القديمة من القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن السابع بعد الميلاد. في سورية الجنوبية (حوران) **بحوث أثرية في العهدين الهيليني والروماني**. بإشراف جون ماري دانتر، تعريب، أحمد عبد الكريم. د.ميشيل عيسى. ستاد العيسى. دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٨، ص١٣٦.

91- Rashdan. W. 1988. Opcit. P.36.

92- Ibid. P. 36.

93- Ibid. P.67.

Callot. O.. Huileries Antiques de Syrie du Nord, Paris, 1984. P.P.106-107.

فيلنف، فرانسوا، الاقتصاد الريفي، ١٩٨٨، ص١٤٢.

94- Rashdan. W. 1988. Opcit, P 50.

95- Ibid. P. 51.

96- Ibid. P.P. 193-196.

٩٧- الرشدان، وائل، **معالم**، ١٩٩٤، ص٨٤.

ظبيان، تيسير، **موقع أصحاب الكهف**، عمان دار الاعتصام، ١٩٧١، ص١٢٨.

٩٨- العجلوني، عيشة، المحاريب، ١٩٩٢، ص٧٦.

٩٩- الرشدان، وائل، معالم، ١٩٩٤، ص٨٤-٨٦.

العجلوني، عيشة، المحاريب، ١٩٩٢، ص٨٠.

١٠٠- الرشدان، وائل، معالم، ١٩٩٤، ص٨٦-٨٧.

١٠١- الدجاني، رفيق، **اكتشاف كهف أهل الكهف**، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٩٦٤، ص١٣٦.

١٠٢- ابن خرذابة (أبو القاسم عبيد بن عبد الله) **المسالك والممالك**، طبع ليدن، ١٣٠٩هـ، ص٧٧.

١٠٣- الاصطخري (أبو اسحق إبراهيم بن محمد)، **مسالك الممالك**، طبع ليدن ١٩٢٧م، ص٦٥.

١٠٤- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ج٢، طبعة ثانية، ليدن ١٩٠٩م، ص١٧٥-١٨١.

١٠٥- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص١٧٠.

١٠٦- البكري (أبو عبد الله بن عيد العزيز الأندلسي)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع**، ٤ أجزاء حققه مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٤٥-١٩٥١، ج٣، ص٩٧٠.

١٠٧- الحموي، ياقوت، (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) **معجم البلدان** ١٠ أجزاء، مطبعة دار السعادة، القاهرة، ج٣، ص٧١٩-٧٢١.

١٠٨- المرجع السابق، ص٧١٩-٧٢٠.

١٠٩- ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد)، **الأعلاق الخطيرة**، ج٣، ص٤١-٨٣.

١١٠- أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) **تقويم البلدان**، ج٣، ص٢٤٧.

١١١- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ٤أجزاء، مطابع كوستاتوماس، القاهرة، ١٩٦٣، ج٤، ص١٠٦.

١١٢- ابن سباهي (محمد بن سباهي) **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**، لوحة ١٩٦، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية رقم١م جغرافياً.

١١٣- القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي) **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، بغداد، ١٢٨٢هـ، ص٤٦٤٠.

١١٤- الروابدة، عبد الرؤوف، **عمان عاصمة الأردن**، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص٣٧.

١١٥- رحلات بيركارت، ترجمة أنور عرفات، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٦٩، ص٨٢-٨٨.

١١٦- الروابدة، عبد الرؤوف، ١٩٨٨، عمان، ص٣٩-٤٣.

١١٧- موسى، سليمان، **في ربوع الأردن من مشاهدات الرحالة ١٨٧٥-١٩٠٥**، من منشورات وزارة الثقافة والفنون، عمان الطبعة الأولى، ١٩٧٤. قدم في هذا الكتاب ترجمة المشاهدات الحالة الذين زاروا عمان والمنطقة خلال السنوات السابقة الذكر ولذلك اعتمدنا هذا الكتاب لوجود التعليقات عن هذه المشاهدات، ص٥٥.

١١٨- المرجع السابق، ص٥٥.

١١٩- المرجع السابق، ص٥٥.

١٢٠- المرجع السابق، ص٥٥.

١٢١- المرجع السابق، ص٧٥.

١٢٢- المرجع السابق، ص١٠٦.

١٢٣- المرجع السابق، ص١٠٦.

١٢٤- المرجع السابق، ص١٠٦.

١٢٥- المرجع السابق، ص١٠٧.

١٢٦- المرجع السابق، ص١٠٧.

١٢٧- المرجع السابق، ص١٠٧.

١٢٨- المرجع السابق، ص١٤٦.

١٢٩- المرجع السابق، ص١٨٩.

١٣٠- المرجع السابق، ص٢٢٨.

١٣١- المرجع السابق، ص٢٢٨.

١٣٢- المرجع السابق، ص٢٥٤.

١٣٣- المرجع السابق، ص٢٥٥.

١٣٤- المرجع السابق، ص٢٥٥.

١٣٥- المرجع السابق، ص٢٥٧.

١٣٦- المرجع السابق، ص٢٥٧.

137- Conder, C.R. 1889, Opcit, P.59.

غوانمة يوسف، عمان حضارتها، ص١٩٢-١٩٥.

138- Conder, C.R. 1889, Opcit, P.59.

غوانمة يوسف، عمان حضارتها، ص١٩٤-١٩٥.

١٣٩- ابن خرذابة، المسالك، ١٣٠٩هـ، ص٧٧.

١٤٠- الخموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٩٤٧م، ج٣، ص٧٢

141- Conder, C.R. 1889, Opcit, P.57-59.

142- Northedge, A. E. The Umayyade Mosque of Amman, **In The Forth Interatioal Conference of The History of Bilad Al-Sham During The Umayyad Period**, Amman, Ed, Al-Bakhit, A. and R. Amman, 1989, PP. 151-153.

الجغرافيا والفلك عند العرب

تقديم:

إن أول ما يتبادر للذهن عند دراسة العلوم بشكل عام مجموعة من الأسئلة: متى بدأ العلم؟ كيف بدأ؟ وأين بدأ؟ إن مثل هذه الأسئلة يجيبنا عليها العقل واستقراء الآثار الحضارية.

لقد بدأ العلم حينما بدأ الإنسان القديم يفكر في التغلب على مصاعب الحياة البيئية التي كان يعيشها(١). وتاريخ العلم هو تاريخ التطور الفكري عند الإنسان . وقد أجمع مؤرخو العلوم أن اليونان أخذوا علوما كثيرة عن المصريين والبابليين، وجعلوا من المعارف الهندسية التي أخذوها عن مصر علما قائما بذاته(٢).

ورغم أن الإغريق أخذوا عن الحضارات القديمة، ولكنهم يظلون مؤسسي المنهج العلمي، وهم الذين ميزوا العلم بين مجموعات الخبرات الإنسانية والمعارف، ووضعوا له معايير متميزة(٣).

أما في البلاد العربية، فقد ازدهرت الحضارة في بلاد العرب الجنوبية حيث كان المناخ ملائما للزراعة، وذلك منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وقامت الحضارة على أساس الزراعة والتجارة. وتعد العلوم والآداب والفنون من العوامل الرئيسية في تقدم أهل تلك الحضارات. فقد بنيت السدود وأنشئت المدن والقصور والقلاع التي مازالت آثارها باقية حتى الآن. ويستدل من النقوش أن عرب الجنوب قد وضعوا تشريعات لتنظيم الملكية وغيرها بشكل دقيق.

ومنذ وقت مبكر وصل أهل الجنوب إلى الشمال(٤). أما في الشمال فكانت معلومات العرب قبيل فجر الرسالة مبعثرة على شكل نظرات في الطبيعة وفي الإنسان دون أي

رابط، وتجارب يرويها الخلف عن السلف دون أي اختبار، وكانت النظرة إلى هذه المعلومات على أنها ثابتة. وبتراكم هذا التراث الذي خلفه الأقدمون وصل الإنسان إلى ما وصل إليه الآن. ولولا ذلك لما تقدم الإنسان(٥). فالإنسان يعتمد على غيره منذ القدم، ويحاول الإتيان بشيء جديد. وتقدم الحضارة يرتبط بعاملين اثنين هما: الاعتماد والابتكار(٦) وقد أخذ العرب والصينيين عن اليونان والهند.

ويرجع تاريخ العلوم عند العرب إلي العصر الوسيط في منطقة لم تحظ بالدراسة الكافية ضمن مجرى الثقافة العالمية.

ويرجع سبب عدم الدراسة هذا إلي عاملين(٧):

١- الاختفاء الفعلي للمصادر من بين أيدي العلماء، حيث فقدت معظم هذه المصادر بسبب الحروب والتدمير الذي لحقها.

٢- وجهة النظر التي كانت سائدة في الغرب، أن علوم هذا العصر هي عبارة عن أعمال من الشروح للمؤلفين القدماء فقط. وللوصول إلي حقيقة العلوم عند العرب لابد من الإجابة على التساؤلات التالية(٨):

١- هل كان لدى العرب علوم مستقلة؟

٢- هل كان لهذه العلوم مجالٌ تطبيقيٌ محدد؟

٣- هل تشكل أعمالهم ولو بدرجة معينة حلقة وصل على امتداد السلسلة المستمرة لتطور العلوم في العالم؟. ما اختصاصها؟ والى أي درجة كانت أعمال العلماء العرب معروفة في أوربة، وكيف ظهر تأثيرهم على العلوم الأوربية، وبأي آلية نقلت؟.

لم تظهر مثل هذه الأسئلة إلا في القرن التاسع عشر، وذلك بعد أن ظهرت المخطوطات وأصبحت في متناول اليد، حيث يحفظ الآن العديد منها في المكتبات

الأوربية والأسيوية و الإفريقية وأن الإجابة عن هذه الأسئلة أصبحت ممكنة إلي حد معقول. فقد أكدت الدراسات أن العلماء العرب حلوا سلسلة كاملة من المسائل التطبيقية والنظرية التي كان لها تأثير مباشر على عدد من العلوم الأوربية، ابتداء من القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر.

ولا يمكننا فهم العلوم عند العرب إلا إذا تعرفنا على المسائل الأساسية للعلوم في العصور السابقة، لأن هذه المعرفة تساعدنا في تحقيق هدفنا وهو الإلمام قدر الإمكان بكافة الجوانب والاتجاهات والوقوف على مسائل العلوم العرب. وإذا أردنا أن نعرّف العلم باختصار وبساطة فيمكن القول:"العلم هو نسقٌ منظم ومنهجي لحالات نظرية وطرائق عملية للبحث في موضوع واحد أو مواضيع عدة محددة "[٩] أو هو القدرة على التنبؤ أو الفهم[١٠]. وهنا يمكن تحديد اتجاهين رئيسين في العصور القديمة:

١- الاتجاه النظري: ويشمل الدراسات الفلسفية حول الزمان والمكان والحركة والمادة، والطرائق الرياضية المستخدمة.

٢- الاتجاه التقني الذي يعتمد على الأساس التطبيقي.

إن الاهتمام بالتراث العلمي عند العرب يجب أن يقابل بالتشجيع بعد أن طال إغفاله، وبعد أن جرى العرب وراء الغرب وعلومه وتقبلوها بغير مناقشة. وقد أدى ذلك إلى خلق هوةٍ كبيرةٍ بين حاضر العرب وماضيهم والأهم من ذلك إثارة الشك في نفوس العرب وفي قدرتهم على الخلق والإبداع، وبالتالي الشعور بالعجز عن الإسهام في مجالات العلم الحديث[١١].

ويساعد على ذلك ما يردده بعض المستشرقين ومن ورائهم بعض الكتاب العرب، أن الأسلاف لم يفعلوا شيئاً سوى نقل التراث إلى اللغة العربية، وإضافة بعض الشروح والتعليقات، إلى أن جاءت الفرصة لنهضة أوربية[١٢]، ولم يتعد دور العرب المحافظة على هذا التراث. وهذا يعني أنّ روافد جمة كانت تصب في الثقافة العربية مما يساهم

في رفع مكانتهم بين الأمم، لأن العلم يتميز بخاصية التراكم بين الحضارات. فما أن استقرت أمور الدولة الإسلامية عسكرياً حتى اتصل الفاتحون العرب بالدولة البيزنطية، التي فتحت لهم خزائن المعرفة الإغريقية التي لم تفتح منذ قرون، وبدأ المسلمون نقلها إلى العربية يساعدهم في ذلك صابئة حران وعلى رأسهم ثابت بن قرة وأحفاده ومسيحيو العراق والشام وعلى رأسهم حنين بن إسحاق وغيرهم.

وبإلقاء نظرة على المنجزات العلمية عند المصريين والبابليين نرى أن هذه المنجزات كانت من الكثرة والأهمية إلى حد يجعلنا نؤكد أن الإغريق اقتبسوا من غيرهم أكثر مما ابتكروا(١٣). والمهم هنا أن العرب كانوا على دراية بما قدمته الثقافات الأخرى في نهضتهم العلمية، التي كانت نتاجاً لإسهام عدد كبير من المفكرين والعلماء من مختلف القوميات والأديان، إضافة إلى ما قدمه العرب في هذا المجال(١٤). ويختلف هذا الموقف من العلماء تماماً عما حدث في أوربة في عصر النهضة حين وقفت الكنيسة موقف المتزمت من العلوم الإسلامية، وبخاصة كتابات ابن رشد الذي كانت الكنيسة تعتبره نموذجاً للإلحاد.

إن خروج العرب من أوربة جعل الأوربيين يتحررون تدريجياً من التأثير العربي وان يقيموا حضارتهم وعلومهم المستقلة التي تنبع من التفكير اليوناني القديم، وقد فلحوا في ذلك. وهناك مسألة هامة يأخذ بها كثيراً من المشتغلين بتاريخ العلوم عند العرب، حيث يعللون ذلك الميل الشديد إلى الأخذ بأساليب التفكير العقلاني الذي لم يكن وليد جدل فكري وخلافات مذهبية بين المسلمين واتباع الديانات الأخرى فحسب، وإنما نتيجة الصراع الفكري بين المذاهب المختلفة في الدولة الإسلامية، حيث لعبت حركة النقل والترجمة الدور الحاسم في تحقيق ذلك التقدم في مختلف مجالات العلم والفكر(١٥).

وليس أدل على هذه المكانة التي احتلتها العلوم واهتمام المسلمين بها، من أن

الكتب كانت تهدى للخلفاء لاسترضائهم وأن هارون الرشيد حمل الكتب والمخطوطات بعد فتح عمورية وأنقرة إلى بغداد وكذلك فعل المأمون في صقلية.

وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبته حركة النقل والترجمة في النهضة العلمية العربية وما رافقها من تعديلات يصعب علينا الزعم بأنها كانت وحدها الكفيلة بأن تجعل العقل العربي يقبل بسهولة كل نتائج الفكر الأجنبي، دون أن يكون قد سبق للعرب الاتصال ببعض نتائج هذا الفكر، وان يتعرفوا عليه بالتدريج حتى جاءت حركة النقل فوجدت المناخ مناسباً.

فقد عد العلم في الإسلام عبادة وفريضة. ولم يقتصر على رجال الدين فظل بعيداً عن شؤون السلطة. وظهرت مدرسة جديدة في الإسلام هي المذاهب الشرعية التي تعتمد على مبادئ الاجتهاد، وذلك لأن الحياة أوسع وأعمق وأعقد مما تحيط به النصوص. لتتمشى مع معطيات العصر(١٦).

علم الفلك عند العرب:

شغف الإنسان بالنجوم فتتبع حركتها، ثم راقب ازدياد القمر ونقصانه ليلة بعد ليلة فقد اهتم المصريون بالفلك لمعرفة الزمن الذي يبدأ فيه فيضان النيل، وكان النظام السنوي عندهم قمرياً، قبل انتقالهم إلى النظام الشمسي.

وفي بلاد ما بين النهرين ربط البابليون معرفتهم الفلكية بنظامهم السداسي في الحساب حيث جعلوا اليوم الطبيعي ٢٤ ساعة ٤×٦ والساعة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية.

وكان للكلدانيين مراصدهم الفلكية وقد وضعوا جداول لحساب مواقيت الخسوف والكسوف ووجد نابوديمانو أن السنة ٣٦٥ يوم و٦ ساعات و ١٥ دقيقة و٤١ ثانية (٥٠٠ ق. م) وهذا يزيد عن طولها الحقيقي ب ٢٦ دقيقة و ٥٥ ثانية(١٧). واستطاع

اليونان اعتمادهم على الجانب الرياضي في علم الفلك أن يخرجوا بهذا العلم من نطاق التخيل إلى نطاق الحقيقة.

فقد ذكر الفيثاغورثيون أن الأرض كروية، وأن الكواكب تسير من الغرب إلى الشرق ولكل كوكب مسار وأن الأرض تدور دورة كل يوم. وأن عالمنا الشمسي واحد من عوالم كثيرة أكبر منه ووضعوا السنة الكبيسة ويعد أرسطو وبطليموس من أشهر علماء اليونان في الفلك والرياضيات كما يعد كتاب المجسطي دائرة معارف شاملة.

وقد ارتبط علم الفلك بالدرجة الأولى بالاستفسارات المباشرة بالتطبيق العام (الحسابات التقويمية)، حيث دخلت بتماس مباشر مع تركيب الأجهزة وبالدرجة الثانية كان للجانب النظري الدور الأساسي في تطوره، مثل الوعي الفلسفي العام عن بنية الكون والعمل بالطرائق الرياضية في تفسير حركة الأجرام.

وبينت المصادر المختلفة أن مراقبات الرصد الفلكي في بابل القديمة كانت نظرية. فقد كتبت النصوص في القرنين ٧-٨ ق. م عن حادثتي الكسوف والخسوف ووضع جدول لمصطلحات البروج حوالي ٦٠٠ ق. م. ووصلت إلينا أسماء الكواكب عن طريق اليونان والرومان، ولكن يبقى أصلها بابليا وكانت المسألة الفلكية الأساسية عند البابليين هي تحديد الظواهر الفلكية الدورية من أجل استخدام التقويم القمري - الشمسي. ومن خلال النصوص المكتشفة للدولة البابلية يمكن تقسيمها إلى:

١- جداول عن أوضاع القمر والكواكب.

٢- نصوص شرح وتفسير هذه الجداول .

وقد تبين وجود اختلاف في تفسير حركة الكواكب بين المدخل البابلي ونظرية بطليموس في دراسة الأجرام السماوية(١٨).

فالطريقة البابلية تحتوي على تحديد ظواهر معينة ذات علاقة مع حركة الكواكب،

بينما يفترض بطليموس نموذجا محدداً، وبمساعدة هذا النموذج يمكن لحظ الطول المركزي للكوكب أن يعد مباشرة بالنسبة للفترة الزمنية المختارة. وقد أدى ظهور علم المثلثات والهندسة الكروية إلى جانب نظرية بطليموس عن الكواكب إلى تحديد حركة الكواكب، واعتبرت الشمس مركزاً لها، وتقع جميع المدارات على مستوىً واحد وتأتي هذه الأهمية لنظرية بطليموس من طريقة البحث عن حركة الأجرام السماوية. وقد ارتبط تطور مثل هذه النظريات بالتطور العلمي في الإسكندرية، وقد ضمت مكتبة الإسكندرية أروع ما خلفه الفكر العالمي. وبقي الوضع على هذه الحال إلى أن قدم مؤرخ إسلامي سمع بالمكتبة وبحث عنها، فلما لم يجدها اتهم الفاتحين العرب بإتلافها، تهمة رددها بعده مؤرخو الإسلام ببراءة، ولا تزال تتردد إلى اليوم بخبث عند بعضهم. على الرغم من أن الدلائل تشير إلى إن المكتبة زالت من الوجود قبل مجيء الدعوة الإسلامية بحوالي أربعة قرون[١٩]. وقد مهد هذا التطور في العلوم القديمة إلى تكوين الأرضية الأولى للثقافية العربية. وقد حفظ التراث القديم بأصله واشتهر في العصر الهلنستي مدرستان:مدرسة الإسكندرية ومدرسة الرها.

أما علم الفلك في الهند فليس له أهمية خاصة لأنه نشأ تحت تأثير النظرات اليونانية والطرق البابلية[٢٠].

تطور علم الفلك عند العرب:

ما العلاقة بين العلوم القديمة والعلوم عند العرب المسلمين؟

حدثت في القرن السابع الميلادي تغيرات هامة في الحياة السياسية في بلدان الشرق الأدنى والأوسط نتيجة الفتوحات العربية وتوسعت أرجاء الدولة العربية التي ضمت سكاناً غير متجانسين، ودخلت الثقافة الهلنستية على امتداد الدولة الشاسع وكان لدى العرب في الجاهلية ملاحظات فلكية كثيرة بالإضافة إلى ما أخذوه عن الشعوب المجاورة. فقد عرف العرب مواقع النجوم وأسماءها بالعربية والفارسية والكلدانية. كما

كان لهم عناية خاصة بحركات القمر.

ولكن لم يكن للعرب اهتمام برصد النجوم والكواكب وحساب حركتها على أسس علمية حتى جاء العصر العباسي (٧٥٠م)، حيث نقل العرب أيام المنصور كتاب السند هند والمجسطي، وألف الغزاري كتاباً بناه على كتاب السند هند، وكان بارعاً في صناعة الإسطرلاب. كما أمر المأمون بتشكيل فريقين لقياس درجة واحدة من محيط الأرض للتأكد من القياسات السابقة لمحيط الأرض[٢١] ويوجد في هذا العمل ثلاثة ملامح من العبقرية:

١- الاعتقاد بكروية الأرض.

٢- الاكتفاء بقياس درجة الحرارة.

٣- القياس في مكانين مختلفين.

كما وضع الخوارزمي زيجاً جمع فيه المذهب الهندي والفارسي ومذهب بطليموس (يوناني).

نقل العرب كتاب بطليموس إلى العربية ورصدوا على طريقته فأدركوا التناقض بين نظامه وبين الواقع الذي تتكشف عنه الأرصاد، واستمر هذا التناقض يؤرقهم حتى ظهر / وقبل كوبر نيكوس /عربي من دمشق هو ابن الشاطر الذي بنى نظاماً فلكيا كان الأساس الذي استوحى منه كوبر نيكوس نظامه[٢٢]. ويعد البتاني (بطليموس العرب) (٨٥٤م) الذي عاش معظم حياته في الرقة من أعظم علماء الفلك، حيث قام بأرصاد، وصنع زيجاً اثبت فيه أن الكواكب ثابتة، كما اشتغل بإصلاح أرصاد القدماء.

وكذلك فقد عرف العرب أن القمر يختلف في سيره بين سنة وأخرى واكتشف أبو الوفا اليوزجاني (٩٩٨م) إحدى المعادلات لتقويم مواقع القمر سميت بمعادلة السرعة التي ينسبها بعضهم خطأً إلى تيخوبراهي (١٦٠١م).

وكذلك فقد درس العرب البقع الشمسية وكان أول من درسها ابن رشد (١١٩٨م).

بدأ العرب برفض نظام بطليموس في كثير من جوانبه وذلك لسببين:

١- التناقض في بعض منظومات بطليموس التي تقول بالحركة الدائرية المتساوية للأجرام السماوية وعدم تغير مسافة الأجرام السماوية عن مركز الكون.

٢- حسب موديل بطليموس وقع حساب المدار القمري اللامركزي في تناقض مع نتائج الرصد. حيث تبين أن المسافة بين الأرض والقمر أقل بكثير من المسافة الناتجة عن المراقبة[٢٣].

ومما ساهم في تقدم علم الفلك في العصر العباسي أمور عدة منها تنظيم أوقات الصلاة وتحديد موقع الأماكن المقدسة بدقة وتحديد فترة ظهور هلال رمضان. وقد زاد الاهتمام بعلم الفلك وشجع المنصور المترجمين والعلماء وأغدق عليهم العطاء ووضعهم تحت رعايته. وكانت حصيلة ذلك أن نقل أبو يحيى البطريق كتاب الأربع مقالات لبطليموس في صناعة أحكام النجوم. كما ترجم المشتغلون بالفلك ما عثروا عليه من الكتب ومخطوطات للأمم التي سبقتهم وصححوا الكثير من أغلاطها وأضافوا إليها. واشتهر بالأرصاد علماء كثر وتم إصلاح أغلاط المجسطي ووضع موسى ابن شاكر أزياجه المشهورة. وكذلك عمل احمد بن عبد الله بن حبش ثلاثة أزياج في حركات الكواكب وظهر علماء كثيرون أدت أعمالهم إلى تقدم علم الفلك أمثال ثابت بن قره والمهاني والبتاني الذي عده لالاند واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم، والكندي واليوزجاني وابن يونس والمصاغاني والكوهي وجابر بن الأفلح والمجريطي والبيروني والخازن وابن الهيثم والطوسي وغيرهم[٢٤].

لم يقف العرب عند حدود النظريات بل قاموا بعمليات الرصد. فهم أول من أوجد طول درجة خط نصف النهار بطريقة عملية، وأول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة وقال بكروية الأرض و دورانها حول محورها، وعملوا الأزياج الكثيرة

(الزيج هو تجميع لجداول هندسية وفلكية ولقواعد حل مسائل علم الفلـــك التطبيقـــي. ويوجد في الزيج مقدمة تحتوي على شرح للوحة العالم ومعلومات في الرياضيــــات، وعلم الفلك والمثلثات الكروية والتقويم وجداول حركة الشمس والقمر)(٢٥) وهم الذيــن ضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها في أفلاك أخرى. وقد ثبت أن مكتشف هــذا الخلل هو أبو الوفا. كما زعم الغرب أن مخترع الإسطرلاب هو تيخوبراهـــي، بينمــا وجدت هذه الآلة قبل فترة طويلة في مرصد المراغة.

وقد قام البتاني بحساب ميل فلك البروج على معدل النهار فوجده٢٣° و ٣٥´ وقــد أثبتت الحسابات الحديثة أن حساباته كانت دقيقة جداً، كما دقق في حساب طول السـنة الشمسية فكان الخطأ في حسابه دقيقتان و٢٢ثانية، وحقق مواقع كثيرة من النجوم.

ورصد العلماء العرب الاعتدالين الربيعي والخريفي. وقـــام جـــابر بـــن الأفلـــح والبطروحي بنقد كتاب المجسطي وألفا في ذلك كتابين (إصلاح المجسطي والهيئـــة) (أسبانية).

ويقول سارطون في هذا الصدد "على الرغم من نقص هذه المذاهب الجديدة، لكنها مفيدة ومهمة جدا لأنها سهلت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى التي لم يكتمل نموها قبل القرن العشرين ".

وقد مهدت بحوثهم الفلكية الطريق لكبلر أن يكتشف القانون الأول من قوانينه، وهو اهليلجية فلك السيارات (القانون الثاني يمسح الخط الواصل بين أي كوكب والشـــمس مساحات متساوية في أزمنة متساوية ويعرف بقانون المساحات المتساوية، والقـــانون الثالث أن حركة الكوكب العامة تعتمد على بعده عن الشمس)(٢٦).

وللعرب جداول دقيقة في النجوم الثوابت. فقد وضع الصوفي لها خرائط ضمنـــها أكثر من ١٠٠٠ نجم، وأثبت البتاني النجوم الثوابت لسنة ٢٩٩ هجرية. ولهذه العمليـة أهميتها في الوقت الحاضر، عند البحث في تاريخ بعض الكواكب ومواقعها وحركتـها.

وهناك عدد كبير من أسماء النجوم هي من وضع العرب وتستعمل بلفظها العربي في اللغات الأجنبية (ركبة ذات الكرسي، الرجل، آخر النهر، الغول، الغراب، بنات نعش، الجدي، السمت، النظير، التنين وغيرها)(٢٧).

وعندما تعمق العرب في دراسة علم الهيئة طهروه من أدران التنجيم وأرجعوه إلى ما تركه علماء اليونان علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب. وقد كانت أهم المسائل المعقدة في علم الفلك هي السؤال ما إذا كانت نقطة الأوج للشمس ثابتة أم متحركة؟ وإذا كانت متحركة فما ميزة هذه الحركة؟(٢٨).

وكذلك وضع ابن الهيثم مسألة هامة في مجال الفلك، وهي ارتفاع القطب يساوي عرض المكان وبرهن عليها رياضياً. وكذلك عالج العرب موضوعات هامة مثل السبب في إدراك الكواكب وهي عند الأفق أو قريباً منه أعظم منها عند السمت أو قريباً منه وسط السماء، ورد ذلك ابن الهيثم إلى أمور ثلاثة:

١- تأثير انكسار الضوء عند نفوذه في الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية في إدراك البعد بين الكوكبين.

٢- تأثير الانكسار في طبقة بخارية من أجل إدراك البعد بين كوكبين.

٣- يبدو كلاً من القمر والشمس وهما في الأفق أعظم مما يبدوان إذا كانا عند السمت قريبين من وسط السماء حيث يقول "إذا كانت زاوية رؤية الكوكب وهو في الأفق وزاوية رؤيته وهو في وسط السماء واحدة، وأدرك الإنسان بعده وهو في الأفق أعظم من بعده وهو في وسط السماء، فانه يدرك الكوكب نفسه وهو في الأفق أعظم مما هو، في وسط السماء". وهذا معتمد حتى وقتنا الحاضر(٢٩). يقول: نيللينو في هذا المجال:" أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجري مع ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحيين في العمل، فلا بد كلنا من

عدّ ذلك القياس من أعمال العرب المأثورة "[٣٠].

وقد وضع البيروني نظرية بسيطة لمعرفة مقدار محيط الأرض وهي:"أن نصعد جبلاً مشرفاً على بحر أو تربة ملساء (سهل مستو)، ترصد غروب الشمس فتجد فيه ما ذكرناه من الانحطاط (زاوية تحت الأفق) ثم تعرف عمود ذلك الجبل(ارتفاعه عن السهل)، وتضرب في الجيب المستوي لتمام الانحطاط الموجود وتقسم المجتمع على الجيب المنكوس لذلك الانحطاط نفسه، ثم تضرب ما خرج من القسمة في اثنين وعشرين، ونقسم المبلغ على سبعة فيخرج مقدار إحاطة الأرض بالمقدار الذي قدرت به عمود الجبل"[٣١].

وكذلك دقق العرب في حساب اهليلجية فلك الشمس فقالوا:إن بعد الشمس عن مركز الأرض إذا كانت في الاوج هو ١١٤٦مرة مثل نصف قطر الأرض, وإذا كانت في الحضيض هو ١٠٧٠مرة مثل نصف قطر الأرض وإذا كانت في متوسط بعدها يساوي١١٠٨ مرة مثل نصف قطر الأرض. وقد تبين من هذه الأرقام أن العرب (ولاسيما البتاني) توصلوا إلى نتائج قريبة من حسابات الوقت الحاضر.

ودعى معظم علماء العرب إلى بطلان التنجيم وأثر الكواكب في أحوال الناس، وما بزعمه البعض من أن بعض الكواكب تجلب السعادة وبعضها يجلب النحس[٣٢].

وقد كتب ابن سينا رسالة عنوانها "رسالة في إبطال أحكام النجوم" أوضح فيها أن، ما قاله المنجمون من سعود الكواكب ونحوسها، ليس له دليل ولا يشهد على صحته قياس.

ومن العلماء العرب من طرق بحوثاً تتعلق بوحدة الأنظمة الكونية، وهل الكون متناه أو غير متناه. فقد أوضح ابن الطفيل أن القوانين والأنظمة المسيطرة على الكون ليست إلا تعبيرات علمية عن إرادة الله وقضائه وقدره. وأن الكون بأسره يسير على هذه القوانين ويتحرك بموجبها وفي نطاقها. وخالف ابن الطفيل الكثير من معاصريه

ومن الذين سبقوه، ونادى بوحدة القوانين والأنظمة الكونية وشموسها. وأن العلم بكامله شئ واحد يتصل بعضه ببعض ويتحرك في دائرة من القوانين والأنظمة ولا يخرج منها ولا يشذ عنها. وهذا ما تقول به أحدث النظريات العلمية في الوقت الحاضر.

المراصد العالمية:

مما لا شك فيه أن العرب لم يصلوا بعلم الفلك إلى ما وصلوا إليه إلا بفضل المراصد. وكانت هذه المراصد نادرة قبل النهضة العلمية العربية. ومن المحتمل أن يكون مرصد الإسكندرية الذي أنشئ في القرن الثالث ق. م هو أول مرصد كتب عنه. ويقال أن الأمويين بنوا مرصداً في دمشق. ولكن الثابت أن المأمون أول من أشار باستعمال الآلات في الرصد. وأمر ببناء مرصدين على جبل قاسيون والثاني في الشماسية في بغداد. كما ابتنى بنو موسى مرصداً في بغداد على طرف الجسر، وفيه استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر. وبنى شرف الدولة أيضا مرصدا في بستان دار المملكة، ويقال أن الكوهي رصد فيه الكواكب السبعة وأنشأ الفاطميون مرصداً على جبل المقطم شرقي القاهرة عرف باسم المرصد الحكومي(٣٣). وكذلك أنشأ بنو الأعلم مرصداً عرف باسمهم. ومن أشهر المراصد على الإطلاق هو مرصد المراغة الذي بناه الطوسي، حيث اشتهر بآلاته الدقيقة وعظم المشتغلين فيه حيث يقول الطوسي:"إني جمعت لبناء المراصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي والفخر المراغي والفخر الخلاطي والقزويني. وابتدأنا ببنائه سنة ٦٥٧ هجرية بمراغة ". وقد اشتهرت أرصاد هذا المرصد بالدقة، حتى أن علماء أوروبة اعتمدوا عليها في عصر النهضة في بحوثهم(٣٤). ومن المراصد الأخرى مرصد ابن الشاطر في الشام ومرصد الدينوري في اصفهان ومرصد البيروني ومرصد أولغ بك بسمرقند ومرصد البتاني في الشام (الرقة)(٣٥).

وقد استخدمت هذه المراصد آلات عدة منها:

- اللبنة: وهي جسم مربع مستو يستخدم لحساب الميل الكلي وأبعاد الكواكب وعرض البلد.
- الحلقة الاعتدالية:وهي حلقة تنصب على سطح دائرة المعدل لمعرفة التحول الاعتدالي.
- ذات الأوتار:وهي أربع اسطوانات مربعات تغني عن الحلقة الاعتدالية.
- ذات الحلقة: وهي خمس دوائر من نحاس:

١- دائرة نصف النهار وهي متمركزة على الأرض.

٢- دائرة معدل النهار.

٣- دائرة منطقة البروج.

٤- دائرة العروض.

٥- دائرة الميل والدائرة ذات الشعبتين وهي ثلاث مساطر على كرسي يعلم بها الارتفاع.

- ذات السمت و الارتفاع: وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعها وهي من مخترعات المسلمين.
- ذات الجيب وهي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين.
- المشبه بالناطق: لمعرفة المسافة بين كوكبين وهي ثلاث مساطر اخترعها تقي الدين الراصد.
- الربع المسطري: وذات النقبتين والبنكام الرصدي.

- الإسطرلاب وله ثلاثة أنواع:

١- لتمثيل مسقط الكرة السماوية على مستو.

٢- تمثيل هذا المسقط على مستقيم.

٣- تمثيل الكرة بلا أي مسقط.

وقد عرفه الإغريق ولكن بشكله البسيط، وله عدة أشكال منها التام، والمسطح، والطوماري، والهلالي، والزورقي، والعقربي، والآسي، والقوسي الجنوبي، والشمالي والكبرى، والمتسطح، والمسرطق، وحق القمر، والمفني، والجامعة وعصا الطوسي[٣٦]. وقد ثبت أن معظم هذه الآلات من اختراع العرب أو أدخلوا عليها تحسيناتهم.

التقويم:

تصدى البيروني لهذه المسألة في كتابه القانون المسعودي وبشكل خاص التقويم الشمسي والتقويم القمري والتقويم الشمسي القمري. وقدم البيروني تسميات الأشهر وفق التقاويم الإسلامية والهندية و اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والسندية والخوارزمية القديمة كما يشرح البيروني ثلاثة تقاويم رئيسة منها، والتي كان استخدامها على نطاق واسع وهي:

١- التقويم الشمسي ويبدأ من ١٦ تموز عام ٦٣٢ م، منذ اعتلاء العرش يزدجرد الساساني.

٢- التقويم اليوناني السرياني ويبدأ من ١ تشرين أول ٣١٢ ق. م. والمرتبط باسم الاسكندر المقدوني أو عصر السلوقيين

٣- التقويم القمري الإسلامي (التقويم الهجري) الذي يبدأ من هجرة النبي (ص)

من مكة إلى المدينة في١٦ حزيران ٦٢٢ م.

وقد أوكل إلى عمر الخيام الذي كان فلكياً مشهوراً ومشرفاً على مرصد أصفهان إصلاح التقويم الشمسي عام ١٠٧٤ م الذي كان فيه تعداد الأشهر ٣٠ يوم، وكان يضاف إلى أحد الأشهر ٥ أيام.

واستخدام التقويم القمري في إيران وأسيا الوسطى في الوثائق الدينية والرسمية فقط أما التقويم الشمسي فقد استخدم في الأعمال الزراعية، وحتى الآن مازال الإحتفال بعيد رأس السنة (النيروز أو عيد الربيع) في إيران، والذي يتوافق مع الاعتدال الربيعي(٣٧). وقد حلّ عمر الخيام هذه المسألة يوم النيروز ويوم السنة الكبيسة بعد سلسلة من المراقبات. وكان يوم الاعتدال الربيعي هو ١٥ آذار لعام ١٠٧٩ م. واستخدم هذا اليوم بداية لإصلاح التقويم. ومنذ ذلك اليوم حسبت السنوات ٣٦٥ يوما و٣٦٦ يوماً وتحديد السنة الكبيسة كل أربع سنوات. ويكون الخطأ في الحساب هو يوم واحد كل ٣٣٣٣ سنة. كما دلت المراقبة المستمرة إن طول السنة يعادل ٣٦٥،٢٤،٢٢يوماً(٣٨) أو ٣٦٥ يوم، ٤٨ د،٤٦ ثانية.

الجغرافية عند العرب:

للعرب فضل في علم الجغرافية وتقدمها. فقد زادوا على ما نقلوه عن اليونان وما شاهدوه أثناء خوضهم البحار وارتيادهم الأقطار، وقد صححوا الكثير من أغلاط بطليموس.

وقد حكى الادريسي أنه في القرن الرابع "خرج جماعة من لشبونة كلهم أبناء عم وأنشاؤوا مركباً وتزودوا فيه ثم ركبوا بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب والى أين ينتهي.

ويرى المقدسي في علم الجغرافيا "علماً لابد منه للتاجر والمسافر والملوك والقضاة

والفقهاء"(٣٩).

ومن مآثر العرب أنهم ربطوا الجغرافيا بالفلك، فسبقوا بهذا العلم المحدثين، وهم أولّ من وضع أصول الرسم على سطح الكرة، وقد برز عدد كبير من الجغرافيين العرب من أمثال ياقوت الحموي الذي وضع قاموساً فريداً سماه معجم البلدان حيث قال عنه سارطون "انكتاب معجم البلدان هو معجم لعلم الجغرافيا، وهو معجم غني جداً بالمعرفة وليس له نظير في سائر اللغات".

ووضع أبو الفداء أمير حماه كتاباً في تصنيف البلدان. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية في القرن الثامن عشر. كما قام الأدريسي في القرن الثاني عشر وبطلب من روجر ملك صقلية بكتابة كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ورتبه على أساس الأقاليم السبعة. ويعد الأدريسي حلقة الوصل بين جغرافية الإسلام وجغرافية الإفرنج(٤٠).

ومما يدل على فضل العرب هو أن الخرائط التي وضعها الغربيون في عصر النهضة مطابقة تماماً للخريطة التي رسمها ابن الورد في القرن الرابع عشر. وهناك العديد من الذين كتبوا في مجال الجغرافيا أمثال المسعودي والبيروني والمقريزي والقزويني وابن بطوطة والمقدسي وغيرهم.

وكما ذكرنا أنفاً أن العرب هم أول من استخرج بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار. وقد أمر المأمون بذلك وكلف مجموعتين من العلماء. المجموعة الأولى مكونة من سند بن علي وخالد بن عبد الملك المرزوبي والمجموعة الثانية من الاسطرلابي وعلي بن البحتري. حيث سارت المجموعة الأولى ما بين واصل وتدمر وبلغت معهم درجة خط نصف النهار ٥٧ميلاً (الميل العربي ١٩٧٣،٢ م) والمجموعة الثانية في برية سنجار. وقد ورد الكتاب من المجموعتين في وقت واحد و بقياسين متفقين تقريباً (٥٧،٥٦،٢٥،٠ميل) حيث بلغت درجة خط نصف النهار عند فلكيي

المأمون (١١١٨١٥) ويكون محيط الأرض على هذا الأساس هو ٤١٢٤٨ كم[٤١].

وكذلك فقد وضع البيروني طريقة بسيطة لمعرفة محيط الأرض. وكما هو الحال في بقية العلوم، فقد كثر في العصر العباسي نقل الكتب العلمية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وكثر اهتمام العلماء العرب بالجغرافيا الرياضية لاتصالها بمواقيت الصلاة والحج والصيام. وقد جاءت هذه الجغرافيا من اتجاهين:

١- المذهب الهندي في الجغرافيا الرياضية (السند هند).

٢- المذهب اليوناني (المجسطي).

ومن أهم الكتب الجغرافية أحسن التقاسيم للمقدسي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) وصورة الأرض لابن حوقل، ومروج الذهب للمسعودي الذي وصف الزلزال الذي دمر منارة الإسكندرية. كما أن للبيروني أفكار جيدة في الجغرافيا، وبخاصة فيما يتعلق بالبحار وعلم الخرائط ودوران الأرض حول محورها.

وان الخريطة التي وضعها الأدريسي هي أحسن ما وصل إلينا، وهي محفورة على كرة من الفضة قطرها متران. وهو أولّ من نادى بكروية الأرض في هذه البلاد. فالذي كان سائداً في كثير من الأديرة أن خريطة العالم هي قطعة من الأرض تحيط بها المياه وفي وسطها الجنة[٤٢].

وقد صمم الشيخ علم الدين قيصر كرة من النحاس صورت عليها السماء بأبراجها ونجومها وهي قمة ما وصلت إليه العلوم الجغرافية والرياضية على يد العلماء العرب، حيث قدمت هدية من الملك الكامل الأيوبي إلى فر يدريك الثاني، بعد الاتفاق الذي تمَ بينهما بخصوص مدينة القدس[٤٣].

أما في بلاد المغرب فقد تأخر التأليف في الجغرافيا. وأول من كتب في هذا المجال الرازي (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤ م) ثم البكري (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م) ، ولكن بقي

الأدريسي أشهرهم بأعماله المعروفة (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) [٤٤].

وكما هو معروف فقد عهد الملك روجر الثاني إلى الأدريسي بالتأليف في الجغرافيا، حيث قام بتحديد مواقع المدن في صقلية وقياس المسافات بينها، ووضع خارطة شاملة للمعمورة قسمها إلى سبع أقاليم وجعل لكل إقليم عشر خرائط حيث بلغ مجموع الخرائط الموضوعة ٧٠ خريطة[٤٥].

وقد بقي كتاب نزهة المشتاق للادريسي مرجعاً للأوربيين لمدة طويلة. ففي عام ١٥١٢م ترجم مختصراً له في روما أما الترجمة الكاملة فكانت في فرنسا عام ١٨٤٠م. ويعد هذا الكتاب من الكتب العلمية المتطورة حيث ربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافية الفلكية.

وكذلك كان فريدريك الثاني استدعى إلى بلاطه عدد كبيرامن المترجمين ونقل إلى اللاتينية كتاب الفلك للبطروجي ووسع مدرستي الطب في سالرنو وبادو وجعلهما جامعتين جاء اليهما بأساتذة من عرب صقلية. كما زود مكتبة نابولي بالمخطوطات العربية واليه يرجع الفضل في نشر الأرقام العربية وتدريس الجبر[٤٦].

لقد كان فريدرك يقدر الحضارة الإسلامية، لذلك دعى إلى بلاطه كل من استطاع أن يغريه من العلماء العرب، ولكن سن قوانينه بشكل محكم، في ظاهرها تقدير لهم وفي باطنها ألا يبقي للعربي المسلم بعد موته أي أثر في صقلية سوى ما نقله لأبناء صقلية[٤٧].

لقد ازدهرت الحضارة العربية في صقلية ونقل فردريك عنها إلى الأوربية مؤلفات ابن رشد وغيرها الكثير. وقد وصفه المؤرخ السويسري (يعقوب بوركهاردت) "إن فريدريك الثاني كان أول إنسان أوربي حديث تلميذاً للعرب" وقد قيل أنه لولا فردريك الثاني لتأخرت النهضة الأوربية مدة قرن أو قرنين من الزمن[٤٨].

علم توزع السكان:

كما بينا أكثر من مرة أن العرب أسهموا في مختلف العلوم إسهاما كبيراً فصححوا ما كان خاطئاً، وأتموا ما كان ناقصاً، وقاموا بأعمال النقل والترجمة عن اليونان وغيرهم كما عملوا على لم شتات المعرفة، فضمّوا بعضها إلى بعض، وصبّوها في أطر منهجية تشمل مختلف المقولات المتعلقة بفرع من فروع العلم. ولم يقتصر دورهم على ذلك، بل ابتكروا العلوم الجديدة وأتوا بمقالات حافظت على أصالتها حتى الآن[٤٩]، فإذا نظرنا إلى علم السكان وتوزعهم كعلم تبلور في العصر الحديث، فإن العلماء العرب تصدوا لهذه المسألة منذ قرون عدة. ويوجد العديد من الدلائل التي تؤكد أن العرب قاموا تعدادات سكانية للبلاد التي فتحوها، وطبقوا في تعدادهم وسائل علمية قريبة من الوسائل المستخدمة في الوقت الحاضر.

ولكن لم تعالج هذه الوسائل بشكل علمي، وذلك من حيث الربط بين الأثر والمؤثر، وبيان العلل والأسباب إلا في القرن الثالث الهجري، فقد كانت البدايات الأولى على يد الجاحظ الذي لم يقرر شيئا إلا بعد تجربته والتأكد من صحته واستنتاج قوانينه من ظاهرا ته التي لا يرقى إليها الريب. واتخذ لمنهجه هذا شعاراً (لا يشفيني إلا التثبت). وظهرت الإشارات العلمية الأولى لأثر البيئة في توزع السكان وطباعهم وخصائصهم في كتابه (الحيوان)[٥٠].

كما ظهر في القرن الثالث عالم وطبيب عربي هو أبو بكر الرازي الذي تصدى إلى مسألة أثر السكان من النواحي الاقتصادية. وبيّن دور تعاون السكان في الكسب و تأمين المعيشة. كما ألمح إلى أثر كثرة الناس على تقسيم العمل في تأمين عيشهم وحاجاتهم وقيام مجتمعهم وتطوره. وبذلك يكون قد سبق الاقتصادي الإنكليزي المعروف آدم سميث حول تقسيم العمل، بمئات السنين[٥١].

وكذلك فان الرازي أول المسلمين الذين حاولوا الاستفادة من خبراتهم في الحياة

وبيان أثر المناخ على النواحي الصحية. وقد كان مستشارا لعضد الدولة في بناء البيمارستان في بغداد. وتجربته في اختيار المكان معروفة، حيث أنه وضع قطعاً من اللحم الطازج في أماكن متعددة في المدينة وحولها، والمكان الذي بقيت فيه قطعة اللحم أطول دون أن تفسد، كان هو المكان المناسب لبناء البيمارستان(٥٢).

ومن أشهر العلماء العرب الذين تكلموا في معمور الأرض و مغمورا هم الكندي، الفرغاني، والبتاني، والمسعودي الذي يحلل وبطريقة علمية عدم سكن المناطق الشمالية والجنوبية إلى فرط البرد والحرارة. ولعل أول التقسيمات العلمية للسكان إلى بدو وحضر وخصائص كل منهم، وردت عند أبي حيان التوحيدي الذي أتى بعد الجاحظ، كما ترجع إلى الهمداني فكرة أثر السكان على الأسعار، حيث قال إن كثرة السكان تؤدي إلى الغلاء(٥٣).

وقد ازدهرت العلوم الجغرافية في مطلع القرن السادس الهجري، حيث ترسخت أفكار الخوارزمي على يد الأدريسي الذي عالج بعض قضايا السكان، ثم تبعه الأندلسي ابن سعيد الغرناطي الذي قال بوجود تسعة أقاليم مضيفاً على الأقاليم السبعة المعروفة إقليما جنوبي خط الاستواء وإقليما شمالياً.

ومن أشهر من اهتموا بهذا الجانب ابن خلدون والمقريزي والدلجي(٥٤). وتعد كتابات المقريزي في ميدان علم السكان مرحلة متطورة وتقترب من كتابات أستاذه ابن خلدون. فقد تصدى المقريزي الى أثر الوضع الاقتصادي في مختلف طبقات المجتمع(٥٥). ويتفق معظم الباحثين العرب والأجانب على أن ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) قد تصدى إلى نواح سكانية ولكنهم لم يعطوها حقها، وانما أشاروا إليها بشكل عرضي، عندما حاولوا أن يبحثوا عنده عن علم الاجتماع وفلسفة التاريخ. ولكنهم لم يشيروا إلى انه أوّل من استخدم علم السكان كمدخل أساسي وضروري في المنهج الذي تبعه في علم العمران، وبيان أثر السكان في القضايا الاقتصادية

والاجتماعية المتعلقة بعلمه الجديد العمران[٥٦]. وإذا حاولنا التعرف على المعيار الذي استند إليه ابن خلدون في تقسيمه المجتمعات إلى ريفية وبدوية، نجد أن المعيار لاقتصادي هو المعتمد الأساسي كما يقول في الصفحة ١٢٠ من المقدمة "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش"[٥٧].

وقد حدّد ابن خلدون العوامل المؤثرة في توزيع السكان بما يلي:

١- العوامل الجغرافية (المناخ، التضاريس، التربة).

٢- العوامل الاقتصادية والاجتماعية.

٣- العوامل الديمغرافية.

وهي العوامل التي يجمع عليها العلماء المعاصرون أنها العوامل الأساسية التي تؤثر على توزيع السكان.

دور العرب في الحضارة الإنسانية:

لعب العرب دوراً هاماً في خدمة الحضارة وتقدم العلوم. وهذا ما سنحاول إثباته.

في الحقيقة أن هناك الكثيرين ممن يجهلون الخدمات التي قدمها العرب للحضارة والعلوم، بل هناك من يعتقد أن العقل العربي لم يستطع أن يقدم للمدنية خدمات علمية كالتي قدمها الغرب، وسبب هذا الاعتقاد هو تحامل بعض علماء الغرب على التراث العربي، وإهمال العرب لتراثهم.[٥٨] وعلى العكس من ذلك هناك الكثير من العلماء الذين نهضوا للدفاع عن الحق لأنه حق وبكل تجرد وموضوعية. وقد ظهر في الغرب مجموعة من العلماء أنصفت الثقافة العربية والعرب نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر سارطون الذي يقول:"إن بعض المؤرخين يستخفون بما قدمه الشرق للعمران ويصرحون بأن العرب نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا لها شيئاً .... إن هذا الرأي

خاطئ، وانه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها. ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون"(٦٠) ويذهب (سيديو)إلى أبعد من ذلك ويعتبر العرب أساتذة أوروبة في جميع فروع المعرفة. فوجود ابن الهيثم، وجابر بن حيان وأمثالهما كان تمهيداً لظهور غاليلو ونيوتن، ولولاهما لبدأ نيوتن وغاليلو حيث بدأ ابن الهيثم (٦١).

إن الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ. وان قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية هو أمر لابد منه قبل أن تتهيأ العقول للتفكير العلمي الحديث.

فبعد أن اطلعوا على ما تركه القدماء، نقحوه وشرحوه وأضافوا أليه إضافات مهمة وأساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار.

وكان لعملية الفتح الإسلامي والمزج بين الأمم المختلفة أقوى الأثر على الحياة الفكرية والعلمية. وقد ساعد على هذا المزج جملة من الأمور أهمها (٦٢):

١- تعاليم الدين الإسلامي في الفتح.

٢- دخول الكثير من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام.

٣- الاختلاط بين العرب وغيرهم.

ومن خلال هذا التمازج بين العرب وغيرهم، والصراعات بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة والنظم الاجتماعية الفارسية والرومية التي ترجمت إلى حروب انتصر العرب فيها من ناحتين هامتين

١- اللغة. ٢- الدين.

وأصبحت اللغة العربية هي لغة العلم.

وكان من أثر اختلاف السكان في الدولة الإسلامية وامتزاجهم مع بعضهم البعض أن تطلب علماً واسعاً في كثير من شؤون الحياة: من هندسة وطب ونجوم ونظام حكم وفقه ولغة وأدب. وكانت نتيجة ذلك انتشار ثقافات مختلفة لأمم مختلفة في العصر العباسي هي:

١- الفارسية	٢- اليونانية
٣- الهندية	٤- العربية

حيث كان للثقافة الهندية أثر واضح في الرياضيات والنجوم، كما رافقت الثقافة اليونانية عصر تدوين العلوم، حيث (ظهر) أثر المنطق اليوناني (وهو منطق أرسطو المعدّل) [٦٣].

ولم يكن موقف العرب الناقل فحسب، بل كان الكثير منهم ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية وبالعين الثانية إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية. فيختار من الأولى ما يتفق مع الثانية ويخرج بمزيج لم يكن باليوناني المحض ولا هو بالعربي الخالص. واستطاعت اللغة العربية أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الأقدمين.

وقد حصل التبادل العلمي بين المشرق والمغرب، فكان علماء يرحلون إلى المغرب، وعلماء من المغرب إلى المشرق. أما عملية نقل التراث العلمي العربي إلى أوربة فكان من خلال طرق عدة للاتصال: [٦٤]

١- الحملات الصليبية.

٢- عن طريق صقلية.

٣- عن طريق الأندلس وهي أهمها.

إن الإنجازات العلمية التي حققها العلماء العرب وهي حقيقة معترف بها لدى الجميع، يعللها بعض المفكرين العرب بأن العلم العربي قد بقي من أول الأمر حتى

نهايته خارج مسرح الصراع في الثقافة العربية. فهو لم يدخل في أية علاقة مع أي طرف من الأطراف المتصارعة لا مع الدين ولا مع الفلسفة [٦٥] ومما له دلالته الخاصة أن تخلو الحضارة العربية مما يشبه تلك الملاحقات والمحاكمات التي تعرّض لها العلماء في اليونان القديمة وأوروبة الحديثة بسبب آرائهم العلمية (غاليلو) بل نادراً ما تعرض رجال العلم للاضطهاد، ابن رشد الذي كان يدعو إلى إحكام العقل وكان قد خرج على الإجماع. فاصطدم بوجهة النظر الدينية في عدد من المسائل، فنشأ عداء بينه وبين رجال الدين أدى إلى اضطهاده في أواخر حياته [٦٦]. وحسب رأي محمد عابد الجابري أن العلم العربي بقي خارج مسرح الحركة الثقافية العربية (الخوارزمي، البيروني، ابن الهيثم، ابن النفيس وغيرهم) فلم يشارك في تغذية العقل العربي ولا في تجديد قوالبه، فبقي الزمن الثقافي العربي من عصر التدوين إلى عصر ابن خلدون هو هو لم يتغير ولم يتطور، حيث شاركوا منذ عصر ابن خلدون حتى النهضة العربية الحديثة التي لم تتحقق بعد [٦٧].

لقد كان للثقافات التي أخذ عنها العرب أثر على أساليب الكتابة من فترة لأخرى. فقد سارت الكتابات على قواعد وقوانين المنطق الذي أخذه العرب عن اليونان [٦٨]. ولكن رغم اختلاف الأساليب باختلاف العلماء، فقد سار الكثير منهم على أسس علمية تقترب من الأسس الحديثة، وبذلك يكونون قد سبقوا بيكون الإنكليزي في هذا المضمار. ومن ميزات العلوم عند العرب، أن العلماء امتازوا بالجمع بين فروع العلم والأدب، وفارقوا غيرهم في هذا المجال (كتاب الخوارزمي في الجبر، وكتاب البيروني) حيث يخرج القارئ بفائدتين: فائدة علمية وثانية أدبية [٦٩].

وقد ساعد العرب في إيجاد هذه الثقافة المتطورة, ما وجدوه في البلاد التي فتحوها من ثقافة تزيد عن ثقافتهم، حيث أصبحت التربة مهيأة لنشوء ثقافة جديدة متميزة عرفت باسم الثقافة العربية، أو الثقافة العربية الإسلامية [٧٠].

وأصبحت بغداد المركز العلمي الأول في الدولة الإسلامية، التي استقر بها عدد كبير من العلماء والمترجمين والكتاب جاؤوا من مختلف البلدان. كما شيدت فيها مكتبة ضخمة ضمت مخطوطات عظيمة في المجالات التطبيقية ومن ضمنها ما تسلمه الخليفة من كتب دولة بيزنطة. كما توزعت مكتبات أصغر في مختلف أحياء بغداد. وأحدثت في بغداد وتحت رعاية المأمون (٨١٣-٨٣٣م) أكاديمية علوم فريدة سميت (دار الحكمة) ضمت مختلف علماء بغداد، وشيد فيها مرصداً فلكياً وقامت مراكز علمية أخرى في دمشق والري واورغينش وبخارى وغازن وسمر قند وأصفهان وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها. ولكن هناك حقيقة، هي أن المستوى العلمي لأعمال الرياضيين في أسبانية لم يكن على مستوى عال من التطور كما هو الحال في الشرق[٧١]. لقد عرف العرب الطريقة العلمية الحديثة وأصولها وكشفوا عناصرها وسبقوا بذلك (بيكون) في إنشائها [٧٢]. فقد وصل العرب في علم البصريات إلى أعلى درجات التقدم. وثبت أن (كبلر) أخذ معلوماته في علم الضوء عن ابن الهيثم. حيث يقول (ماكس -مايرهوف) في هذا المجال (تتجلى عظمة الابتكار العربي في البصريات) وقد ثبت أن للعرب فضلاً كبيراً في إنقاذ الطب من الضياع حيث يقول (كمستوف): " لو لم يكن للعرب غير هذا الفضل في الإنقاذ لكفاهم خدمة وفخراً"[٧٣]. ويعد ابن خلدون مؤسساً لعلم الاجتماع فقد أدرك قبل غيره من العلماء أوروبة بعدة قرون أن "علل الأسباب والأحوال الاجتماعية تعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة العمران أو طبيعة الاجتماع"

وبرع العرب في الرياضيات وأجادوا فيها و أضافوا إليها إضافات أثارت إعجاب علماء الغرب الذين اعترفوا لهم بذلك. ولولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن، فإليهم يرجع الفضل في وضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك.

ونهض العرب نهضتهم المعروفة في مجال الفلك وأحدثوا فيه انقلاباً هاما و ذلك للأسباب التالية:

١- نقل العرب الكتب القديمة الفلكية عن اليونان و الفرس والهنود والكلدان والسريان وصحّحوا بعض أخطائها.

٢- إضافاتهم المهمة واكتشافاتهم التي تقدمت بعلم الفلك.

٣- جعلوا علم الفلك استقرائياً، ولم يقفوا عند حدود النظريات فقط كما كان سابقاً.

٤- طهروا علم الفلك من أدران التنجيم (٧٤).

وقد بلغ الإنتاج الفكري العربي أوجه في القرنين العاشر والحادي عشر. في وقت كان الغرب يعيش في ظلمة وجهالة. ولكن رغم هذا الازدهار الفكري، كان المسلمون يعانون من التقسيم السياسي في الشرق والغرب، ولم يكن هذا الوضع خافياً على رجال الكنيسة، الذين تحركوا لضرب ضربتهم، وكانت الضربة الأولى في صقلية والثانية في الأندلس، ثم جاءت الضربة الثالثة بعد خطبة البابا بتخليص الأرض المقدسة من المسلمين، وكانت الحروب الصليبية (٧٥).

النزعة العلمية في العلوم عند العرب:

امتاز العرب بنظريتهم العلمية و منهجهم العلمي في البحث وتقصي الحقائق. ويقول (مونك) في هذا المجال (سار العرب على طريقة أرسطو وفضلوه على غيره، لأن طريقته التجريبية أقرب إلى نزعاتهم العلمية من مذهب أفلاطون الخيالي).

وقد أخذ الإسلام بالدليل التجريبي إلى جانب الدليل الاستنتاجي. ولم يقم على مبدأ التجربة أي اعتراض. فالقرآن يدعو الناس إلى التبصر في الأرض والسماء والأحياء. لذلك كان أول من عني به العرب في مجال العلوم الكيمياء والطب و الفلك والتنجيم، وكلها تحتاج إلى تجارب، لذلك لم يقم عليها أي اعتراض، وان حدث شيئاً منه فلم يكن ناتجاً عن تجربة وإنما عن فكرة التنجيم: أصادق هو أم كاذب؟ وعلى فكرة الكيمياء

أصحيح تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أم باطل؟ (٧٦).

وكان ابن سينا يقدّس العقل وقال بسلطانه، فهو لا يتقيد بآراء من سبقه. بل يعمل العقل والمنطق فيها. وجعل للتجربة مكانة عظيمة لجأ إليها في طبه (٧٧).

وقد امتاز أسلوب العرب بطابع خاص، هو الإخلاص للحق والحقيقة وجعل البرهان دليلاً وشاهداً. وقد انتقد البيروني المنهج الذي اتبعه الهنود لأنه حسب رأيه، غير علمي وحافل بالأوهام. ويمثل البيروني رغبة عصره في نقد الأمور والجرأة في الرأي، حيث كان ينهج نهجاً علمياً تتجلى فيه دقة الملاحظة والفكر المنتظم، حيث يقول عنه المستشرق (شخت) "الحق أن شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي، وبعده عن التوهم، وإخلاصه، هذه الخصال كانت عديمة القيمة في العصور الوسطى. وكان البيروني في الواقع عبقرياً مبدعا ذا بصيرة شاملة ونافذة".

لقد كان مبدأ الشك والتجربة أساس العمل العلمي عند العرب.

ويعد هذان العاملان سبباً لنهضة أوروبة الحديثة. والشك ضروري لكل معرفة كما يقول أبو هاشم البصري، وأما التجربة فهي البحث العلمي ولم يكن الشك في نوع المعرفة، وإنما في درجتها، والتأكد لا على رفض المعرفة إطلاقا، وإنما على رفض الثقة التامة بها والركون التام إليها. فمعارفنا تعطي نماذج عن العالم الخارجي والنموذج ليس الأصل، ولكنه يشبهه. فمعارفنا العلمية إنما هي نماذج، والنموذج يتغير كلما ازدادت معلوماتنا فيصبح أفضل تمثيلاً للأصل (٧٨).

وكانت المنهجية عند العرب لا تعتمد على طريقة حشو المعلومات في الذهن. لأن العلم ليس في جمع الكتب وحفظ وتكرار ما فيها، وإنما هو بالتعقل. وقد دعا جابر بن حيان إلى الاهتمام بالتجربة، وحثّ على القيام بها على أساس دقة الملاحظة والتأني وترك العجلة. وعلى أساس هذا المنهج العلمي لا تقبل أي فكرة إلا إذا أيدها دليل مناسب. ولكن هناك حقائق لا تملك إقامة الدليل على صحتها، مثل نظريات المجموعة

الشمسية. وتقبل مثل هذه النظريات شريطة إلا تتعارض مع القوانين التي ثبتت صحتها. والعالم لا يقبل دليلاً يستند إلى قوة خفية أسطورية .

وقد وضع العرب في بحثهم العلمي دستوراً محكماً مبنياً على المنظور اليوناني، وأسلوبه مبني على الأصل اليوناني وينحصر هذا الدستور في تسعة أحكام هي [٧٩].

١- السؤال الأول هل هو؟ ويبحث في وجدان الشيء أو عدمه والجواب نعم أو لا.

٢- السؤال الثاني كم هو؟ ويبحث في مقدار الشيء (كمّي).

٣- السؤال الثالث كيف هو؟يبحث في وصفه الشيء.

٥-السؤال الرابع ما هو؟ويبحث عن حقيقة الشيء.

٥- السؤال الخامس أي شيء هو؟ يبحث عن واحد من كل أو جزء من كل.

٦- السؤال السادس أين هو؟ ويبحث عن مكان الشيء أو رتبته.

٧- السؤال السابع متى هو؟ ويبحث عن زمان كون الشيء.

٨- السؤال الثامن لم هو؟ ويبحث عن الشيء المعلول.

٩- السؤال التاسع من هو؟ ويبحث عن التعريف للشيء.

والسؤال المطروح هل وُجِدَ في العرب من سار على الطريقة العلمية وعمل في أصولها؟

تدل الدراسات التي تمت حول ابن الهيثم في بحوث الضوء وغيرها من المقالات التي كتبها أنها توفرت فيها مميزات التفكير العلمي الصحيح. على الرغم من أن الطريقة التي أتبعها العرب لم تكتمل تماماً على النحو الذي اشتغل فيه علماء أوربة وأمريكة في الوقت الحاضر، ولكن يمكن القول أنه وُجِدَ بين علماء العرب من سار

في بحوثه على منهجية الطريقة العلمية وسبق (بيكون) في الطريقة الاستقرائية. وقد كانت الطريقة في البحث العلمي هي الاستقراء والقياس والمشاهدة أو التجربة والتمثيل. ويمكن القول أن ابن الهيثم اتجه إلى الوجهة التي يتجه إليها التفكير العلمي الحديث.

وقد قسمت العلوم عند العرب في العصر العباسي إلى قسمين:

١- علوم أصيلة وهي العلوم التي كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام كعلوم اللغة والتاريخ.

٢- علوم دخيلة وهي العلوم التي لم تكن عند العرب في الجاهلية بل دخلت عليهم بقواعدها وتفاصيلها بعد الإسلام، مثل المنطق والعلوم الطبيعية والرياضيات (٨٠).

وثمة فكرة جديرة بالنظر وراء اهتمام العلماء بتصنيفات العلوم، وهي التعرف على صلة العلوم وارتباطها فيما بينها. الأمر الذي يسمح لفريق من العلماء المتخصصين في علوم ضيقة متقاربة المجال بأن يتناولوا بالدراسة وقائع أو ظواهر واحدة. وكل واحد منهم يعالجها من زاوية تخصصه، مع وجود نظرة تكاملية من ناحية أن مجال البحث يدور حول مشكلة واحدة (٨١).

ويعد الفارابي المفكر الإسلامي الأول الذي عني بدراسة تصنيفات العلوم، إذ أفرد لها كتاب إحصاء العلوم وهو من الكتب الهامة جداً. وقسم العلوم فيه إلى:

١-علم اللسان وأجزائه.

٢-علم المنطق.

٣- علوم التعاليم (رياضيات، طبيعة، هندسة، النجوم، الموسيقى، الحيل، الأثقال).

٤-العلم الإلهي وأجزائه.

٥- العلم المدني والفقه وعلم الكلام.

تميزت الثقافة العربية باستمرار العلاقات بين المشرق والمغرب دون انقطاع طيلة العصور السابقة، وأسفرت عن سيادة حضارة واحدة على جناحي ديار العرب والإسلام كونت لها شخصية حضارية متميزة مثلت الثقافة الواحدة أكثر ظواهرها وضوحاً(٨٢).

وقد بدأت الخطوة الأولى في مجال الثقافة الواحدة في أواخر القرن الأول الهجري عند اكتمال فتح المغرب وخلال القرن الثاني هـ/ السابع والثامن م. حيث حملها الفاتحون والرحالة في طلب العلم والتجارة.

وقد انتشرت في غضون القرنين الخامس والسادس هـ./ الثاني عشر والثالث عشر م. عقلانية ابن رشد في أوروبة. ومما يميز هذه الفترة أن العرب كفروه، بينما أعجب به الغرب. وكانت نتيجة ذلك أن وضع توما الاكويني مدرسته التي فتحت نافذة على عالم العقل. وقام روجر بيكون يدعو إلى اتخاذ أحسن ما في الشرق من حضارة وبناء العلم على التجربة والخبرة المتزايدة، لا على نقل الخلف عن السلف.

وبحلول القرن الثامن هـ / الرابع عشر م.، ظهرت نظرة جديدة مفادها أن الإنسان قادر على أن يتخذ من حياته المسار الذي يريده، ومن ثم تطلعه للجديد والتجديد، وتقبله للتطور والتطوير. وهكذا بدأت تتراءى بوادر الفكر الغربي الحديث قبل ستة قرون. وكانت نتائجها النهضة الأوربية وتجريبية بيكون وعقلانية ديكارت. وهنا لا بد من التنويه إلى أن أحداث التاريخ إنما هي على الغالب نتيجة أو استمرار لما مضى، ومقدمة أو تمهيد لما هو آت. وإذا بدأت نظرة العصور الوسطى تنحسر، فذلك يعني أن نظرة أخرى جديدة برزت تزاحمها (٨٣).

لقد تحرر الغرب من المدرسية مستنيراً بآراء ابن رشد الذي قهر المدرسة الأوربية وقهرته المدرسة الشرقية. فقد كانت المدرسية تنطوي على تقديس الماضي ورجاله مع شك بالحاضر وقدراته، على اعتبار ليس بالإمكان مما كان. وقد رفض المسلمون في عصورهم الزاهرة المدرسية وقالوا قولتهم المشهورة عن سابقيهم من المجتهدين "هم رجال ونحن رجال: (٨٤).

الخاتمة:

كان للعرب في سير الحضارة وامتدادها ما يدل على أنهم قاموا بدورهم في التطور الفكري العام بحماسة متناهية وفهم قوي، وبذلك هيئوا العقول للتفكير العلمي الحديث، ولولا ذلك لتأخر سير النهضة الأوربية بضعة قرون. لقد كان هذا التقدم عندما كان العرب أحراراً، ولكن حينما ابتلوا بالاستعمار التركي والغربي وما صاحبهما من ضغط على المواهب وتقييد للحريات، وحرمانهم من فرص الحياة، ضعفت عزائمهم وهزلت هممهم وأحاط بهم اليأس والخمول. وان التحرر والانطلاق من جديد لا يكون ممكناً إلا إذا بني على أساس متين، والسير في الطريق يضمن لها الاستمرار و النجاح، وليس أضمن لهذا من استمداد الماضي واستلهامه عزماً وقوة ومن معرفة الحاضر وإشباعه درساً وفحصاً، والنظر إلى المستقبل بعين الرجاء والأمل(٨٥). ففي الماضي كل ما يوحي بالثقة والاعتماد على النفس، وأما الحاضر فهو الصرح الذي نقيم عليه المستقبل. ولهذا علينا أن نتبصر فيه وأن نتفهم مشاكلنا في أنفسنا ووجودنا، وأن يكون لنا من وعينا ما يحركنا ويدفعنا إلى الأمام.

ففي النصف الثاني من القرن الرابع عشر (١٤٩٢م) سقطت قرطبة، ومع سقوط غرناطة تقلص العلم العربي الإسلامي الأسباني. وكان القرن الأخير للتقدم العلمي في المقاطعات الشرقية للدولة الإسلامية. وكان مقتل أولغ بك وتدمير مرصد سمر قند بداية لتدهور العلوم في الشرق.

وعاد نشاط الأجيال اللاحقة على النقل والاقتباس، وتحول مركز العمل العلمي من الشرق إلى غرب أوروبة(٨٦).

لقد أدرك العرب أن بعث الثقافة من أهم العوامل التي ترتكز عليها نهضة الأمم. والأمة التي تريد أن تنهض من جديد عليها أن تخلق في أفرادها روح الأيمان بأفيالهم على الإبداع وأن تنشئ فيهم الشعور بالعزة القومية، وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها.

فقد كانت الفترة من بداية القرن الرابع عشر وأوائل القرن السابع عشر بالنسبة لإيطالية وأوروبة الغربية فترة انتقال خرجت فيها أوروبة من عالم العصور المظلمة. وجمعت قواها من علم وتربية ووعي ومواصفات اجتماعية واقتصادية وسياسية، لتدخل بقوة في العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا والسيادة.

وقامت الأمة اليونانية في حركتها الاستقلالية في القرن الماضي، واستطاعت أن تبني كياناً، وتكون شخصية دولية بعد أن كشفت عن مآثر علماء اليونان وأظهرت فضل أسلافهم على المدنية(٨٧).

إن الأمة العربية من الأمم التي خلفت آثاراً جليلة في ميادين العلوم، ولكن هناك من ينكر على العرب هذا الفضل بل يتعداه أحياناً إلى الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة، وعربي خاصة، والى الإنقاص من جهد السلف، بينما نجد في الغرب من قام يدافع عن الحضارة العربية وفضلها على مدنية أوروبة.

ومن المؤكد أن النموذج الحضاري في العلم الإسلامي خلق الحافز الأول عند كل الأوروبي لتغيير نمط حياته، ودعم ذلك ما رافقه من أحداث. فابتكار المطبعة المتحركة التي وجدت عند العرب من القرن الثامن الميلادي (أخذت عن الصين) على شكل طباعة بالقوالب التي استطاع الغرب أن يحولها إلى طباعة متحركة، وكان الأجدر أن يقوم العرب بذلك، ولكن العرب لم ينتبهوا إلى ذلك طيلة ٧٠٠ عام وتنبه له

الغرب.

لقد عرف الغرب طريقه. وبدأ منهجه العلمي بالتجربة والعقلانية، مع تبرير للسطو على مخطوطات الشرق. وأخذ بالموضوعية في المجالات العلمية وبحثه العلمي، فبدأ بالرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك، وبدأ بنشر هذه العلوم بين جماهيره، حيث بدأها بالموسوعة العلمية في القرن الثامن عشر. وأصبحت الفكرة السائدة أن الحاضر خير من الماضي، والمستقبل أفضل من كليهما، بينما الشرق مازال الحنين إلى الماضي والتخوف من المستقبل[٨٨]. وقد انعكس ذلك على شخصية الإنسان الأوربي، رغم وجود الكثير من الشواذ، ولكن السائد بشكل عام هو صدق المعاملة وحرية الرأي والاستقلالية الفكرية، وجميع هذه المثل من تعاليم الإسلام.

إن هذا الفكر المعاصر الذي يقود العالم علمياً واقتصادياً وسياسياً نما على أكتاف حضارتين:

١- التراث البيزنطي / الإغريقي [٨٩].

٢- الحضارة العربية الإسلامية.

فما إن حل القرن السادس عشر حتى استوعب الغرب التراث الفكري العالمي، وصار بمقدوره أن يخطو خطوات فكرية جديدة، هي بواكير العصور الصناعية، حيث أصبح العلم هو سلاح الحضارة الغربية، بعد أن كان على هامش الحياة. وفي ضوء هذا السلاح الجديد، طوّر الغرب المطبعة الحديثة التي جعلت العلم مشاعاً، كما أراده الإسلام.

والسؤال المطروح: إذا سلمنا بأن الطريق الذي أختطه الغرب طريق النجاح على علا ته، فهل هو الطريق الوحيد؟ ألا يوجد طريق آخر؟ ويكمن الجواب في الآفة الكبرى التي تحيق بهذا الطريق الغربي، وهي هيمنة السياسة عند الدول الغربية التي

تربط صداقتها مع الدول الأخرى بمصلحتها فقط.

وحتى يتمكن العرب من الإسهام في الفكر العالمي الحديث لابد من الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

١- أن ندرك قدرة العقل العربي في العصور الوسطى على استيعاب العلوم السائدة حينذاك والاتصال بتراث الأمم الأخرى، ونقل ما أمكن نقله إلى اللغة العربية ليكون أساس لنهضةٍ علمية مقبلة. وهو ما نواجهه الآن. فعلينا أن ننقل التراث العلمي والفكري الحديث إلى اللغة العربية ما أمكن. ومن ذلك المزيج المؤلف من أصالة التراث العربي والعلوم الحديثة المنقولة للعربية تبدأ الخطوة في طريق الإسهام والإبداع.

٢- هدفت النهضة العلمية عند العرب في العصور الوسطى إلى الاشتغال بالعلوم العقلية والعملية على حد سواء. فإسهام العرب في الفلسفة كان خصيبا ويدحض بعض الآراء التي تقول: إن العرب اهتموا في المجالات العملية فقط دون النظرية. وإننا الآن بأشد الحاجة للاهتمام بالجانب التطبيقي للعلوم الحديثة والاستفادة مما حققه الغرب في هذا المجال.

٣- قدرة اللغة العربية على التعبير عن تلك الثروة العلمية والفكرية التي كانت سائدة في ذلك الحين. وهذا ما يدحض بعض الأفكار التي يطلقها بعض المشتغلين بالعلوم البحتة حول قصور اللغة العربية عن التعبير بدقة عن المصطلحات والأفكار التي تزجر بها العلوم الحديثة[٩٠].

وأخيراً يتضح لنا تماماً أن لدراسة العلوم وتاريخها فائدتين:

الأولى: بناء الجهود الحديثة على الجهود القديمة لمتابعة تطور الفكر والحياة. لن الحضارات تطور وإبداع.

والثانية: اكتشاف العناصر التي خلقت الأمم في الماضي، فشعوب كثيرة لا تزال تعيش على مآثر أسلافها، لأن التاريخ الحقيقي لكل شعب إنما هو تاريخ حضارته، وكل أمة لا حضارة لها لا تاريخ لها[٩١].

الهوامش

١- فروخ ع. **تاريخ العلوم عند العرب**. دار العلم لملايين، بيروت، ١٩٧٠، ص١٧.

٢- فروخ. ع. **المرجع السابق**.ص٢٩.

٣- سعيدان أ.س. **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام**. عالم المعرفة العدد ١٣١، الكويت، ١٩٨٨، ص١١٧.

٤- كحالة ع. **حضارة العرب والإسلام، وتفاعلها مع الحضارات الأخرى**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية. منشورات وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق، ١٩٨١، ص٣٠٩.

٥- طوقان. ق.ح. **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك**. دار الشرق، بيروت، ١٩٦٣، ص١.

٦- طوقان ح.ق. ١٩٦٣ **المرجع السابق**، ص٣٥.

٧- غريقوريان أ.ت. وروجانسكايا م.م. **الميكانيك والفلك في الشرق، في العصر الوسيط**، موسكو، ١٩٨٠، ص٥ وبالروسية).

٨- غريقوريان وغيره، **المرجع السابق**، ص٢.

٩- غريقوريان أ.ت. وغيره **المرجع السابق**، ص٤.

١٠- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**، ص٢١.

١١- **مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع**، العدد الأول، ١٩٧٨، التمهيد ص٥.

١٢- عالم الفكر، **المرجع السابق** ص٦.

١٣- سعيدان أ.س. **المرجع السابق** ص٢٥ وص٦٦.

١٤- مجلة عالم الفكر، **المرجع السابق**، ص٧.

١٥- مجلة عالم الفكر، **المرجع السابق** ص١٠.

١٦- سعيدان أ.س. **المرجع السابق** ص٨٣.

١٧- فروخ ع. **المرجع السابق** ص٤٠-٤٣.

١٨- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**، ص٢١-٢٩.

١٩- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص١١٩.

٢٠- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**. ص١٢١.

٢١- فروخ ع. **المرجع السابق**. ص١٥٩-١٦١.

٢٢- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص١٢٢.

٢٣- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**. ص١٦٢-١٦٦.

٢٤- طوقان ح.ق. ١٩٥٦، **مرجع سابق** ص٦٠-٦٢.

٢٥- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**. ص١٢٥.

٢٦- طربوش أ. **الجغرافية الفلكية**. دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦. ص٢١٥-٢١٦.

٢٧- طوقان ح.ق. ١٩٦٣ **مرجع سابق** ص١٣٧.

٢٨- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**. ص١٣٥.

٢٩- طوقان ح.ق. ١٩٦٣. **المرجع السابق**، ص١٢٠.

٣٠- نيلينو. **علم الفلك، تاريخه عند العرب في القـــرون الوســطى**.رومـــا. ١٩١١ ص٢٨١-٢٨٢.

٣١- نيلينو علم الفلك. **المرجع السابق**. ص٢٩٠-٢٩١.

٣٢- الفارابي. **الابانة عن غرض أرسطو**. القاهرة، ١٩٠٩.

٣٣- **المقتطف**. مجلد ٣٩. ص١٤٦-١٥٠.

٣٤- ابن شاكر الكتبي. **فوات الوفيات**، القاهرة، ١٢٩٩هـــ. ص١٥١.

٣٥- حاجي خليفة. **كشف الظنون في أساس الكتب والفنون**. اسطنبول. ١٣١٠هـــ ج١ ص١٣٦.

٣٦- الخوارزمي (الكاتب الأديب). **مفاتيح العلوم**، القاهرة، ١٣٤٢هـــ. ص١٣٤.

٣٧- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**. ص١٣٦-١٣٨.

٣٨- طربوش أ. **الجغرافية الطبيعية**. منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢ ص٩٤.

٣٩- طوقان ق.ح. ١٩٥٦، **مرجع سابق**. ص٦٧.

٤٠- نيلينوز علم الفلك. **المرجع السابق**. ص٢٨٥-٢٩٠.

٤١- طوقان ق.ح.١٩٥٦. **مرجع سابق** ص٧٠.

٤٢- الصواف ف.ب. **بعض مظاهر الحضارة الإسلامية في جزيرة صقلية**. وقـــائع ومحاضرات المؤتمر العالمي للحضارة العربية. المرجع السابق ص١٠٨.

٤٣- الصواف ف.ب. **بعض مظاهر الحضارة**. المرجع السابق ص١١٠.

٤٤- فروخ ع.**المرجع السابق**. ص٢٠٤.

٤٥- عياد م.ك. **أثر صقلية في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلـــى الأوربييـــن**.

وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي. المرجع السابق ص١٤٨.

٤٦- عياد م.ك. **المرجع السابق**. ص١٥٤.

٤٧- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص١٢٧.

٤٨- عياد م.ك. **المرجع السابق**. ص١٥٨.

٤٩- العلواني م. **علم التوزع السكاني عند العرب**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي. مرجع سابق ص٦٤٣.

٥٠- الجاحظ -**الحيوان**- المجلد الثاني. طبعة مكتبة الطلاب اللبناني ص٣٢.

٥١- الرازي أبو بكر محمد بن زكريا. **رسائل فلسفية**- الطب الروماني- دار الأفاق الجديدة. بيروت، ١٩٧٧، ص٨١.

٥٢- إخوان الصفا. رسائل **إخوان الصفا**. الجزء الأول، المطبعة العربية بمصر، ص٢٣٢.

٥٣- القاضي عبد الجبار -**المغني**- الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطبعة عيسى البابي الحلبي. أكتوبر، ١٩٦٥.

٥٤- المقريزي -**المواعظ والاعتبار بذكر المخطط والآثار**. مطبعة النيل، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ص١٤٠.

٥٥- فهمي ح. **مقالة عن كتاب إغاثة الأمة في كشف الغمة**. مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية. ديسمبر، ١٩٥٦،ص١١.

٥٦- ابن خلدون -**المقدمة**- طبعة مكة المكرمة.ص٤١.

٥٧- ابن خلدون، **المرجع السابق**. ص٤٢-٤٤.

٥٨- طوقان ح.ق. **العلوم عند العرب**. مكتبة مصر، ١٩٥٦، ص٤.

٥٩- طوقان ح.ق. ١٩٥٦، **مرجع سابق** ص٤.

٦٠- طوقان ح.ق. ١٩٥٦، **مرجع سابق** ص٤.

٦١- طوقان ح.ق. ١٩٥٦ **مرجع سابق** ص٥.

٦٢- كحالة ع. **المرجع السابق** ص٣١١.

٦٣- كحالة ع. **المرجع السابق** ص٣١٥.

٦٤- كحالة ع. **المرجع السابق** ص٣١٧.

٦٥- الجابري مزع. **تكوين العقل العربي**. بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٤، ص٣٤٥.

٦٦- طوقان ح.ق. ١٩٥٦ **مرجع سابق** ص٧٨.

٦٧- الجابري م.ع. **المرجع السابق** ص٣٤٧.

٦٨- طوقان ق.ح. ١٩٥٦، **المرجع السابق** ص٧٢.

٦٩- طوقان ق.ح. ١٩٥٦، **مرجع سابق**، ص٧٣.

٧٠- غريقوريان أ.ت. وغيره، **المرجع السابق**. ص٣٥.

٧١- غريقوريان أ.ت. وغيره، **المرجع السابق**، ص٤١.

٧٢- طوقان ق.ح. ١٩٥٦. **مرجع سابق**، ص٨.

٧٣- طوقان ق.ح. ١٩٥٦. **مرجع سابق** ص٩.

٧٤- طوقان ق.ح. ١٩٥٦. **مرجع سابق**. ص٧.

٧٥- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص١٢٤.

٧٦- سعيدان أ.س. **المرجع السابق** ص٩٦.

٧٧- طوقان ح.ق. ١٩٥٦. **مرجع سابق** ص٧٥.

٧٨- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص٣٩.

٧٩- طوقان ح.ق. ١٩٥٦. **المرجع السابق**. ص٨٥.

٨٠- فروخ ع. **المرجع السابق**. ص١٣١.

٨١- فروخ ع. **المرجع السابق** ص٩٨.

٨٢- بدر أ. **هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن الثاني للهجرة**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية. مرجع سابق. ص٧٥.

٨٣- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص٢٦-٢٩.

٨٤- سعيدان أ.س. **المرجع السابق** ص٢٥.

٨٥- طوقان ح.ق. ١٩٥٦، **مرجع سابق** ص١١.

٨٦- غريقوريان أ.ت. **المرجع السابق**. ص٤٢.

٨٧- طوقان ج.ق. ١٩٦٣، **مرجع سابق**. ص ٢٣.

٨٨- سعيدان أ.س. **المرجع السابق** ص١٣١-١٣٩.

٨٩- سعيدان أ.س. **المرجع السابق**. ص١٤١.

٩٠- **عالم الفكر**-المجلد التاسع- العدد الأول- الكويت ١٩٧٨ ص١١-٢١.

٩١- فروخ ع. **المرجع السابق**. ص١٠.

ثبت المصادر والمراجع

١- ابن خلدون –**المقدمة**- طبعة مكة المكرمة.

٢- ابن شاكر الكتبي. **فوات الوفيات**، القاهرة، ١٢٩٩هـ.

٣- إخوان الصفا. **رسائل إخوان الصفا** –الجزء الأول- المطبعة العربية بمصر.

٤- بدر أ. **هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن الثاني للهجرة**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية. منشورات وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق ١٩٨١.

٥- الجابري م.ع. **تكوين العقل العربي**، بيروت، دار الطليعة ١٩٨٤.

٦- الجاحظ –**الحيوان**- المجلد الثاني- طبعة مكتبة الطلاب اللبناني.

٧- حاجي خليفة –**كشف الظنون في أساس الكتب والفنون**. اسطنبول ج١- ١٣١٠هـ.

٨- الخوارزمي (**الكاتب الأديب**) مفاتيح العلوم، القاهرة ١٣٤٢هـ.

٩- الخوارزمي –أبو بكر محمد بن زكريا. **رسائل فلسفية**–الطب الروحاني- دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٧.

١٠- سعيدان أ.س. **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام**. مجلة عالم المعرفة. العدد ١٣١. الكويت ١٩٨٨.

١١- طربوش أ. **الجغرافية الفلكية**. دمشق، دار الفكر ١٩٨٦.

١٢- طربوش أ. **الجغرافية الطبيعية**. منشورات جامعة دمشق ١٩٩٢.

١٣- الصواف ف.ب. **بعض مظاهر الحضارة الإسلامية في جزيرة صقلية**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي للحضارة العربية الإسلامية. منشورات وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق ١٩٨١.

١٤- طوقان ق.ح. **العلوم عند العرب** مكتبة مصر ١٩٥٦.

١٥- طوقان ق.ح. **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك**. دار الشروق، بيروت ١٩٦٣.

١٦- **عالم الفكر** (مجلة) المجلد التاسع، العدد الأول ١٩٧٨.

١٧- العلواني م. **علم التوزع السكاني عند العرب**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي للحضارة العربية الإسلامية ١٩٨١.

١٨- عياد م.ك. **أثر صقلية في نقل الحضارة العربية إلى الأوربيين**. وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي للحضارة العربية ١٩٨١.

١٩- غريقوريان أ.ت. وروجانسكايا م.م. **الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط**. موسكو ١٩٨٠(بالروسية).

٢٠- فروخ ع. **تاريخ العلوم عند العرب**. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠.

٢١- فهمي ج. **مقالة عن كتاب إغاثة الأمة في كشف الغمة**. مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ديسمبر ١٩٥٦.

٢٢- القاضي عبد الجبار -**المغني**- الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطبعة عيسى البابي الحلبي-أكتوبر ١٩٦٥.

٢٣- كحالة ع. **حضارة العرب والإسلام وتفاعلها مع الحضارات الأخرى**. وقائع

ومحاضرات المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية ١٩٨١.

٢٤- **المقتطف**-المجلد ٣٩.

٢٥- المقريزي- **المواعظ والاعتبار بذكر المخطط والآثار**. مطبعة النيل، القـــاهرة ١٣٢٤هـ.

٢٦- نيللينو- **علم الفلك، تاريخه عند العرب في القــرون الوســطى**. رومـا ١٩١ (بالإنكليزية).

التنافس العثماني ـ البريطاني حول قطر (١٨٩٢ـ١٩٠٢)

في ضوء الوثائق الروسية

١ـ تمهيد:

تتناول هذه الدراسة فترة تحول هامة في التاريخ السياسي لقطر، وهي فترة العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، الذي بدأت فيه قطر، وشيخها جاسم بن محمد آل ثاني، الانفكاك من إسار السيادة العثمانية وقيودها، بل وتصطدم بها صداماً عسكرياً مسلحاً في "معركة الوجبة" الشهيرة عام ١٨٩٣، كما شهد نفس العقد، في المقابل، ميل قطر إلى بريطانية وطلب حمايتها، سواء ضد الدولة العثمانية أو ضد جيرانها، لذلك يعدّ هذا العقد فترة تحول هامة في تطور علاقة قطر بكل من القوتين المتنافستين على النفود فيها والسيطرة عليها.

وإذا كانت المصادر العربية، على ندرتها، والإنكليزية، على كثرتها، وكذلك المصادر التركية، قد أفادت المؤرخين في الكشف عن الكثير من حقائق هذه الفترة، فإن الوثائق الروسية التي سجلتها مصادر قنصلية "الإمبراطورية الروسية" في بغداد، خلال الفترة (١٨٩٢-١٩٠٢) تلقى أضواء جديدة حول الصراع القطري ـ العثماني من ناحية والتنافس البريطاني ـ العثماني من ناحية أخرى.. فقد تضمنت تلك التقارير السرية، التي سجلتها القنصلية الروسية، وخاصة مديرها "كروغلوف" ومساعد المستشار "يوجويا فلينسكي".. وغيرهما، تضمنت معلومات هامة تلقي أضواء جديدة حول قطر خلال هذه الفترة الهامة والحساسة، باعتبار هذه الوثائق تمثل مصدراً تاريخياً جديداً، سوف تتضح أهميته خلال هذه الدراسة.

ويقتضي السياق العلمي للدراسة أن نقدم خلفية تاريخية مركزة حول طبيعة علاقة كل من الدولة العثمانية وبريطانية بقطر، التي برزت إمارتها ككيان سياسي مستقل منذ أواسط القرن التاسع عشر، وحتى بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أي الفترة التي تتناولها هذه الدراسة، ثم نتناول جوهر الموضوع وتطوراته خلال العقد الأخير على ضوء المصدر الجديد.وفيما يتعلق بصلة الدولة العثمانية بالخليج ككل وبالجزيرة العربية، هناك ثمة حقائق تاريخية لا بد من إبرازها أولاً، لأنها تشكل الأساس التاريخي "لادعاء العثمانيين السيادة على الخليج العربي وعلى قطر بطبيعة الحال.. ومن هذه الحقائق أن العثمانيين رغم وصولهم إلى البصرة عام ١٥٤١، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يسيطروا سيطرة حقيقية وفعلية على المنطقة، ربما بسبب عوامل جغرافية وأثنوغرافية، وعوامل تتصل بضعف البحرية العثمانية وعدم قدرتها على منافسة القوى الأخرى، وكذلك مواجهة فارس وبريطانية للتوسع العثماني.. ومن هذه الحقائق أيضاً أنه رغم غزو العثمانيين للإحساء في أواخر القرن السادس عشر، ونجاحهم نجاحاً محدوداً في إقامة سلطة فيها، إلا أن هذه السلطة لم يقدر لها أن تستمر طويلاً، فقد انهارت على يد بنو خالد الذين استولوا على حكم الإحساء منذ عام ١٦٧٠، وإن اعترفوا بولاء شكلي للدولة من خلال صلتهم بولاة البصرة العثمانيين، بينما كانت الدولة العثمانية غارقة في مشاكلها بالبلقان.

وفي مقابل انصراف الدولة العثمانية عن الإحساء والخليج العربي، كان نفوذ بريطانية ومصالحها في المنطقة يتزايدان بشكل خطير، فاستطاعت بسط هيمنتها على الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، كما هو معروف، حتى لقد صار الساحل الجنوبي للخليج منطقة نفوذ بريطانية، سواء خلال الوجود العسكري، أو من خلال المعاهدات والاتفاقيات التي كبلّت بها بريطانية شيوخ المنطقة، تحت حجج معروفة وهي الحفاظ على المصالح التجارية ووقف القرصنة وتجارة الرقيق[1]، حتى أنه يمكن القول إن بريطانية سبقت الدولة العثمانية إلى الخليج العربي، من خلال

فرض وجود فعلي لها، سواء في مياهه أو على سواحله.. ومن الثابت أن الدولة العثمانية لم تنجح إلا في رفع علمها على الكويت، لبسط نوع من السيادة الاسمية التي لا تأثير لها. كما أن نفوذ الدولة في البحرين كان مؤقتاً، ومتقطعاً، ومحكوماً بتحدي الإنكليز والفرس.. أما إمارات الساحل العماني، فقد تحولت إلى منطقة نفوذ بريطاني صرف بعد أن دخلت مع الإنكليز في اتفاقيات الهدنة، التي حولتها إلى "إمارات للساحل المهادن وبذلك لم تستطع الدولة العثمانية إليها سبيلاً..

ورغم هذا النفوذ المحدود والاسمي للدولة العثمانية في الخليج العربي، إلا أنها كانت تعدُّ نفسها صاحبة سيادة حقيقية ونفوذ فعلي في المنطقة، بحكم كونها أكبر دولة إسلامية، تحتضن الخلافة، وترتبط بها شعوب الخليج وحكامه بصلة روحية عميقة من جهة، وبحكم احتياج بعض حكام المنطقة لقوتِّها، واعترافهم بسيادتها لمدافعة النفوذ البريطاني، والفارسي، من جهة أخرى. ولذلك عندما تهيأت الظروف الداخلية والخارجية للدولة، لتحول هذه السيادة الاسمية إلى وجود فعلي، عسكري وسياسي في الجزيرة العربية والخليج، فإن الدولة العثمانية لم تتوانَ عن تحقيق ذلك.

وقد تهيأت لها بالفعل من الظروف في بداية العقد السابع من القرن التاسع عشر، ما جعلها تقدم على ذلك، عندما تولى ولاية بغداد أحد زعماء الإصلاح في الدولة وهو مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢)م حيث استطاع إقناع السلطان العثماني بضرورة التصدي للنفوذ البريطاني في الخليج، والقيام بدو هام وضروري يرفع هيبة الدولة، وقدّر مدحت باشا استجابة سكان الخليج وشيوخه المسلمين، الذين سيرحبون بالدول، وجاء افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية عام ١٨٦٩م ليشكل عاملاً هاماً يتيح للأسطول العثماني حركة أسرع ويزيد من أهمية الخليج، وأخيراً كان الخلاف بين أبناء البيت السعودي، واستنجاد الأمير عبد الله بن الفيصل بوالي بغداد القوي والطموح، ضد أخيه فيصل، عاملاً مشجعاً للدولة وذريعة مباشرة، لكي ترسل حملتها العسكرية المشهورة باسم "حملة مدحت باشا" إلى نجد والخليج العربي، مستهدفة بسط

سلطة الدولة الفعلية على ساحل الخليج العربي، من الكويت حتى مسقط(٢).

تولى "نافذ باشا" قيادة الحملة في ابريل ١٨٧١، واستطاع الاستيلاء على مقاطعات الإحساء، وتعيين حكّام لها من قبل الدولة العثمانية، وتفيد المصادر بأن الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني كان يعاون والده في حكم قطر، وتضيف الوثائق الروسية أن جاسم توجه إلى الإحساء مبدياً رغبة في الخضوع للحكومة العثمانية(٣)، وأنه طلب أن تمدّه الدولة من الإحساء بقوة عسكرية لتأييده ودعمه في مواجهة الضغوط البريطانية، التي شكلت قيداً على والده. منذ توقيعه مع الإنكليز اتفاقية ١٨٦٨م، وأنه وصلت حملة عثمانية يقودها عبد الله آل صباح إلى الدوحة في يوليو ١٨٧١م، حيث أحسن جاسم استقبالها، وعلق الراية العثمانية على قصره، بينما كانت بريطانية تتابع هذه التطورات بقلق بالغ(٤)، ومن المهم ملاحظة أن الشيخ محمد بن ثاني حاكم قطر، لم يعترض على تصرفات ابنه جاسم ولم يمنعه، وإن كان هو شخصياً لم يرفع الراية على قصره هو، كما أن السلطات البريطانية قد احتجت على مسلك الدولة العثمانية، التي أبقت لها حامية عسكرية لها في البدع. وقد استندت بريطانية في احتجاجها إلى أن شيخ قطر يرتبط معها باتفاقية منذ عام ١٨٦٨م، وبالرغم من طمأنة الدولة العثمانية للسلطات البريطانية بأنها لن تمدّ نفوذها إلى بقية السواحل العربية، إلا أن الدولة لم تلبث في بداية العام التالي أن دفعت بقوة عثمانية جديدة إلى قطر، مزوّدة بمدافع، لدعم حاميتها فيها، وأكثر من ذلك أعلن قائد الحامية أن قطر صارت "قائمقامية عثمانية" تتبع متصرفية الإحساء إدارياً، وأن جاسم بن محمد صار "قائمقام" على قطر في تموز/ يوليو ١٨٧١م، وجعلت له راتباً سنوياً، وصار للدولة حق تعيين قضاة وإداريين لمختلف نواحي قطر(٥)، ولكن على الرغم من ذلك كله بقي جاسم بن محمد سيد البلاد بلا منازع تقريباً، يتصرف بمقدرتها بحرية، وهو المعروف عنه حدة طبعه، ولا يدفع أتاوات، وأنه كان ينظر بغطرسة إلى الموظفين الأتراك(٦).

ويمكن تفسير موقف الشيخ جاسم وترحيبه بالعثمانيين برغبته في التخلص من قيود

وتعهدات والده للإنكليز، والتخلص من دفع الجزية المفروضة على قبائل قطر للبحرين، مما يعني التخلص نهائياً من أي إشارة لنفوذ آل خليفة على قطر، وكان تبرير جاسم لموقفه في قبول رفع الراية العثمانية بما يعنيه من قبول نفوذ الدولة العثمانية في البدع،بأن الإنكليز لم يوفروا لقطر حماية تامة، وأنهم فشلوا في تحقيق العدل لرعايا بلاده في بعض حالات "القرصنة" وأنه يعيش في البر وأن تركية دولة برية كبيرة، والواقع أن جاسم كان طموحاً في التحرر، كما كان راغباً في الاستفادة من التنافس بين الدولتين الكبيرتين في الحفاظ على استقلال قطر وحرية حركتها. كذلك يمكن القول أنه خلال هذه المرحلة، كان مقتنعاً بأن هذا الوجود العثماني "المحدود" لا يشكل خطورة أكثر من الإنكليز، وأنه لن يشكل قيداً على زعامته وتحقيق طموحاته..

وبالرغم من التطورات السابقة، إلا أن سيطرة العثمانيين على الإحساء ونجد لم تكن قوية، خاصة بعد أن عزلت الدولة مدحت باشا عن ولاية بغداد، وانتشار الفكر الوهابي في أنحاء الإحساء، وثورات السعوديين. ومع ذلك تبقى ملاحظة د. جمال زكريا مهمة وهي أن الحملة تركت أساساً ارتكزت عليه الدولة العثمانية في تأكيد سيادتها على الخليج فيما بعد، حيث اتخذت من هذا الوجود حجة لادعائها حكم بعض مناطق الخليج في مواجهة الإنكليز، فضلاً عن أن ترحيب بعض الشيوخ بذلك، مثل جاسم آل ثاني والقبائل القطرية، قد قوى من هذه الحجة. بيد أن ذلك أدى، من ناحية أخرى إلى نتيجة عكسية، تمثلت في دفع بريطانية إلى تعزيز وجودها ونفوذها في الخليج العربي، وتأكيد وتقوية علاقاتها بحكامه(٧)، ومن ثم الاستعداد الدائم للتصدي للوجود العثماني ومحاولات تدعيمه، وإن اضطرت بريطانية إلى الاعتراف بسيادة الدولة على المنطقة الممتدة من البصرة حتى العقير. أما فيما دون ذلك، فليس ثمة اعتراف أو قرار بأي سلطة أو سيادة للدولة العثمانية، باستثناء هذا الوجود المحدود في البدع والوكرة، الذي رغم أن الدولة العثمانية تستند فيه إلى قوة الحامية، إلا أن

السلطة الحقيقية للحكم والإدارة ظلت في أيدي آل ثاني.

وكان من أهم نتائج التنافس العثماني ــ البريطاني حول قطر، خلال السنوات التي أعقبت الوجود العثماني في قطر، ومحاولات الإنكليز تقليص هذا الوجـود وتحجيمـه وحصره على ساحل قطر وحدها، كان من أهم نتائج ذلك إثارة مشكلتين هامتين أثرتـا في تطور الأوضاع، وصراع قطر مع جارتيها أبو ظبي والبحرين، وأولهما "مشـكلة العديد" التي اعتبرت فيها بريطانية أن حدود قطر تقف دون العديـد، بينمـا أصـرت الدولة العثمانية على اعتبار المنطقة ضمن حدود قطـر، وبالتـالي تخضـع للنفـوذ العثماني، وكانت هذه المشكلة أولى حلقات التنافس، الذي تحول إلـى صـراع بيـن الدولتين الكبيرتين. لقد كانت بريطانية(٨) تستهدف منع النفوذ العثماني من الاقـتراب من مشيخات الساحل العماني، الواقعة ضمن دائرة نفوذها وحدها، فبرزت المشكلة منذ عام١٨٧٣م، وتطورت إلى هجمات متبادلة بين كل من قطر وأبو ظبي عـام ١٨٨٠م، واستدعى الشيخ جاسم الدولة العثمانية ضد الإنكليز بل طلب مساعدتها لـه عسـكرياً دون جدوى(٩)، بينما أيد الإنكليز خصمه الشيخ زايد بن خليفـة. وبدورهـم مـارس الإنكليز ضغوطهم على جاسم واحتجوا عام ١٨٩٢م على ما تقوم به الدولة العثمانيـة في الخليج، وعلى محاولات زيادة نفوذها في قطر، من خلال تعيين مديريـن أتـراك للعديد والوكرة والزبارة..الخ(١٠).

وثانيهما إثارة "مشكلة الزبارة": حين حاولت الدولة العثمانية عام ١٨٧٤م إعـادة بناء ميناء الزبارة وأعماره، مما أثار احتجاج السلطات البريطانية في الخليـج علـى اعتبار أن هذا الميناء سيشكل نقطة ارتكاز معادية للإنكليز ونفوذهـم فـي البحريـن خاصة وأن شيوخ البحرين لهم ادعاءات قديمة في الزبارة، وقد نتج عن إثـارة هـذه المشكلة كما هو معروف تبادل الهجمات بين كل من قطر والبحرين خاصة بعد أن قام ناصر بن مبارك شيخ الهواجر، ومعه جاسـم آل ثـاني بالاسـتيلاء علـى المدينـة عام١٨٧٥م، حينئذ تدخل الأسطول البريطاني وبدأ في قصف الميناء مما أثار احتجـاج

الدولة العثمانية، وقد تكرر نفس الموقف تقريباً عام ١٨٧٨م من جانب الإنكليز عندما كررت الدولة المحاولة مرة أخرى محاولتها لزيادة نفوذها في الخليج مما جعل الإنكليز يؤيدون ادعاءات آل خليفة في الزبارة، كمبرر لمقاومة العثمانيين(١١).

وقد انتهزت السلطات البريطانية في الخليج هذه التطورات، وراحت تسعى لفرض نفوذها على الشيخ جاسم. ففي تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٨٨٨م سافر المقيم السياسي البريطاني من بوشهر إلى البدع، والتقى بجاسم ورأى أن جل همه الثأر من أبو ظبي "إلا أنه وعدني باحترام السلام في البحر والحياد". ويعلق التقرير الروسي على ذلك بأنه "يبدو أن البريطانيين ميالون إلى إنكار حق الحكومة التركية في السيطرة على شبه جزيرة قطر، احتلال عاصمة قطر بواسطة الفصيل العسكري التركي منذ البداية، ومن ثم تعيين موظفين لإرسالهم إليها يشكل أساساً كافياً لجعل الاحتلال أمراً واقعاً، مما يعطي الحكومة التركية من الحقوق أكثر مما يعطي الحكومة البريطانية...."(١٢).

٢ـ الصراع العثماني ـ القطري خلال التسعينات:

لقد كان الشيخ جاسم آل ثاني في موقف لا يحسد عليه من جراء التنافس البريطاني ـ العثماني، خاصة وأن قطر لم تزل إمارة وليدة، استقلت حديثاً عن نفوذ جيرانها، وكان عليها أن تحافظ على كيانها من خلال توازن دقيق. فرغم ترحيب جاسم بالسيادة العثمانية لأسباب بدت بالنسبة له منطقية آنئذ، إلا إنه لم يقدر في البداية أن هذه السيادة ستتحول إلى عبء على سلطته وعلى بلاده، وهو أمر جعله حال إدراكه يتردد في استمرار قبول هذه السيادة والاعتراف بها، بل أكثر من هذا صار يفكر في الاعتماد على بريطانية، للتخلص من تدخل العثمانيين المتزايد في شؤونه.

فبعد سنوات قليلة من إقراره بهذه السيادة، بدا واضحاً أن العثمانيين يتخذون من الإجراءات ما سوف يسلبه سلطته ونفوذه، خاصة عندما أراد العثمانيون تأسيس دائرة لتحصيل الجمارك في قطر عام ١٨٨٧م، مما اضطره للتصدي لذلك، متبعاً خطة

تنطوي على قدر من الحنكة، فابتعد عن الدوحة مؤقتاً مقيماً في داخل البلاد، ومعلناً عدم مسئوليته عن ما سيقع من اضطرابات ومشاكل من التجار الفرس والهنود، وأعلن في ذات الوقت تنازله عن لقب "قائمقام قطر"، وطلب من السلطات البريطانية حمايته، غير أن هذه لم تستجب له، بل حملته مسئولية ما يحدث من مشاكل للتجار في الدوحة ويبدو أن عدم استجابتها لهُ راجعٌ لتخوفها منه وعدم ثقتها به حينذاك، وربما لعدم الدخول في مشاكل مع الدولة العثمانية آنئذ. ومن الواضح أن السلطات البريطانية تمادت في موقفها من جاسم، واتهمته بأنه السبب فيما يحدث للتجار الهنود في الدوحة من متاعب، ونتيجة لذلك لجأت إلى مصادرة ممتلكاته الخاصة في البحرين وبومباي، لتعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم، عند ذاك اضطر جاسم إلى مراجعة موقفه من الدولة العثمانية، فطلب إلى سلطاتها أن تحتج لدى الحكومة البريطانية على ذلك، وأن تسعى لاسترداد ممتلكاته بعد أن عبر عن إخلاصه وولائه للدولة.

وبطبيعة الحال رحبّت الدولة العثمانية بموقف الشيخ جاسم الأخير، وانتهزت الفرصة عام ١٨٨٨م لتقوية مركزها في قطر، فأرسلت كتيبة جديدة من جنودها (٢٥٠) جندي، لدعم قوتها العسكرية، بعد أن قام والي البصره (نصيف باشا) بزيارة الدوحة، ووعد الشيخ جاسم بلقب ووسام، وأمر بإنشاء مستودع للفحم، ووضع لنش بخاري حربي دائم في مياه قطر. ومن الواضح أن الدولة العثمانية بهذه الإجراءات الجديدة أرادت إيقاف احتجاجات الإنكليز بشأن الاضطرابات الحادثة في أسواق الدوحة، أرادت إثبات قدرتها على ضبط الأمن وإقرار الأمور.. "ومن الثابت أن جاسم لم يكن راضياً عن هذه الأمور، قد استنهض السلاح ويقال: إن رجاله قتلوا بضعة جنود، فيما فر الباقون، وهذا ما اضطر السلطات المحلية إذ عرفت بالأمر إلى إرسال قوات مساندة"(١١).

ولم يكتفِ العثمانيون بذلك، فخلال الفترة التالية (١٨٨٩–١٨٩١)م رسموا خطة جديدة تؤدي إلى مزيد من إحكام قبضتهم على قطر، فزار متصرف الإحساء (عاكف

باشا) الدوحة في تموز/ يوليو ١٨٨٩ لتأسيس إدارة عثمانية مباشرة في قطر، فقدم للشيخ جاسم مقترحات تتضمن تعيين وكيل عثماني للقائمقام، أي للشيخ نفسه لكثرة تغيبه عن الدوحة داخل البلاد، وإقامة مبنى إداري حكومي لهذا الغرض وأن تقيم بقطر قوتان من الفرسان والمشاة وتعيين مدير عثماني لميناء الدوحة يكون مسؤولاً عن تحصيل العوائد من السفن القطرية، كما تضمنت المقترحات كذلك فتح مكتبين للبريد في كل من الزبارة والعديد، وكذلك تسيير سفينتين تجاريتين بشكل منتظم بين الدوحة والعقير والقطيف، فضلاً عن مشروعات أخرى لإعادة بناء وإعمار الزبار والعديد (١٤).

أثارت التطورات السابقة والمقترحات غضب الشيخ جاسم آل ثاني، ليس فقط لأنها ستضعف هيبته وتقلص من سلطته، وإنما لأنها ستؤدي إلى حرمانه من مصدر هام من مصادر دخله وهو الرسوم الجمركية، وكان يرى أن فرض الدولة الرسوم على التجار والسفن وعلى دخل اللؤلؤ سوف يسبب هجرة السكان عن البلاد، كما أن تعيين مساعد له سوف يتيح للدولة العثمانية التدخل في كل شؤونها، فضلاً عن ذلك فإن الشيخ حمل مرارة من العثمانيين عندما تقاعسوا عن مساعدته في صراعه الطويل مع حاكم أبو ظبي بشأن العديد، فلم يلبوا طلبه بمعاونته عسكرياً، مما أوغر صدره وجعله يتشكك في قدرتهم على الدفاع عن مصالحه وبلاده، لذلك بدأ في اتخاذ موقف معارض معلناً عدم اعترافه بالسيادة العثمانية، وشرع في التحريض على مقاومة الإجراءات العثمانية في الدوحة، فأعاق تأسيس الدائرة الجمركية، وتوقف عن دفع الجزية للدولة مما أثار المسؤولين العثمانيين في البصرة والإحساء واستانبول، وبدأت العلاقات بين الجانبين تتدهور بسرعة حتى وصلت إلى مرحلة خطيرة في فبراير/ شباط ١٨٩٣م.

ومن الثابت أن الدولة العثمانية بدأت تستعد بالفعل منذ آذار/ مارس من العام السابق (١٨٩٢)م لفرض سيطرتها الكاملة بالقوة على قطر بعد إخضاعها، فجهزت جيشاً من الفرسان والمشاة لإرساله إلى البصرة ومنها إلى الإحساء، ثم إلى الدوحة

وعندما وصل (محمد حافظ باشا) والي البصرة حينئذٍ، إلى الدوحة في فبراير ١٨٩٣م صحب معه قوة عسكرية قوامها ثلاثمائة فارس وفرقة مشاة، كما كانت الدولة العثمانية قد طلبت دعماً عسكرياً من حاكم الكويت (الشيخ محمد آل صباح) لمعاونتها في غزو قطر، فاستجاب الشيخ وأعدّ جيشاً عهد بقيادته إلى أخيه مبارك، الذي سار به صوب الإحساء في مارس من نفس العام. ومن جانبه شرع الشيخ جاسم آل ثاني في الاستعداد بعد أن علم بتجهيزات الحملة عن طريق وكيله في البصرة، ثم اتبع خطة اتسمت بالحنكة والمهارة أذاع بموجبها أنه سيترك الدوحة ويستقر بعيداً عنها متخذاً من منطقة الوجبة التي تبعد ١٢ ميل غربي الدوحة، مستقراً له، وأنه استقال من منصبه كقائمقام، الذي سيتولاه شقيقه الشيخ أحمد بن محّمد آل ثاني، مدعياً أن ذلك بسبب مرضه وشيخوخته..(١٥). وعندما وصل محمد حافظ باشا إلى الدوحة، استقبله الشيخ أحمد آل ثاني، لكنه طلب استدعاء الشيخ جاسم واعداً إياه بالأمان، غير أن جاسماً لم يأمن، فاعتذر عن عدم المثول أمام الوالي بضعفه وشيخوخته، فاقترح الوالي حفاظاً على هيبته أن يلتقيا في الصحراء ومع كل منهما جماعة قليلة من الرجال، ومع ذلك تعذر الوصول إلى حل، واستمرت المفاوضات نحو شهر كان الشيخ أحمد هو الوسيط فيها،وقد طلب الوالي خلالها أن يدفع جاسم ضريبة الدولة (الميري) عن الفترة السابقة وهي خمسة عشر عاماً، غير أن جاسم رد بأنه ليس لديهم نخيل أو ممتلكات تدر أموالاً وأنهم يبقون ثمانية أشهر من العام في البر للرعي ويذهبون للغوص خلال ما تبقى من العام، ومع ذلك عرض جاسم دفع مبلغ خمسين ألف ريال فرنسي، وكذلك أربعمائة بندقية، غير أن والي البصرة رفض هذا العرض، وبينما أعلن الوالي أن قطر لم تدفع ضريبة الدولة منذ مدة طويلة فإن وزير الخارجية العثماني صرح في تموز/ يوليو ١٨٩٣م للسفير البريطاني في استانبول عندما استفسر عن أمر هذه الحملة بأن قطر تدفع خراجها السنوي للسلطان(١٦).

تعثرت المفاوضات ورفض جاسم مغادرة الوجبة، فأرسل إليه الوالي قائد مشاته

للاجتماع به في قصره فاعتبر جاسم ذلك إهانة له ولم يكن ثمة مفر من استخدام القوة بعد أن نفذ صبر الوالي، وتوالت الأحداث سراعاً كما رواها لوريمر في دليل الخليج، ففي ٢٥ مارس/ آذار قام الوالي باعتقال الشيخ أحمد آل ثاني شقيق جاسم ومعه اثنا عشر رجلاً من أعيان الدوحة، مما أثار حفيظة الثائرين[١٧]، ثم لم يلبث أن حاصر المدينة براً وبحراً، وعندما بلغت جاسم هذه الأنباء أوهم العثمانيين بأنه ترك قطر وسرح قواته في حين أنه كان قد وزّعها على عدة نقاط رئيسية بخطة محكمة، وعند ذلك أرسل الوالي قوة قوامها ١٥٠ جندي إلى الوجبة، وهناك وقعت في كمين أُعِدّ لها في ٣ أبريل/ نيسان فانقضت عليها القوات القطرية من كل جانب عند منطقة "المسيمير" حيث كبدّتها خسائر فادحة في الأرواح والعتاد مما اضطرها إلى الانسحاب والاحتماء بأحد قصور الشيخ في "الشقب"، وهناك حاصرتها القوات القطرية وهاجمتها بقصف القصر بعد أن استولت على عدد من المدافع العثمانية، وقبيل المساء كانت فلول القوات العثمانية المنهزمة تفرّ راجعة إلى الدوحة لتتحصن بها، بعد أن أطلقت السفينة العثمانية مدافعها لتغطية الانسحاب، بينما نقل والي البصرة مقره إلى ظهر السفينة، ربما استعداداً للهرب، ونتيجة لاستيلاء القوات القطرية على آبار المياه القريبة من الدوحة، أرغم الوالي على إطلاق سراح الشيخ أحمد والأعيان الذين كانوا رهائن لدى القوات العثمانية، بعد أن رفض الشيخ جاسم إجراء أية مفاوضات قبل أن يتمّ ذلك، وظل جاسم يعيش هادئاً في الوجبة، بينما ظلت السفينة العثمانية راسية في ميناء الدوحة وعلى متنها الوالي[١٨].

ويبدو أن السلطات العثمانية في بغداد قد أقضّت هذه الأحداث مضجعها وأدركت خطورة العواقب السيئة التي قد تنجم عنها، لذلك أعطت أمراً على الفور لأربع كتائب مرابطة في مكان قريب أن تستعد للهجوم، ويقال إنها استدعت أربع كتائب أخرى من قطاع الموصل "غير أننا لم نشهد إرسال الجنود ولا تزال الوحدات العسكرية باقية في أماكنها" وحسبما علمت القادة العسكريين المحليين، تقرر إرسال حمدي باشا مع خمس سفن لمعالجة الوضع الناشئ.. [١٩].

وقد وصفت روز ماري زحلان بطولة جاسم خلال هذه المعركة فذكرت أنه رغم كبر سنه باعتباره قارب الثمانين، إلا أنه لا يزال قوياً شديد المراس، وأن قواته حاربت ببسالة وقوة وعزيمة واستطاعت حسم المعركة في يوم واحد، بينما انشغل الوالي بأمر تدبير عودة فرسانه إلى الإحساء، في ظروف قطع إمدادات المياه عنها، وأصبحت معركة الوجبة علامة بارزة في تاريخ قطر الحديث، بسبب الشجاعة التي واجه بها جاسم قوات والي البصرة العثماني، مما زاد من شعبيته وبروزه كقائد قوي في قطر، ولم يجد العثمانيون في النهاية سوى منحه عفواً عاماً[٢٠].

وتعلق التقارير الروسية على معركة الوجبة ونتائجها على وضع الدولة العثمانية فتذكر أن هزيمة هذا الفصيل التركي والخسائر التي تكبدها، لا يمكن أن ينظر إليها بمفردها باعتبارها حدثاً عادياً، لكن النظر إليها على خلفية الوضع بمجمله في بلاد العرب الخاضعة لتركية، فإنها خطيرة للغاية، سواء على الصعيد الإداري، أم على الصعيد السياسي... فالوجود العثماني في هذه البلاد والذي لم يأتِ على الأهالي إلا بالتضييقات والتجاوزات، لا يمكنه أن يرضي العرب المعتادين على نمط عيشي مستقل، فيثير في أوساطهم الريبة والسخط. وبديهي أن يكون من شأن هزيمة فصيل تركي كبير في قطر، في ظل ظروف كهذه أن يحطّ من هيبة الحكومة التركية في أعين القبائل العربية الخاضعة لها، بل حتى المتعاطفة معها، وهذا الأمر يتعارض مع مشروع الإصلاحات الواسعة المستهدفة تدعيم سلطة وهيبة الحكومة التركية في بلاد العرب، لمواجهة النفوذ البريطاني[٢١].

نتج عن التطورات السابقة أن الشيخ جاسم أراد أن يستفيد سياسياً من انتصاره العسكري وأن يقلّص الوجود العثماني في قطر إلى أدنى حد ممكن، فطلب إلى الوالي العثماني الذي كان ما يزال على ظهر سفينته إبعاد جميع الجنود الذين أتى بهم من الإحساء، بحيث لا يبقى في البدع سوى الفرقة العثمانية التي كانت ترابط فيها سابقاً، كما أرسل شكوى إلى السلطان عبد الحميد الثاني، يلقي فيها بمسئولية ما حدث على

الوالي وسوء تصرفه، وقد نجحت شكواه بالفعل في عزل الوالي عن ولاية البصرة[٢٢].

أما فيما يتعلق بمعالجة الأتراك للأزمة الناتجة عن هزيمة الوجبة، فقد تساءل أحد التقارير حول مدى جدية الاستعدادات التركية لمعاقبة القبائل المتمردة والقادرة في أي وقت على أن تتراجع إلى صحراء الدهناء القاحلة حيث يصعب ملاحقتها، أم أن الأتراك سيلجئون مثلما حدث في حالات أخرى مشابهة إلى إجراءات جزئية فيسوون الأمور بالحسنى والتفاوض[٢٣].

وقد حاولت بريطانية التوسط لتسوية الأزمة عندما اقتراح اللورد روزيري وزير الخارجية إرسال المقيم السياسي البريطاني (تالبوت) إلى قطر للقيام بالوساطة، ووصل فعلاً إلى البدع في ٥ مايو/ أيار ١٨٩٣، غير أن الوالي رفض بحث الموضوع معه قبل أن تصله تعليمات من الباب العالي بذلك، بل لقد احتج على قدوم المقيم الذي قرّر بدوره دعم موقف الشيخ جاسم، فالتقى به في الوكرة، فوجده قد فوض أخاه الشيخ أحمد لإجراء التسوية، نيابة عنه مع موافقته على إجراء أي ترتيبات عادلة من قبل الإنكليز، وطلب تجديد اتفاقية عام ١٨٦٨ معهم، أو يتعهد بقبول نفس التزامات شيوخ الساحل العماني المتصالحين. وطلب الشيخان جاسم وأحمد الإسراع في تسوية المسألة حتى لا يضيع موسم الغوص الذي تعطل بسبب هجرة كثير من الأهالي خوفاً من العثمانيين.

ومن جانبه، أوصى المقيم تالبوت بلاده ببذل الجهود لتأمين انسحاب العثمانيين، وإعادة تنصيب شيوخ قطر المستقلين على نفس مستوى الشيوخ المتصالحين، وأبدى اعتقاده بأن العثمانيين سوف يصفحون عن جاسم تجنباً لوساطة الإنكليز، وأنهم ربما يطلبون مبلغاً سنوياً بسيطاً نظير حقوقهم المفترضة في البدع وانسحابهم من قطر، على أن تتعهد حكومة الهند بضمان دفع الأقساط لتغطية التعويض[٢٤].

ومما هو جدير بالملاحظة أن الوثائق الروسية ذكرت أن الحكومة التركية ألقت بتبعية ثورة القبائل القطرية ضد النفوذ التركي في قطر على تشجيع الإنكليز، لأن هؤلاء العرب ما كانوا يجرؤن على الثورة لولا وجود السفن الإنكليزية الدائم بوجه خاص قرب البحرين "ويشتبهون حتى بتحريض الإنكليز للعرب تحريضاً مباشراً، وبتزويدهم بالسلاح السريع الرمي بزعم أنه يباع في جزيرة البحرين علناً... وليس مستبعداً البتة أن يكون الإنكليز قد استغلوا الفرصة لتحريض العرب غير الراضيين أصلاً" عن مسلك الموظفين الحكوميين الأتراك عن تصرفات والي البصرة(٢٥).

ويبدو أن الحكومة التركية رغم الكدر الشديد الذي تركته هذه الهزيمة، إلا أنها اضطرت على ما يبدو إلى العدول عن عزمها عن القيام بحملة جديدة وإجراءات شديدة لمعاقبة الشيخ جاسم آل ثاني. فالحقيقة أن العرب كان بمقدورهم ـ لو اضطروا ـ الانسحاب إلى الفيافي المقفرة في الصحراء، حيث يتعذر على أي فصيل عسكري جاهل بخاصيات المكان لملاحقتهم، لاسيما خلال شهور الصيف القائظة، كما أن من شأن بُعد قطر عن البصرة وبغداد وشبه الغياب التام لوسائل الاتصال السريع مع هاتين المدينتين، أن يضطر الفصيل التركي إلى الاعتماد على قواه وأسلحته الذاتية، إلا أن السفن الحربية الاثنتين أو الثلاث المتواجدة في البصرة، ما كانت تستطع بسبب قدمها أن تنفذ الهدف بنجاح(٢٦)، لذلك كله فضلت الحكومة التركية تسوية القضية بالمفاوضات فقط، ثم اتخاذ إجراءات أكثر شدة على أساس نتائج التحقيق، لذلك سحبت إلى البصرة وعينت مكانه أحد رجال الأسطول وهو حمدي باشا، وأرسلت برفقته المقدم فضلي بك(٢٧).

وخلال هذه التطورات سلّم السفير التركي مذكرة إلى وزير الخارجية البريطاني في ١٥ أبريل/ نيسان ١٨٩٣م، أشار فيها إلى قطر باعتبارها "قضاءً تركياً تابعاً لسنجق نجد" غير أن حكومة الهند وبناءً على نتيجة مهمة تالبوت، أبرقت للخارجية البريطانية في ١٨مايو/ أيار ١٨٩٣م، ببيان أهمية الوصول إلى تسوية سليمة بين

جاسم والباب العالي، الذي يجب أن يتعهد بقبول ذلك، من أجل مستقبل السلام على الساحل القطري. أما إذا رفض الأتراك قبول ذلك والتعهد به، وهددوا بإرسال حملة إلى قطر، فإنني أقترح أن تستفسر من سفيرها في استنابول عن نية الحكومة التركية إرسال مثل هذه الحملة إلى قطر، إلا أنها علمت بأن التفكير في هذا ليس وارداً، ومع ذلك راحت الخارجية البريطانية تذّكر السفير التركي في لندن بإعلان اللورد جرانفيل في ٧ مايو/ أيار ١٨٨٣م، الذي رفض فيه الاعتراف بدعاوي الأتراك في ساحل قطر.. وقد أصرت الخارجية البريطانية على التمسك بهذه السياسة. وإن كانت لا تسيطر عليها عملياً على قطر، وأنه ما دام الأتراك لا يتحركون عملياً خارج حدود تلك البلدة (البدع) فإننا[٢٨] معترفون بسيادة اسمية للباب العالي، لكن القيام بأية محاولة لتوسيع هذه السيادة سوف يواجه بالمقاومة.

وهكذا يمكن القول أنه رغم أن وساطة بريطانية من خلال مقيمها في الخليج، فإن المراسلات بين كل من حكومة الهند ودار المقيمية والخارجية البريطانية. قد أظهرت عزم بريطانية على التدخل وحماية قطر، والتصدي لأية حملة عسكرية قد تفكر تركية في إرسالها، كما أظهرت نيتها على منع الأتراك من زيادة وجودهم خارج البدع. أو القيام بأية محاولة لزيادة نفوذهم المتدهور في قطر، في الوقت الذي دأب فيه الأسطول البريطاني على القيام بتدريبات قبالة الساحل القطري.

وحيث أن الحكومة التركية كانت تعلم بنوايا بريطانية وتحفظها، وغير راغبة في تدخلها ووساطتها خشية استناد شيخ قطر إلى قوة هذه الوساطة، لذلك آثرت التدخل في مفاوضات مباشرة مع قطر، وبالفعل أرسلت نقيب الإشراف في البصرة إلى الدوحة في يونيو/ حزيران ١٨٩٣، حيث نجح في التوصل إلى تسوية بين الحكومة التركية وجاسم آل ثاني، وافق خلالها الشيخ على التنازل عن منصبه كقائمقام لصالح أخيه الشيخ أحمد، وأن تعاد الأسلحة والمدافع التي استولى عليها القطريون من الجيش التركي، وأن تصدر الحكومة البريطانية عفواً شاملاً عن الشيخ جاسم[٢٩].

وتعلق الوثائق الروسية على ذلك بأن الأتراك حلوا المسألة بصورة سطحية "تهدئة خواطر الأهالي، وطي المسألة"، أما المحققون المرسلون إلى قطر، فلم يضيعوا فرصة استلام الهدايا من الشيخ الثري جاسم آل ثاني" ووصفت نقيب البصرة بأنه خاضع لنفوذ الإنكليز إلى حدّ ما، دون أن يكون ذلك النفوذ بارزاً بصراحة.. كما أنه ــ أي النقيب أقام منذ زمن بعيد في نفس الوقت علاقات ود ثابتة وقوية مع جاسم.. وهكذا لم يبق جاسم آل ثاني دون عقاب على ذنبه الرئيسي وهو ضرب فصيل عسكري بأكمله فقط، بل كوفئ بإعادة رتبة قائمقام إليه وتسليمه أحد الأوسمة التركية.."[٣٠].

ومن اللافت للنظر أنه رغم هذه التسوية، وعزوف جاسم عن التعاون مع الأتراك أو خدمتهم، إلا أن هؤلاء ظلوا يعتبرونه رجل قطر القوي، وأنه من الناحية الفعلية قائمقامهم، وظلوا يعاملونه على هذا الأساس، وتراجعوا عن قبول استعفائه، حيث أدركوا أنه "في هذا المنصب سيكون أقل خطورة منه فيما لو ترك حراً غير مقيد به". ويذكر لوريمر أن الأتراك أرسلوا مسئولاً ليعمل كمساعد للقائمقام ليقيم في الدوحة في نفس العام، إلا أن الجنود الأتراك ضاقوا به، وضيقوا عليه حتى هرب وزوجته إلى الوكرة ثم قتلوهما بعد ذلك![٣١].

ويبدوا أن الحكومة التركية عولّت بإجراءاتها السابقة على إمكان استمالة الشيخ جاسم آل ثاني إليها شيئاً فشيئاً من جديد، وبالتالي استعادة مواقعها الوطيدة سلمياً في قطر، حتى أن جلالة السلطان خصص لهذا الغرض ــ حسبما قيل ــ مبلغاً من المال لبناء مسجد صغير في قطر، ولإنشاء مدرسة ابتدائية تابعة له بعد ذلك.. ومع ذلك فإن الإنكليز المتمتعين بنفوذ قوي في الخليج، لن يفوتوا فرصة مواتية للتقرب أكثر من شيخ قطر[٣٢].

ومع ذلك فإن استنابول اقتنعت بضرورة تقوية وجودها العسكري في الخليج من خلال ظهور السفن التركية فيه، فأرسلت في أواخر عام١٨٩٤ ثلاث سفن حملت

كتائب عسكرية لتوزع على القطيف والهفوف وقطر، لضرورة تقوية الحاميات العسكرية فيها[٣٣]. واقتناعها بضرورة الحفاظ على نفوذها في الجزيرة العربية ومواجهة هيمنة بريطانية، وتحريضها العرب باستمرار على تركية وإمدادها إياهم بالسلاح[٣٤]، فضلاً عن انعدام وجود أي تنافس هناك، قد منح البريطانيين حرية حركة واسعة للاستفادة من الأوضاع لتحقيق أغراضهم، لذلك اقتنعت السلطات التركية المركزية بوجوب إخضاع الشاطئ العربي للمراقبة. لذلك وقعت اتفاقية مع شركة الملاحة التركية لعمل خط ملاحي ما بين البصرة وبور سعيد، مروراً بمرافئ شبه الجزيرة العربية كمرحلة أولى، مما يعني بداية ملاحة في الخليج، وإن كان هناك احتمال أن يتخذ البريطانيون إجراءات تقضي عليه في المهد[٣٥]. وتصف التقارير الروسية أسلوب السلطات التركية في معالجة الأمور بأنه لا يؤدي إلا إلى تقويض مواقعها في قطر، ويسلم الإنكليز سلاحاً يوجه ضد الأتراك أنفسهم..[٣٦].

ولما كان أحد أسباب جاسم للترحيب بالعثمانيين، التخلص من دفع الضريبة التي التزم والده بها لحكام البحرين فإنه سرعان ما ثبت له أنه يدفع للسلطات العثمانية في البصرة أكثر مما كان يدفعه والده، وأخيراً جاءت محاولات الدولة العثمانية المتكررة لتشديد قبضتها على قطر، خشية وقوعها تحت السيطرة البريطانية تماماً، كما هو الحال في البحرين[٣٧]، جاءت هذه المحاولات على حساب سلطة الشيخ جاسم وزعامته للقبائل القطرية، حتى لقد اقتنع في النهاية بضرورة التصدي للدولة العثمانية، حتى لو اقترب من الإنكليز وطلب حمايتهم، ومن ثم كانت الخلافات التي أدت في النهاية إلى معركة الوجبة عام١٨٩٣، التي وضعت حداً للنفوذ العثماني في قطر، وسجلت فشلاً ذريعاً للوجود العسكري والسياسي للدولة العثمانية في قطر، ومن ثم تدهور العلاقات تدهوراً سوف تؤكده السنوات التالية بشكل لا رجعة فيه، ويؤكده دخول قطر في فلك السياسة البريطانية بشكل واضح.

الهوامش والمصادر

١- القنصلية الإمبراطورية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ٤٢٦ في ٢٦ أكتوبر ١٨٩٢ (نبذة مختصرة عن محلة قطر، من أ. كروغلوف إلى أ. تليدوف)، وتضيف الوثيقة أن شيوخ راس الخيمة، وأم القيوين وعجمان والشارقة ودبي وأبو ظبي خضعوا للنفوذ البريطاني ولا قوة لهم على التخلص منه بعد ذلك، شيخ قطر وحده محمد بن ثاني بقي خارج نطاق النفوذ المذكور ولم يستطع المندوبون البريطانيون في الخليج "الفارسي" جرّه إلى عقد معاهدة مؤقتة منفردة معهم حتى عام١٨٦٨م.

٢- راجع حول هذا التطورات، عبد العزيز المنصور، **التطور السياسي لقطر (١٨٦٨-١٩١٦)** ذات السلاسل، الكويت ١٩٧٥م، ص١٣٣-١٤٢، جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠-١٩١٤)** جامعة عين شمس١٩٦٦، ص١٧١ وما بعدها.

٣- القنصلية الإمبراطورية الروسية في بغداد رقم ٤٢٦-١٢٦ أكتوبر ١٨٩٢، ص٨، نفس الوثيقة السابقة، ص٨، وتضيف الوثائق "جاسم" بأنه شيخ بني هاجر وهذا ليس صحيحاً كما تصفه بأنه شخص عملي استفاد من الغوص وتسويق اللؤلؤ في بومباي والبحرين وأنه أثرى ثراءً لا بأس به.

٤- R/15/2/29, Report by Maojor Sid y Smith to the Assistant of Political Resident in the Gulf, 20-7-1871, No E6.

٥- المنصوري **نفس المكان**، جمال زكريا، **نفس المرجع**، ص١٧٢، وكذلك Turkish Jurisdiction along the Arabian Coast of the Persian Gulf, part I,

pp 14-16.

Zahlan, R.S., the creation of Qatar, London1979, p46.

٦- الوثائق الروسية، رقم٤٢٦ في أكتوبر١٨٩٢، ص٩.

٧- انظر، جمال زكريا، **المرجع السابق**، ص٢٠٣-٢٠٤، Zahlan, Op. Cit.

٨- سالدانا، جي، أي، **الشؤون القطرية** (١٨٧٣-١٩٠٤) تعريب أحمد العنـاني، وثائق التاريخ القطري، الدوحة/ دون تاريخ، ص١٤١ وما بعدها.

٩- الوثائق الروسية، وثيقة رقم ٤٢٦ في ٢٦ أكتوبر ١٨٩٢، ص٩.

١٠- **المصدر السابق**، ص١٥٣، ١٦٢-١٦٤، ٢١٥.

١١- حول مشكلة الزبارة واتخاذها مجالاً للتنافس البريطـاني العثمـاني انظـر، ابراهيم عبد العال، **قطر ودورها في أحداث منطقة الخليج العربي (القرنـان الثامن عشر والتاسع عشر)** القاهرة١٩٩٢، ص٨١-٨٨، وكذلـك جمـال زكريا، **المرجع السابق**، ص٢٣٤، Zahlan,Op, Cit 4t-48.

١٢- **نفس المصدر** والوثيقة، ص١٠.

١٣- **نفس المصدر**.

١٤- سالدانا، جي، أي، **الشـؤون القطريـة** (١٨٧٣-١٩٠٤)، ص١٦٢-١٦٤، وكذلك المنصور، **المرجع السابق**، ص١٤٩-١٥٠.

١٥- Zahdan, R.S., Op. Cit. 51-53

وكذلك المنصور، **المرجع السابق**، ص ١٥١ ويذكر عـن الشـيباني أن مبارك آل صباح تباطأ مظهراً الامتثال لكنه كان ينوي عدم الاشـتباك مـع شيخ قطر، وأنه وصل بعد انتهاء كل شيء.

١٦- المنصور، **نفس المرجع**، ص١٥٢.

١٧- القنصلية الإمبراطورية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ١١٧ في ١٤ ابريل١٨٩٣ (تقرير من أ. كروغلوف إلى الكسندر إيفانوفيتش).

١٨- لوريمر، **قطر في دليل الخليج قسم الوثائق والأبحاث بمكتب الأمير**، الدوحة١٩٨١، ص ٧٩-٨٠، وكذلك سالدانا، **نفس المصدر**، ص١٦٧-١٦٨، وقد أضاف لوريمر أن خسائر الأتراك قدرت بنحو مائة رجل أما خسائر القطريين فبلغت نحو ٤٠٠ من الرجال والنساء والأطفال.

١٩- القنصلية الإمبراطورية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ١١٧ في ١٤ ابريل١٨٩٣، (من أ. كروغلوف إلى إيفانوفيتش).

20- Zahlan, R.S.Op. Cit, pp53-54

٢١- الوثائق الروسية، **المصدر السابق**، نفس الوثيقة.

٢٢- المنصور، **المرجع السابق**، ص١٥٣.

٢٣- الوثائق الروسية، **المصدر السابق**، نفس الوثيقة.

٢٤- سالدانا، **نفس المصدر**، ص١٧١-١٧٤.

٢٥- القنصلية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ١٣٦ رقم ١١٧ في ١٤ ابريل ١٨٩٣.

٢٦- القنصلية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ١٣٦ رقم ١١٧ في ١٧ مايو ١٨٩٣.

٢٧- القنصلية الروسية في بغداد، نفس الوثيقة.

٢٨- **نفس المصدر**، ص١٧٥-١٧٩.

٢٩- لوريمر، قطر في **دليل الخليج**، ص٨١، وقد ذكر المنصور، **المرجع**

السابق، ص١٥٤، أن الشيخ أحمد تعهد بدفع ربع دخل قطـر للدولـة فـي المستقبل!.

٣٠- القنصلية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ١٢٦ في ١٦ مايو ١٨٩٤.

٣١- **نفس المصدر السابق**، ص٨١-٨٢.

٣٢- القنصلية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ١٢٦ في ١٦مايو ١٨٩٤.

٣٣- القنصلية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ٣٨٦ في ١٢ ديسمبر ١٨٩٤.

٣٤- **نفس المصدر**، تقرير كروغلوف تحـت رقمـي٣٨٧-،٤٠٠ فـي ١٢-١٤ ديسمبر ١٨٩٤.

٣٥- نفس المصدر، نسخة من التقرير السري لمدير القنصلية إلى السـفير فـوق العادة بالقسطنطينية رقم ٣٩٩ في ١٤ ديسمبر١٨٩٤.

٣٦- القنصلية الروسية في بغداد، وثيقة رقم ٦٤ في ١١ فبراير١٨٩٩.

٣٧- راجع تحليل أسباب تحوّل جاسم عن الدولة العثمانية واتجاهه نحو بريطانيـة جمال زكريا، **المرجع السابق**، ص٢٤٥-٢٤٦، المنصور، **المرجع السـابق**، ص١٥٥.

الملاحق

تابع إلى الرقم ٤٢١ عام ١٨٩٢

بغداد

نبذة عن محلة القطر

حدود القطر:

يعرف باسم القطر، أو حسب اللهجة المحلية "القِطَر"، شبه جزيرة رحيب يقع في الجانب الجنوبي الغربي من الخليج الفارسي، ويمتد في مياه الخليج بشكل أسفين حاد الطرف ينتهي بـ "رأس الركن".

ومن الطرف الشمالي الغربي، ابتداء من الرأس المذكور وحتى العجير، ميناء مدينة الهفوف، المدينة الرئيسية لمقاطعة "الإحساء"، يغتسل شبه الجزيرة هذا بجزء من مياه الخليج الفارسي، يسمى ببحر البحرين، ويفصل شبه الجزيرة عن الجزر الواقعة في هذا البحر، المسماة بالاسم نفسه، والخاضعة حالياً للحماية البريطانية. ويتماس الطرف المقابل أي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة المذكور، ومياه ما يسمى بـ "بحر البنات" المتميز بهدوء صفحة مائه الذي يداعب شواطئ شبه جزيرة القطر من "رأس الركن" وحتى "خور العديد"، المعتبر تقريباً النقطة الأبعد لخط شاطئ القطر من هذا الطرف. وهكذا تبدو حدود شبه الجزيرة من ناحية الخليج، إلى هذه الدرجة أو تلك، مقررة ومعروفة وتبتدئ هذه الحدود إلى الجنوب قليلاً من ميناء العجير وحتى بلدة خور العديد. أما فيما يخص حدود المجال الداخلي الذي يمتد عبر أراضي القطر، فإن رصفها حالياً غير ممكن إلا تماماً بسبب عدم وضوحها البتة.

وإلى الغرب من بحر البحرين الجنوبي من الشريط العريض الممتد عبر الساحل العربي للخليج الفارسي، والذي يصل شمالاً إلى مصبي دجلة والفرات تقريباً، ثم تترامى من الجانب نفسه، قليلاً باتجاه الجنوب، صحراء تشكل امتداداً لهضبة نجد الداخلة حالياً ضمن أملاك محمد بن الرشيد ذي الجبروت والتي يفصلها عن القطر مجال رملي معروف باسم صحراء النفوذ الصغرى. وصحراء النفوذ هذه تشكل الطرف الشمالي الضيق لصحراء الدهناء الرملية الشاسعة الممتدة بعيداً إلى الجنوب، ناحية حضرموت،

البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام

(سورية وفلسطين) ١٨٤٠ـ١٩١٤م

تشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن اهتمام روسية القيصرية بمسألة الأماكن المقدسة في فلسطين، يعود إلى فترة تبنيها للعقيدة المسيحية. غير أن آراء معظم المؤرخين تجمع على أن الأرض المقدسة (فلسطين) كانت بالنسبة لروسية والشعب الروسي قبل القرن التاسع عشر بلاداً بعيدةً، والطريق إليها شاقةٌ وصعبة، وزيارتها مكلفة للغاية، واقتصر الحج إليها على بعض المؤمنين الميسورين من أبناء المجتمع الروسي، حتى أن السلطة الروحية الروسية (البطركية الأرثوذكسية الروسية) لم تتخذ أية إجراءات عملية من أجل إنشاء علاقات، وروابط مع الأرض المقدسة، وإيجاد نوع من الوجود الروحي الروسي فيها، أوحتى التفكير بافتتاح ممثلية للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في بيت المقدس تتولى حماية الأرثوذكس، والأرثوذكسية في فلسطين أوعلى الأقل تتولى رعاية الحجاج الروس فيها.

خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت المسألة الشرقية إحدى أهم وأخطر القضايا الدولية العالقة في العلاقات الدولية بين الدول العظمى، وكان السبب الشكلي أوالظاهري للصراع بين الدول الأوروبية العظمى آنذاك هوالاختلاف بين الأرثوذكسية، والكاثوليك على حق امتلاك مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم، وإصلاح قبتّها، في الوقت الذي كان فيه السبب الحقيقي للخلاف هو لمن ستكون منطقة الشرق العربي في المستقبل؟

وراحت روسية القيصرية تسعى للدفاع عن مصالحها وتطلعاتها وأهدافها في هذه المنطقة عن طريق تبني مسألة ما أصبح يُعرف باسم رعاية الحجاج الروس في

الأرض المقدسة فلسطين، والتي بدأت تطرحها بشكل عملي منذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت تلح دائماً على إيجاد حل مناسب لها.

لا بدّ من الإشارة هنا، إلى حقيقة أن العلاقات الروسية مع العرب والتي تعود إلى القرن العاشر الميلادي.(١) كانت منذ بداياتها الأولى علاقات وديّة وطيّبة، وقامت على مبدأ الاحترام المتبادل، وشهدت منذ ذلك التاريخ تطوراً مستمراً. غير أن الأحداث السياسية التي وقعت في بلاد الشام، والموقف الروسي أثناء فتح محمد علي باشا لها (١٨٣١ – ١٨٤٠)م، والدور الذي لعبته الدبلوماسية الروسية في مؤتمر لندن، وتسوية ١٨٤٠ – ١٨٤١ م. أساءت إلى هذه العلاقة إلى حدٍّ كبير، ولطّخت سمعة روسية، وأفقدتها بريقها لدى العرب، وانتزعت من يد روسية حلّ مجموعة من المسائل العالقة في المنطقة العربية، وجعلتها في المرتبة الخامسة والأخيرة وسط الدول العظمى وفسحت مجالاً واسعاً، وفتحت أبواباً عريضة للدعاية الكاثوليكية، والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسية في بلاد الشام وبخاصة في قسمها الجنوبي (فلسطين) (٢).

كما مُنيت روسية القيصرية بخسارة أخرى وقعت أثناء انعقاد اجتماع لندن، تمثلت في حرمانها من الامتيازات التي مُنحت لها بموجب (اتفاقية هنكاراسكله سي) التي كانت قد وقّعت عليها مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٣ م، ومنحتها حق حماية الأرثوذكس داخل الدولة العثمانية، وأعطت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية مكانة رفيعة المستوى في الأرض المقدسة فلسطين (٣).

١ـ البدايات الأولى لنشاط البعثات التبشيرية الروسية في جنوب بلاد الشام (فلسطين):

منذ بداية أربعينات القرن التاسع عشر، بدأت روسية القيصرية تهتم بإرسال بعثاتها التبشيرية الأرثوذكسية إلى فلسطين، بعد أن كانت قد سبقتها إلى هناك البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية، والتي بدأت بالظهور فيها مع مطلع عشرينات

القرن التاسع عشر. وبدأ المبشرون الروس بشراء الأراضي، وتشييد الأبنية الروسية عليها، (مساكن للحجاج الأرثوذكس، مستشفيات، أديرة، كنائس) وترافق هذا العمل مع وصول ثلاث بعثات تبشيرية روسية منظمة إلى فلسطين، وضعت لنفسها هدف دراسة الأوضاع العامة فيها، وتقديم الدعم اللازم من أجل زيادة نفوذ الكنيسة الروسية في الأرض المقدسة، والوقوف في وجه الدعاية البروتستانتية، والكاثوليكية، المعادية للأرثوذكس فيها.

في عام ١٨٤٣ م، أرسلت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية المطران بارفيري أوسبينسكي بمهمة سرية إلى بيت المقدس تحت ستار أداء فريضة الحج، تتعلق بعمل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في بيت المقدس. وفي مطلع عام ١٨٤٧ م، وبعد ثلاثة أعوام قضاها متجولاً في بلاد الشام، أرسل بارفيري تقريراً مفصلاً إلى البطركية الروسية الأرثوذكسية، طلب فيه إرسال بعثة روحية روسية دائمة إلى بيت المقدس، تتولى خدمة المصالح الروسية في بلاد الشام، والدفاع عن حقوق الحجاج الروس، والإشراف على كافة الكنائس والأديرة الأرثوذكسية في الأرض المقدسة فلسطين.

في ١٧ شباط ١٨٤٧ م، وبناء على الاقتراح الذي تقدم به بارفيري، وصل أعضاء البعثة الروحية الأرثوذكسية الروسية التي شكلتها البطركية الروسية إلى بيت المقدس، وأوكلت رئاستها إلى المطران بارفيري نفسه، ودخل في عضويتها الراهب غوفاروف، والتلميذان كريلوف، وصيلافيوف. وفي عام ١٨٤٨ م، نقل المطران بارفيري إلى البطركية الأرثوذكسية الروسية اقتراحاً تقدم به الرحالان الروسيان نورف، وموارفيوف، خلال زيارتهما للأرض المقدسة فلسطين ينص على إنشاء مجلس عموم روسية غير الحكومي، لدعم الأرثوذكس، والأرثوذكسية في بلاد الشام، غير أن الفكرة أُجلت بعد مناقشات مطولة إلى وقت لاحق. وفي نفس الوقت باشرت البعثة الروحية الروسية، ممارسة نشاطاتها في بلاد الشام، وأقامت عام ١٨٥٢ م، داراً للطباعة في بيت المقدس، لإصدار الكتب الدينية الأرثوذكسية باللغتين العربية،

واليونانية. وتزويد المدارس الأرثوذكسية التي فتحتها البعثات التبشيرية الروسية بالكتب الدراسية العربية.

لا بد من الإشارة هنا إلى أنه، ومع مطلع خمسينات القرن التاسع عشر، أخذت المسألة الشرقية أبعاداً خطيرة جداً على مستوى السياسات التي كانت سائدة بين الدول العظمى آنذاك، وبدأت هذه الدول تعيش صراعاً دبلوماسياً بينها، لا يمكن لأحد أن يتنبأ بنتائجه. وقد وصف كارل ماركس المسألة الشرقية في تلك المرحلة قائلاً: " لقد وصلت على ما يبدوإلى درجة فقد فيها الدبلوماسيين قدرتهم على السيطرة عليها، ولم يعد باستطاعتهم استخدامها لخدمة مصالحهم وأهدافهم، أوحتى مجرد وقف تدهور الأحداث " (٣).

وأخذت التطورات والأحداث اتجاهاً معاكساً لما كانت ترغب به روسية القيصرية، وحسمت مسألة الخلاف بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، والكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، لصالح الأخيرة ودخلت روسية في حرب مع الدولة العثمانية (حرب القرم ١٨٥٣ – ١٨٥٦ م)، وانتهت بهزيمتها. وانشغلت خلالها عن مسألة الاهتمام بالأماكن المقدسة، وبعثاتها التبشيرية في فلسطين، وأصبحت دبلوماسيتها في الشرق في وضع محرج للغاية، وفي سبيل الحفاظ على الممتلكات الروسية في الأرض المقدسة فلسطين خلال الحرب، قامت الحكومة القيصرية الروسية بإنشاء المجلس الفلسطيني التابع لوزارة الخارجية وأوكلت إليه مهمة الاهتمام بإعادة إحياء العلاقات الروسية مع العرب. ومنذ ذلك التاريخ وضعت الدبلوماسية الروسية أسس المرحلة الأولى من تاريخ التبشير الروسي في بلاد الشام. وفي ظل هذه الأوضاع، حاولت الحكومة الروسية إيجاد مخرج لها، وإعادة دورها الدبلوماسي إلى المنطقة، عن طريق الاهتمام هذه المرة بما أسمته رعاية وحماية الحجاج الروس الأرثوذكس في فلسطين، بعدما أصبحت هذه الحجة المعبر الوحيد الذي يمكن منه للدبلوماسية الروسية العبور إلى المنطقة. وعادت البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس، بعد انتهاء حرب القرم عام

١٨٥٦ م برئاسة المطران بارفيري أوسبينسكي نفسه. ولكن البعثة لاقت صعوبات كبيرة جداً في إعادة ممارسة نشاطاتها في فلسطين، خلال تلك الفترة نظراً لتوسع الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية، المعادية للأرثوذكسية طيلة سنوات حرب القرم الثلاثة، على يد (أخوات رحمة السيد المسيح). و(أخوات النبي يوسف) الخ....

غير أن الحكومة الروسية كانت مصممة على إعادة اعتبارها في الشرق، وكرّست جهودها بالتنسيق مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وأمرت في عام ١٨٥٦ م بتأسيس اللجنة البحرية الروسية وافتتحت في العام التالي وكالة الجمعية الروسية للتجارة والنقل البحري في بيت المقدس، في حين راحت البعثة الروحية الروسية، بالتنسيق مع البعثات التبشيرية الروسية، توسّع من دائرة نشاطاتها في فلسطين، وتمكن المطران بارفيري أوسبينسكي من الحصول على مجموعات كبيرة من الكتب والمخطوطات القيّمة، مكتوبة باللغات العربية، واليونانية, والأثيوبية، والكروزينية، والسلافية، ولغات أخرى وإرسالها إلى روسية، حيث وضعت في أكاديمية العلوم الروسية، والمكتبة القيصرية للعلوم الإنسانية، في " سانكت بطرس بورغ ". كما بعث بارفيري بمجموعة قيّمة من الأيقونات إلى مدينة كييف، كان قد جمعها من الكنائس والأديرة المنتشرة في أنحاء بلاد الشام.

في عام ١٨٥٧ م، ازداد عدد المبشرين الأرثوذكس الروس ووصل إلى ٨٠٠ مبشراً، كما ازداد عدد الحجاج إلى حدٍ كبير، نظراً لافتتاح خط ملاحة بحري بين ميناء أوديسا على البحر الأسود، وميناء حيفا في فلسطين على البحر المتوسط. وفي عام ١٨٥٨ م أعادت روسية فتح قنصليتها في القدس، كما تم إنشاء قسم جديد في وزارة الخارجية الروسية، أصبح يعرف باسم (قسم فلسطين)، أوكلت إليه مهمة البحث عن مصادر تمويل جديدة، وتوظيفها في توسيع ودعم النفوذ السياسي والديني لروسية في بلاد الشام، وزيادة تفعيل الدور الروسي في الأرض المقدسة فلسطين على وجه الخصوص. وكانت الكنائس الروسية قد تمكنت بعد انتهاء حرب القرم وعودة البعثة

الروحية الروسية من جمع أكثر من مليون روبل، حولت عن طريق المجلس الفلسطيني الجديد، الذي أسس في بطرس بورغ إلى البعثة الروحية الروسية في فلسطين من اجل شراء الأراضي اللازمة لإقامة أبنية لاستقبال الحجاج.

وفي عام ١٨٥٩ م، تم شراء الأراضي الواقعة بين بوابة دمشق، وساحة الميدان، في بيت المقدس والتي تعرف الآن بالساحة الروسية، حيث تمكن رئيس المجلس الفلسطيني قسطنطين نيكولايفتش من تسجيل هذه الأرض باسم البعثة التبشيرية الروسية في فلسطين. وفي عام ١٨٦٠ م بدأت البعثة ببناء دير القديسة الكساندرا، ودير القديسين الثلاثة، وبناء مكون من طابقين للبعثة التبشيرية الروسية، وبيوت أخرى للمبشرين والحجاج.

في عام ١٨٦٣ – ١٨٦٥ م تولى الأرخيماندريد ليونيد (كافلين) مهمة رئاسة البعثة التبشيرية الروسية وأشرف على بناء كاتدرائية مقابل بوابة يافا ودير للرهبان وأربعة بنايات أخرى في حيفا والرملة والناصرة.

وفي عام ١٨٦٤ م وبدعم من القيصر الروسي الكساندر الثاني مباشرة، تم إنشاء اللجنة الفلسطينية في وزارة الخارجية الروسية عوضاً عن المجلس الفلسطيني، وبدأت اللجنة الفلسطينية ممارسة نشاطاتها بالتنسيق مع وزارة الخارجية الروسية لزيادة وتفعيل النفوذ الروسي في بلاد الشام بالشكل الذي يضمن المصالح والتطلعات والأهداف الروسية. وبالتالي فقد تابعت اللجنة الفلسطينية مهمة شراء الأراضي وبناء الكنائس والأديرة والمستشفيات والمدارس، ودراسة تاريخ فلسطين والمناطق المحيطة بها، وخلال هذه الفترة بالذات تمكنت البعثات الروسية من امتلاك مساحات كبيرة من الأراضي في مختلف المدن والقرى المقدسة في فلسطين وعلى مقربة من بيت لحم.

في قرية بيت جالا تمّ بناء مدرسة للبنات ومستوصف وبناء خاص للبعثة الروحية نفسها ورئيسها الأرخيماندريد أنطونين، الذي تسلم رئاسة البعثة بعد كافلين. كما تم

شراء قطعة من الأرض في جبل الزيت على مقربة من بيت المقدس، ومساحات أخرى قرب الناصرة وبريهون وأراض في بلدات المنطقة.

في عام ١٨٧١ م، قام فاسيلي نيكولايفتش خيترافو الذي كان يشغل منصباً رفيع المستوى في وزارة البحرية الروسية، ثم في وزارة المالية في سانكت بطرس بورغ، بزيارة الأرض المقدسة فلسطين اطلع خلالها على الظروف والأحوال التي كانت تعيشها الطائفة الأرثوذكسية، وما تعانيه من ضغوط قوية من قبل البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية، والدعاية الكبيرة المعادية للأرثوذكسية التي تقوم بها هذه البعثات ضد العقيدة الأرثوذكسية، فقرر أن يقوم بنفسه بإيجاد الطرائق والوسائل الكفيلة بإنقاذ الطائفة الأرثوذكسية وتخليصها من الأوضاع المؤلمة التي تعيش فيها.

نقل خيترافوانطباعاته عن هذه الأوضاع إلى الأرخيماندريد أنطونين وبعد ذلك إلى الأرخيماندريد ليونيد المعروف باسم كافلين. لكنه فوجئ وبشكل غير متوقع بنوع من التحفظ وعدم الثقة، لأن الواقع آنذاك لم يكن في الحقيقة يخدم الأهداف والتطلعات الروسية في الشرق. وكل ما فعله كافلين أنه قدم له النصيحة التالية: " لابد من أجل تصحيح أوضاع الحجاج في فلسطين والطائفة الأرثوذكسية في الشرق من ممارسة الضغوط الكبيرة على المسؤولين في بطرس بورغ ".(٤)

من ناحية أخرى، ساعدت المتغيرات الدولية في مطلع سبعينات القرن التاسع عشر، وتحسن وضع الدبلوماسية الروسية في الساحة الدولية. البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام على زيادة نشاطاتها خصوصاً بعدما تمكنت روسية القيصرية من تغيير بنود اتفاقية باريس التي وقعت عليها بعد هزيمتها في حرب القرم عام ١٨٥٦ م، وسمح لها اجتماع لندن عام ١٨٧١ م بامتلاك أسطول بحري عسكري وقواعد عسكرية بحرية على شواطئ البحر الأسود. الأمر الذي لم يؤد فقط إلى زيادة وتقوية وضمان أمن الحدود الروسية الجنوبية، بل وكذلك زاد من

إمكانية توجهها نحو بلاد الشام عن طريق البحر. وفي هذه الفترة بالذات بدأ الانبعاث الحقيقي لليقظة العربية، وظهرت حركة التحرر القومية العربية وراحت تمارس نشاطاتها على كافة الأصعدة والمستويات، وشكّلت الجمعيات السرية التي وضعت لنفسها هدف إعداد العرب، والنضال من أجل التخلص من نير الاحتلال العثماني البغيض، في وقت أخذت فيه الثورات تتفجر في دويلات البلقان ضد الحكم العثماني، والتي دفعت روسية القيصرية إلى الدخول في حرب جديدة مع الدولة العثمانية (١٨٧٧- ١٨٧٨ م) انتهت بالتوقيع على معاهدة سان استيفانو واستقلال دويلات البلقان المتحالفة مع روسية. وكان على الدولة العثمانية أن تقوم بجملة من الإصلاحات والتغيرات في الولايات المسيحية التابعة لها. كما اعترفت الدولة العثمانية فيها بحق روسية في الدفاع عن الطائفة الأرثوذكسية في الأرض المقدسة فلسطين [٥].

وقبيل انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م تمكنت روسية القيصرية في ٣١ أيار ١٨٧٨ م من عقد اتفاقية سرية مع انكلترة اعترفت فيها لروسية بالسيطرة على باطومي، وبذلك ازداد الموقف الروسي من الدولة العثمانية قوّة، وأعطى الدبلوماسية الروسية دفعاً جديداً لزيادة نشاطاتها في الولايات العثمانية. وطبيعي أن ينعكس ذلك بشكل إيجابي على وضع البعثات التبشيرية الروسية التي كانت تعمل آنذاك في بلاد الشام.

وحاولت روسية القيصرية استغلال الحركة القومية العربية لزيادة نفوذها أكثر فأكثر في المنطقة وتقوية مراكز البعثات التبشيرية الأرثوذكسية بحجة توسيع نشاط ونطاق عمل حركة التنوير، فقامت لجنة الدفاع عن الحقوق القومية العربية بتوجيه نداء إلى الشعب العربي، رحّبت فيه باستقلال دويلات البلقان عن الدولة العثمانية ودعت العرب من مسلمين ومسيحيين إلى الوحدة والتكاتف، وإعداد أنفسهم للنضال المسلح ضد الاحتلال العثماني، ورفض القوميون العرب التأثير الوحيد الجانب من قبل روسية القيصرية في بلاد الشام، عن طريق بعثاتها التبشيرية، وأعلنوا عن استعدادهم

للتعاون البنّاء مع روسية، وتلقي المساعدات الروسية لتحقيق الأهداف العربية المعلنة في الحرية والاستقلال.

بالإضافة إلى التغيرات الكبيرة التي طرأت على السياسات الدولية، لصالح روسية بشكل عام خلال سبعينات القرن التاسع عشر، بدأ يزداد عدد الموالين للسياسة الروسية الناشطة في الشرق، والمدافعين عن الأرثوذكسية داخل هرم السلطة في سانكت بطرس بورغ. وفي عام ١٨٨٠ م تم تعيين المدعي الروسي العام بوبيدا نوستسيف رئيسا للسينود الروسي المقدس (المجمع المقدس).

وفي عام ١٨٨١ م، أصبح الكساندر الثالث الذي سبق وأشرف بوبيدا نوستسيف على تربيته إمبراطوراً جديداً على روسية القيصرية. وبذلك أصبح نفوذ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يشمل حتى قمة هرم السلطة فيها، الأمر الذي أدى إلى دعم البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام كما سنرى لاحقاً.

في عام ١٨٨٠ م، قام خيترافوبزيارة أخرى للأرض المقدسة، تعرف خلالها بشكل أكبر على وضع الكنائس الأرثوذكسية المحلية، واطلع على ظروف وأوضاع الحجاج الروس الأرثوذكس، الأمر الذي دفعه إلى السعي بكل طاقاته لتأسيس جمعية تتولى الإشراف على الأماكن الأرثوذكسية المقدسة وحماية ورعاية الحجاج، وقرر بالاتفاق مع الأرخيماندريد أنطونين الذي كان يشغل منصب رئيس البعثة الروحية الروسية في فلسطين، والمعروف باسم كابوستين طرح هذه الفكرة على المسؤولين في بطرس بورغ بعد عودته إلى بطرس بورغ، في مطلع عام ١٨٨١ م، طرح خيترافوعلى وزارة الخارجية الروسية فكرة تحديد مجال صلاحيات القنصل والبعثة الروحية الروسية في القدس، وإنشاء جمعية تتولى الإشراف على الشؤون الدينية في الأرض المقدسة، فقررت الحكومة الروسية دراسة الفكرة، ومدى إمكانية تطبيقها [٦].

في أيار عام ١٨٨١ م، قام شقيقا الإمبراطور الروسي الكساندر الثالث، وهما

الكنياس سيرغي الكساندروفتش، وباڤل الكساندروفتش، وبرفقتهما الكنياس قسطنطين قسطنطينوفتش بزيارة بيت المقدس، حيث أطلعوا وعلى أرض الواقع على وضع " الروس الفلسطينيين " ونشاط البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسية فيها. وفور عودتهم إلى سانكت بطرس بورغ طرح عليهم خيترافوفكرة إنشاء جمعية روسية، تأخذ على عاتقها مسألة الإشراف التام على الشؤون الدينية الأرثوذكسية في الشرق، وتتولى رعاية وتوجيه وتمويل البعثات التبشيرية الروسية. وبالفعل فقد لقيت هذه الفكرة إعجاب شقيقي القيصر، اللذين طلبا من الحكومة القيصرية دراسة الفكرة واتخاذ الإجراءات اللازمة بخصوص ذلك.

٢ـ تأسيس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام ١٨٨٢ م ودورها في زيادة نشاط البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين):

في مطلع عام ١٨٨٢ م، كلفت الحكومة القيصرية خيترافو، بتشكيل جمعية روسية خاصة، وإعداد برنامج خاص لها ووضع أسس نظامها الداخلي. وخلال عدة أشهر تمكن خيترافوبالاعتماد على برنامج كان قد وضعه بالتعاون مع الأرخيماندريد أنطونين أثناء زيارته الأخيرة للقدس، من وضع نظام وميثاق داخلي للجمعية التي أصبحت تعرف باسم الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، أقرته الحكومة القيصرية في الثامن من آذار عام ١٨٨٢ م، ثم أُعلن عن تشكيلها في ٢١ أيار ١٨٨٢ م، وقد حصلت هذه الجمعية على حماية ورعاية بلاط القيصر الروسي، ودخل في عضويتها سبعة من أعضاء أسرة رامانوف القيصرية نفسها، وكذلك وجوه رسمية سياسية واجتماعية معروفة، بالإضافة إلى ممثلي السلطة الروحية الأرثوذكسية الروسية، ورحّالة وعلماء. (٧)

وقد تولى مهمة تنفيذ أعمال الجمعية والإشراف على نشاطاتها مجلس مكون من المدير العام الكنياس سيرغي الكساندروفتش (شقيق القيصر)، ونائبه الكاتب الروسي

المعروف فيليبوف، في حين عُين خيترافومساعداً لنائب المدير العام، بالإضافة إلى عضوية منصوروف وفيسيليسكي وتروتسكي، وعُين فان_ دير_ فليت جابياً لتحصيل الأموال، بالإضافة إلى السكريتار ستيبانوف، كما ضمت الجمعية أعداداً كبيرة من الأساتذة الجامعيين أمثال فاسيليفسكي ديمتريفسكي، تروتسكي وعلماء آثار مثل فينيفيتينوف. ومؤرخين مثل أملياتسنسكي، والطبيب الجوّال اليسيف، وصُنّف المنتسبون إلى الجمعية وفق المجموعات الثلاث التالية:

١- **أعضاء رئيسيين:** وكان على كل واحد منهم أن يقدم للجمعية مبلغ خمسة آلاف روبل مقابل حصوله على شرف العضوية الرئيسية فيها.

٢-**أعضاء عامين:** وكان على كل عضومنهم دفع مبلغ قدره ٥٠٠ روبل مقابل انتسابه إلى الجمعية، أوأن يدفع اشتراكاً سنوياً بقيمة ٢٥ روبل.

٣-**أعضاء مساعدين:** وعلى كل عضومنهم أن يدفع مبلغاً مالياً قدره ٢٠٠ روبل، أوأن يدفع اشتراكاً سنوياً بقيمة ١٠ روبلات. (٧)

وحسب النظام الداخلي للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية هذه. كان عليها أن تعمل لتحقيق الأهداف والغايات التالية:

١-تقديم المساعدات اللازمة للحجاج الأرثوذكس من روس وغيرهم، في الأرض المقدسة فلسطين.

٢-إقامة المدارس والمستشفيات وبيوت السكن اللازمة للحجاج الأرثوذكس، وتقديم المساعدات للسكان الأرثوذكس المحليين، والكنائس والأديرة، والسلطات الروحية في الأرض المقدسة فلسطين، والشرق العربي.

٣-على الجمعية البحث عن المصادر والمخطوطات التاريخية والمخطوطات، والكتب التي تتضمن معلومات حول الأماكن المقدسة، بما فيها تلك التي

تتوفر لدى بعض الأشخاص المحليين هناك، والمخطوطات والكتب الموجودة في أرشيفات الأماكن المقدسة ودراستها والتعريف بها.

٤-جمع وإعداد كافة المعلومات المتعلقة بالأماكن المقدسة في فلسطين، ونشرها والترويج لها في روسية القيصرية.

٥-تسعى الجمعية إلى امتلاك أكبر عدد ممكن من الكتب والمخطوطات، والخرائط والوثائق وما شابه ذلك، ونقلها إلى روسية والسماح بدراستها ليس فقط من قبل علماء الجمعية، بل لكل من يرغب بذلك.

٦-على الجمعية تنظيم وتمويل بعثات استكشاف وبعثات تنقيب أثري تسعى إلى جمع كافة المعلومات المتعلقة بتاريخ الأرض المقدسة. (٨)

واعتمدت الجمعية في تمويلها المالي، بالإضافة إلى ما كانت تجنيه من الأعضاء الرئيسيين والعاديين والمساعدين سواء عن طريق المبالغ التي كانوا يدفعونها مباشرة مقابل انتسابهم المباشر إليها، واشتراكاتهم السنوية على مصادر التمويل الرئيسية التالية:

١- الحكومة القيصرية: حيث كانت الحكومة تقدم لها عن طريق وزارة المالية مبلغاً قدره ٣٠ ألف روبل كل عام.

٢-التبرعات التي كانت تقدّم من قبل أعضاء السينود المقدس (المجمع المقدس).

٣-التبرعات التي كانت تجمع لصالح الجمعية في مختلف الكنائس الروسية، أثناء الاحتفالات والأعياد الدينية، داخل الإمبراطورية الروسية وقد شكلت المصدرُ الرئيسي والأهم لميزانية الجمعية. (٩)

بدأت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية نشاطاتها في بلاد الشام

(سورية وفلسطين) منذ عام ١٨٨٢ م، ووحدت جهودها مع القناصل الروس والمبشرين الأرثوذكس في هذه المناطق، وكانت أولى الأعمال التي قامت بها بتحسين الحالة الاقتصادية للحجاج الروس في الأرض المقدسة.

وخفّضت إلى حدٍ كبير تكاليف السفر من روسية إلى الأرض المقدسة وبالعكس، حيث تجمع في عام تأسيس الجمعية في مدينة بيت المقدس، ما يقرب من عشرة آلاف حاج روسي، قدمت لهم الطعام والسكن مقابل أسعار زهيدة جداً. كما أمنت لهم الرعاية الصحية، والمساعدات الطبية المجانية.

وفي نفس العام الذي شُكلت فيه الجمعية، ظهر أول عدد من المجلة الناطقة باسمها (المجلة الأرثوذكسية الفلسطينية)، التي كانت تهتم بتغطية كافة النشاطات التي تقوم بها البعثات التبشيرية الروسية على الأرض المقدسة. ومنذ تأسيس الجمعية أصبحت مهمة البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس سهلة للغاية، ولم تعد تقوم بأعمال عامة فقط كما كان الأمر في السابق وإنما أصبحت تقوم بالإضافة إلى الوظائف التي يكلفها بها السينود المقدس أوالمجلس الفلسطيني، بكل الأعمال الأخرى نيابة عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية نفسها (١١).

في عام ١٨٨٢ م افتتحت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية مدرسة للذكور في قرية المجدل، وخلال عام ١٨٨٣ م قامت بافتتاح أربع مدارس أخرى من بينها مدرسة في كفر ياسين، ومدرسة أخرى في رام الشجر.

في آب عام ١٨٨٣ م قام أعضاء جمعية أخوة مهد المسيح، وممثلو الجمعية الروحية البيضاء المقدسة، والشعب بانتخاب ثلاثة مرشحين لرئاسة بطركية القدس الأرثوذكسية، وكان من ضمنهم الأرخيماندريد نيكوديم، وفي آخر يوم من الانتخابات، وبعد صلاة قصيرة تمّ انتخاب البطرك الجديد حيث وقع الخيار على نيكوديم الذي كان يشغل منصب رئيس البعثة الروحية الأرثوذكسية لبيت المقدس لدى البطركية الأرثوذكسية الروسية في موسكو.

وفرحت الأوساط الكنسيّة، والإعلامية الروسية بانتخاب البطرك نيكوديم، وعبرّت وسائل الإعلام الروسية آنذاك عن فرح الأوساط الشعبية الروسية بهذه المناسبة قائلةً: "إن كنيسة بيت المقدس المحاصرة من كافة الاتجاهات، والمعذبة من قبل أعدائها في الداخل والخارج، تقاد أخيراً من قبل قبطان منقذ سيحافظ على سلامتها. يعتبر البطرك نيكوديم من أكثر الناس غيرة، وحماساً للكنيسة الأرثوذكسية. وفيه القدرة العالية والكفاءة الضرورية جداً لقيادة كنيسة هامة مثل بطركية بيت المقدس خصوصا وأن المستشرقين اللاتين والبروتستانت، الذين رصدوا أموالاً طائلة وحاولوا دفع المسيحيين الأرثوذكس الفقراء لتغيير عقيدتهم بالمال والغش والباطل. وهنا لابد من يدٍ قوية للقضاء على هذه المحاولات، والتخلص من تأثير هؤلاء المبشرين. كما تدعوالضرورة إلى تقديم كافة أشكال الدعم اللازم لهم من جهة روسية. ونحن على ثقة بأن البطرك نيكوديم بما يتمتع به من قدرات، سيكون المدافع الحقيقي عن حقوق المسيحيين الأرثوذكس، والكنيسة الأرثوذكسية في بيت المقدس ومهد السيد المسيح، التي بقيت ولقرون طويلة بيد المسيحيين الأرثوذكس، بالإضافة إلى بقية الأماكن المقدسة في فلسطين "(١٢).

غير أن البطرك نيكوديم، بدأ تعامله مع الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بنوع من عدم الارتياح، وعندما بدأت الجمعية نشاطاتها التعليمية في الخليل، وبيت المقدس نفسها، أصبحت هذه النشاطات سببا للاختلاف في الرأي بين البطرك نيكوديم نفسه، وبعض ممثلي المجتمع الأرثوذكسي الفلسطيني. لكن ومع الوقت تمّ التغلب على هذه الخلافات، وأعطى البطرك نيكوديم موافقته على الكثير من الأعمال والنشاطات التي قامت بها الجمعية في المجتمع الفلسطيني، بما في ذلك توسيع حركة التنوير في الجليل والسامرة. وجاءت زيارة البطرك نيكوديم إلى سانكت بطرس بورغ، وكييف في تشرين الثاني عام ١٨٨٣ م، لتزيد العلاقات الروسية مع بطركية بيت المقدس صلابة وقوة.

وفي عام ١٨٨٤ م تابعت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عملها، ونشاطاتها، في فلسطين، فأقامت مساكن عديدة في الناصرة وحيفا لاستقبال الأعداد المتزايدة، من الحجاج الأرثوذكس، في وقت بدأت تتشكل فيه في المدن الروسية جمعيات مستقلة، تهدف إلى التعرف على الأرض المقدسة وتقديم الدعم للجمعية الإمبراطورية. ومع ازدياد وتوسع الأعمال الإنشائية والإصلاح التي قامت بها الجمعية ازدادت الحاجة إلى المزيد من الأموال، فأعطى السينود المقدس في روسية إذنا خاصا للجمعية الإمبراطورية لجمع التبرعات من الكنائس الروسية في عيد انتقال السيد المسيح إلى القدس. وهكذا ظهرت في روسية حملة تبرع سنوية واسعة النطاق، أصبحت تعرف باسم " تبرعات الشعانين " نسبة إلى أحد الشعانين، والذي أصبح منذ ذلك التاريخ واحدا من أهم مصادر تمويل الجمعية (١٣).

من ناحية أخرى كانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية، والبروتستانتية قد سبقت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية إلى فلسطين كما رأينا، وبدأت منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر، بدراسة فلسطين والأماكن المقدسة فيها، ووضعت دراسات أعادت فيها ملكية الأماكن المقدسة للكاثوليك، الأمر الذي تطلب من الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بذل جهد خاص، وتأسيس ما أصبح يعرف باسم علم الاستشراق الفلسطيني. وأخذت الجمعية على عاتقها بالإضافة إلى المسائل العلمية مهمة إجراء تحريات معقدة للغاية، حول المعطيات التي كان علماء البعثات التبشيرية الغربية قد وضعوها خلال فترة وجودهم في فلسطين، وتمكنت الجمعية من الوصول إلى نتائج هامة، ووضعت الأسس الأولى لعلم الاستشراق الروسي، واستطاعت دفع أعداد كبيرة من العلماء في ذلك الوقت لدراسة الشرق العربي.

بعد أن تمكنت الجمعية من امتلاك كافة الوثائق التي عثرت عليها بخصوص فلسطين، قامت بأرشفة المخطوطات والكتب، بما في ذلك الكتب النادرة التي تم شراؤها، بالإضافة إلى الخرائط الجغرافية وأشياء قيمة أخرى، كما قامت بإجراء

بحوث علمية، قام بها العلماء الذين كانوا يرغبون بتسليط الأضـواء علـى الأمـاكن المظلمة في تاريخ الشرق. وكانت الجمعية تنشر وتوزع ما يتوصل إليه العلماء، مـن خلال ندوات كانت تعقدها للتعريف أكثر فأكثر بالأماكن المقدسة من أجل تشجيع أعداد جديدة من العلماء للمشاركة في هذه الدراسات(١٤).

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يرد في تقرير السينود المقدس في عام١٨٨٤ م بعض السطور التي تعكس الاعتقاد بأن البطرك نيكوديم سيدافع بحماس أكبر عـن الكنيسـة الأرثوذكسية التي تتعرض لمخاطر الدعايـة الكاثوليكيـة والبروتسـتانتية المعاديـة للأرثوذكسية، وقد نص التقرير على ما يلي: " في عام ١٨٨٣ م استطاعت الكنيسـة الأرثوذكسية الروسية، أن تمتلك مؤيداً لها هوالبطرك نيكوديم، الرئيس السابق لممثلية كنيسة بيت المقدس في موسكو. فقد رافقته هذه الكنيسة، وقدمت لـه الدعـم الـلازم، لاعتقادها بأنه سيقف بقوة للدفاع عن الأرثوذكسية التي تحاط في ظـل وجـوده فـي منصبه الجديد، بدعاية كاثوليكية وبروتستانتية معادية، ومن أجل نجاحه فـي مهمتـه سيجد الدعم اللازم من قبل الكنائس ذات العقيدة الأرثوذكسية الواحدة، وخصوصـا " الكنيسة الأرثوذكسية الروسية " وفي رسالته التي بعثها إلى السينود المقدس بتاريخ ٢٧ كانون الأول ١٨٨٣ م طلب البطرك نيكوديم من الكنيسة الروسية تقديـم المسـاعدة الأخوية اللازمة (١٥).

يجب الإشارة هنا إلى أن الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية المعادية للأرثوذكسـية لم تكن الوحيدة التي رأت فـي الجمعيـة الإمبراطوريـة الأرثوذكسـية الفلسـطينية العدوالقوي لها، والذي استطاع أخيراً أن يُفشل محاولاتها، التي اسـتمرت لسـنوات طويلة من أجل القضاء على النفوذ الأرثوذكسي في فلسطين. بـل وكذلـك أعضـاء جمعية أخوة المهد الأرثوذكسية اليونانية، رأوا أيضا في الجمعية الإمبراطورية خطـراً على نفوذهم وتأثيرهم على سكان فلسطين من العرب المسـيحيين، حتـى أن بعـض المندوبين الروس في الشرق لم يستطيعوا في البدايات الأولى فـهم مهمـة الجمعيـة

الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وهذا ما أعاق في الواقع عملها ونشاطاتها آنذاك. وهكذا فإن القنصل الروسي في بيت المقدس ف. أ. مكسيموف. لم يقدم الدعم لكيزموفي مهمته عندما كلفته البعثة التبشيرية الروسية في دمشق بإحصاء عدد المسيحيين الأرثوذكس في فلسطين. حتى أنه أخبر السفارة الروسية عنه وصوره بأنه رجل يمكن أن ينتج عن نشاطاته في فلسطين ظهور خلاف حقيقي مع الدولة العثمانية، وفي نهاية المطاف اضطرت الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية إلى تقديم تعهد بأن لا تقوم بأي نشاط في الأرض المقدسة فلسطين دون الحصول مسبقا على موافقة البطرك نيكوديم والسفارة الروسية في القسطنطينية، ووضعت لنفسها ميثاقاً مؤقتاً تضمن تنشيط عملها في الأرض المقدسة فقط وفيما يتعلق بعملها في روسية، أن تسعى قدر المستطاع إلى مساعدة الأرثوذكس القادمين من الأرض المقدسة فلسطين، وقبولهم في المؤسسات التعليمية الروحية الروسية، والمؤسسات التعليمية الأخرى. (١٦)

خلال هذه الفترة، قام "خيترافو" معاون رئيس الجمعية الإمبراطورية، بزيارة للأرض المقدسة فلسطين للإطلاع على وضع ونشاطات الجمعية والبعثات التبشيرية الأرثوذكسية، وإعادة تفعيل دورها التبشيري، وحول ذلك كتب البروفيسور دمترييفسكي في مخطوطته التاريخية ما يلي: " أثناء زيارتنا إلى القدس في ٢٠ كانون الأول، التقى خيترافو والقنصل الروسي في بيت المقدس، كاجيفنيكوف مع البطرك نيكوديم. وقد أطلق البطرك على خيترافواسم صديقه القديم، ولقبه بلقب ملاك السلام، وأثناء قراءة البطرك للرسالة التي بعثها رئيس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية التي سلمه إياها خيترافو. قال البطرك: " إنني أعلن من هنا دعمي للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وأرجومن الله أن يحقق لي أمنيتي بذلك ". (١٧)

وكان من أهم نتائج المحادثات التي أجراها خيترافومع البطرك نيكوديم، تقديم روسية المساعدات المالية اللازمة لبناء وترميم عدد من الكنائس في الأرض المقدسة فلسطين. كما أعطى البطرك نيكوديم لـ كوزموالموافقة على افتتاح عدد من المدارس

في بيت جالا، الرام، كفر ياسين، رام الشجر. كما وافق أيضا على افتتاح مدرسة للبنات في الناصرة، ومدرسة عالية لإعداد المدرسين، من أجل إعداد الكوادر التدريسية اللازمة للمدارس التي ستفتحها الجمعية الإمبراطورية في فلسطين.

لكن وعلى الرغم من أن البطرك نيكوديم أبدى تعاوناً كبيراً مع البعثات التبشيرية الأرثونكسية الروسية، والجمعية الإمبراطورية، واتخذ خطوات فعّالة من أجل مكافحة الدعاية الكاثوليكية والبروتستانتية، فإن كثير من المسيحيين في الشرق قد تخلوا عن العقيدة الأرثوذكسية، الأمر الذي تطلب من الجمعية تكريس المزيد من الجهد والمال. لوقف هذه الظاهرة. وفي عام ١٨٨٥ م، وبحضور أكثر من ألف حاج روسي، وضع البطرك نيكوديم حجر الأساس لبناء دير في القدس بتمويل كامل من الحكومة الروسية.

وعلى الرغم من أن الهدف المُعلن للبعثة الروحية الروسية في فلسطين، والجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، كان يقوم على أساس تقديم المساعدات اللازمة للأعداد الكبيرة من الحجاج الروس، والدفاع عن الأرثوذكس، والأرثوذكسية في الشرق، ضد الدعاية المعادية، فإن هاتين المنظمتين وقعتا في خلافات، وتعارضات مستمرة، وقد دفعهما إلى ذلك السلطة الروحية، والقنصليات الروسية في الشرق. وقد لاحظ الحجاج الروس ذلك بأنفسهم، وأخبروا الصحف بذلك في غالب الأحيان. كما ورد في ملخص أخبار الكنائس عن عام ١٨٨٥ م، معلومات تشهد على وجود مثل هذه الاعتراضات، والاحتكاكات المستمرة، بالإضافة إلى وجود خلافات وتعارضات بين البطرك نيكوديم، والكنائس الأرثوذكسية اليونانية. وهكذا فقد اتهم البطرك من قبل هذه الكنائس بالتعصب للروس فقط، لأنه أقام الصلاة في كنيسة القيامة باللغة السلافية.(١٨)

في هذه الأجواء المشحونة بالتناقضات بين الكنائس الأرثوذكسية المختلفة على

أرض فلسطين تابعت الجمعية الإمبراطورية نشاطاتها، وتمكنت في ١٣ أيلول عام ١٨٨٦ م من افتتاح مدرسة متوسطة داخلية للذكور في الناصرة، بعدما كانت مغلقة لفترة زمنية طويلة، وبدأت تشرف على مدرسة الإناث القديمة فيها. وزاد عدد مدارس الجمعية بشكل سريع، الأمر الذي تطلب أعداداً كبيرة من المدرسين من السكان المحليين، فقامت بافتتاح معهدين لإعداد المدرسين، الأول للذكور في الناصرة، والثاني للإناث في بيت جالا، على مقربة من بيت المقدس. وانعكست نجاحات الجمعية الإمبراطورية في الناصرة بشكل رئيسي في دراسات الإنكليزي بليتوم، الذي أعلن للبطريارك نيكوديم، أن الدعاية البروتستانتية في الناصرة مشلولة بالكامل بسبب النشاطات التي تقوم بها البعثات التبشيرية الروسية فيها.(١٩)

في عام ١٨٨٦ م بدأت الجمعية بإصدار مجلة أخرى، أطلق عليها اسم " أخبار الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية " أصبحت تمثل صوت المستشرقين الروس، الذين تولوا دراسة بلاد الشام، ومصر والجزيرة العربية، غطت كافة الأعمال العلمية التي قاموا بها، والنتائج التي توصلوا إليها، كما قامت الجمعية في نفس العام، بمساعدة الدكتور الرحال يليسيف، الذي بدأ بدراسة الطرق التي يسلكها الحجاج الروس إلى الأرض المقدسة فلسطين عن طريق القفقاس، وآسية الصغرى. حيث تمكن من إنجاز عدد من الأبحاث الأنتربولوجية والكشف عن بعض المواقع الأثرية، قامت الجمعية بطباعتها ونشر نتائج كافة الاكتشافات التي توصل إليها. وفي مقطع من إحدى الرسائل التي بعث بها الرحالة الدكتور يليسيف يصف معاملة السكان المحليين له على النحو التالي: " في جميع مدن الشرق بدءاً من القسطنطينية وانتهاء بقرى الصحراء العربية تغيرت علاقة المسلمين بالروس نحو الأفضل، وأصبح اسم الروس أو اسم الموسكوبيين كما يسموننا في الشرق مجالاً للاحترام والفخار ".(٢٠)

في عام ١٨٨٧ م، عادت الخلافات للظهور مرة أخرى، بين الكنائس الأرثوذكسية على الأرض المقدسة فلسطين، وتعكرت الأحوال الداخلية لأخوة المهد، وكتبت مجلة

أخبار الكنائس في التقرير المفصل الذي نشرته على صفحاتها عن حياة الشرق الأرثوذكسي ما يلي: " اضطر بطرك القدس نيكوديم، إلى المواجهة مع أعدائه الداخليين، وهؤلاء الأعداء على ما يبدوهم أعضاء جمعية أخوة المهد المقدس الذين عادوا إلى وضعهم السابق أوبشكل أدق، الذين عادوا إلى الفوضى، والذين يرون استمرار الصراع مع مثل هؤلاء الأعداء أزعج البطرك، وأدخل إلى قلبه الملل، ولم يجد لحظة واحدة للراحة والهدوء في أي من الأديرة الفلسطينية "(٢١). وتضيف المجلة: "أن البطرك نيكوديم، ومنذ بداية ممارسته للسلطة الروحية دخل في صراع حاد مع هؤلاء الفوضويين، وما يزال يخوض صراعه معهم بعناد، وبشكل مستمر، واستطاع أن يحقق نتائج مرضية جداً إذا ما أخذنا بالحسبان من جهة قِدَم وحجم الحقد، ومن جهة ثانية قصر الوقت " ٣ سنوات " وبفضل المنح المالية التي قدمت، انخفضت ديون البطركية إلى ٥ ملايين روبل، كما تم استعادة كل ما بيع أورُهن من أملاك البطركية، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي منيت بها عن طريق أخوة المهد المقدس. كما تم أيضا تغيير المسؤولين المقصرين، الذين سرقوا الكثير من أملاك وأموال الكنيسة، واستبدلوا بمسؤولين صادقين والأهم من ذلك فقد تم استبعاد الفوضويين، ووضع نظام مراقبة شديدة في إدارة المؤسسة المالية، وحولت الإدارة المالية إلى إدارة جماعية ولم ينس نيكوديم أن يقوم بتمويل وبناء عدد من الكنائس والأديرة، وافتتاح ما يقرب من ١٥٠ مدرسة للأطفال، وبهذا الشكل يكون قد تمكن من إعادة الكثير من الأمور إلى نصابها " (٢٢).

في عام ١٨٨٨ م، اتهم سينود كنيسة القدس، البطرك نيكوديم بدفع البطركية إلى أزمة اقتصادية. وفي ١٧ شباط من نفس العام، أثبت البطرك في خطاب جوابي ألقاه في الكافدرا, ردّ على الاتهام وقال بأنه استطاع أن يجعل الحالة الاقتصادية للبطركية في وضع قوي وحسن للغاية، مقارنة بما كانت عليه قبل تسلمه السلطة الروحية فيها، وأشار إلى أن المساعدات التي قُدمت من قبل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ساعدت

إلى حد كبير. وقال أنه وبفضل المساعدة التي قدمها أخوة المهد المقدس الموجودين على الأراضي الروسية، تمكنت البطركية من تمويل وبناء الكثير من المدارس والأديرة وتسديد ديون بطركية القدس،وذكر السينود بالنتائج الممتازة التي حققها أثناء زيارته إلى سانكت بطرس بورغ. وما يهمنا هنا هوالقسم الثاني من الكلمة التي ألقاها البطرك نيكوديم، حيث أجاب على الاتهامات الموجهة ضده بأنه أقدم على بيع الأماكن المقدسة للروس، وفضلّهم على بقية ممثلي العالم الأرثوذكسي الآخرين. إن علاقتنا مع بقية الكنائس الأرثوذكسية الأخرى في العالم، وعلاقتنا مع الروس لم تتغير عن العلاقة التي كانت قائمة معهم في العهود السابقة، والروس أقارب لنا بالعقيدة والمحبة، وعلاقتنا معهم علاقة أخوية، بمعنى محبة وثقة بالأرثوذكسية. بالإضافة إلى ذلك كله، روسية تقدم لنا المساعدات المالية التي نحن بأمس الحاجة إليها الآن، ومن روسية تأتينا النسبة الكبرى من مصادر دخلنا، والأماكن المقدسة تأخذ القسم الأعظم من دخلها من روسية، وروسية هي التي تقوم بأعمال الإصلاح المستمرة، والترميم فيها. وآلاف الحجاج الروس الذين يزورون كنيسة المهد، يقدمون الكثير من التبرعات، والحكومة الروسية كانت، وما تزال إلى الآن تقوم بمهمة حمايتنا وحماية أماكننا المقدسة في فلسطين، وبفضل روسية نحن نمتلك كنيستي المهد والقيامة، ولا نقدم لها مقابل ذلك سوى الصلوات والدعاء، لذلك فإن من يقف ضد ذلك فإنه في الحقيقة يسعى إلى إلحاق الأذى بأماكننا المقدسة ". (٢٣)

بهذا الشكل أثبت البطرك نيكوديم عدم صحة الاتهامات التي وُجهت إليه من قبل سينود القدس، وأعلن صراحةً أن روسية قدمت الكثير، الكثير من الخدمات للأرض المقدسة، ولولا مساعدتها ودعمها، لعانت البطركية الكثير من المصاعب والمشاكل من جهة أعدائها الذين وضعوا لأنفسهم هدف محاربة الأرثوذكسية. غير أن الخلافات المستمرة، والصراع الداخلي بين أخوة المهد المقدس لم تتوقف وأدّت في نهاية المطاف إلى محاولة اغتيال البطرك نيكوديم في ١٩ آذار عام ١٨٨٨ م، في دير

كيراسيم في الأردن. وخلال محاولة الاغتيال هذه، كان محاطاً بعـــدد مـــن الحجـــاج الروس الذين حاولوا التخفيف عنه قدر المستطاع, وكانوا السبب المباشر في نجاته كما تقول المصـادر الروسية.

ورداً على تعاطف السينود المقدس التابع للكنيســـة الأرثوذكســـية فـــي موســـكو، والمصلين والعاملين في كنيسة السينود وحمدهم لله على نجاة البطرك نيكوديم، وجّــه نيكوديم إلى السينود الروسي رسالة شكره فيها على تعاطفه معه في المحنة التي مـــرّ بها. (٢٤)

وفي عامي ١٨٨٨ – ١٨٨٩ م قضى البطرك نيكوديم آخر أيام رئاسته في السلطة الروحية في بيت المقدس، وتخلى عن منصب البطركية بعدمـــا اقتنـــع فـــي داخلـــه بضرورة ذلك في عام ١٨٩٠ م، وبذلك فقدت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية أكبر مؤيد لها في الشرق العربي عبر تاريخ نشاطها فـــي الأرض المقدســـة. ومـــن المستحسن هنا أن نذكر لقاء الرسام الشهير فيليشاكين مـــع البطـــرك نيكوديـــم بعـــد استقالته، حيث أعرب له فيليشاكين عن دهشته لعدم السماح لرجال الدين الأرثوذكـــس الروس بإقامة الصلوات في الكنائس والأديرة الفلسطينية، فأجابه نيكوديم بأن مشـــاركة أي أرخيماندريد أوقسيس روسي في أية صلاة تقام في كنيسة القيامة، أو أيـــة كنيســـة أخرى ستؤدي بالضرورة إلى حملة احتجاج عارمة من جانب رجال الدين الأرثوذكس اليونانيين. (٢٥)

في حديثنا عن البعثات التبشيرية الروسية، ونشـــاطات الجمعيـــة الإمبراطوريـــة الأرثوذكسية الفلسطينية، لابد لنا من تسليط الضوء على نشاط الأرخيماندريد أنطونيـــن المعروف باسم (كابوستين) أحد أشهر المبشرين الروس في الأرض المقدسة فلسـطين، والذي كان يترأس البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس، بما في ذلك بنـــاء ديـــر قيامة السيد المسيح على جبل ليون. وهذه مثلاً شهادة القسيس د. ل. فيكشيرسكي الذي

قال: " قبل أن أبدأ بتدوين ووصف الأبنية التي بناها الأرخيماندريد أنطونين يجب عليّ أن أعلن للملأ اعتزازي وفخري بالأرخيماندريد الروسي أنطونين: هذا الرجل الذكي الذي قدم الكثير والكثير من الخدمات للكنيسة الروسية والمصالح الروسية في الأملاك المقدسة لقد قدم كل ما استطاع تقديمه، وسيبقى اسمه خالداً لقرون طويلة، إنه العالم الأثري المؤمن، والمتمكن الذي يتقن عدة لغات أجنبية. (٢٦)

ولم يكن دير جبل ليون بالطبع البناء الوحيد الذي بني بفضل جهود أنطونين، وبتمويل من البعثة الروحية الروسية التي كان يقودها، وبمشاركة الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية قام ببناء العديد من الأبنية والأديرة، وهنا سنحاول تعداد أهم المنشآت التي أقامها: في القدس تمّ بناء بيت رائع، والكنيسة الثلاثية، ودير المعذبة الكساندرا، وأربعة أبنية منها مستشفى للنساء وآخر للذكور وبناءين كبيرين خصص أحدهما مكاناً لإقامة البعثة الروحية. وفي جثسيماني دير القديسة مريم المجدلية، وفي بلدة قانا الجليلية دير القيامة وبرج ناقوس ضخم وفي الناصرة مركز للبحوث والدراسات ومدرسة للبنات ومستوصف وروضة أطفال، وفي يافا وعلى طريق القدس بناءين لاستقبال الحجاج الروس، ومعبد القديسين بطرس وبولص، ودير في الخليل وفي جبل الكرمل دير الرسول إيليا، وفي عين كارم دير للنساء، بالإضافة إلى ذلك فقد افتتحت في أنحاء فلسطين المدارس والمستوصفات والمستشفيات، كما بُنيت أعداد كبيرة من البيوت اللازمة لاستقبال الحجاج، وزودت بمختلف وسائل الراحة. (٢٧)

وأثارت أوضاع الأرثوذكسية، وأوضاع البعثات التبشيرية الروسية في فلسطين بعد عام ١٨٩٠ م اهتمام وقلق الشعب الروسي والحكومة في آن معاً، وأشارت التقارير الواردة من الأرض المقدسة إلى أنه يوجد لدى المبشرين الكاثوليك والبروتستانت إمكانات مادية هائلة تدفعهم للتحرك والعمل بنشاط كبير ضد الأرثوذكسية، في وقت لا تمتلك فيه البعثات الأرثوذكسية الروسية سوى القليل من الوسائط المادية اللازمة لها.

وهذا ما يهدد بالفعل وضع الأرثوذكسية على الأرض المقدسة، والذي يمكن أن يقتصر مع الزمن وجودها حصراً في أعضاء جمعية أخوة المهد لا أكثر، فقررت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية تفعيل وزيادة نشاطاتها في فلسطين، وفي ظل هذه الظروف لعبت دوراً كبيراً في الحفاظ على الأرثوذكسية، ودعمها في فلسطين. وفي كلمته التي ألقاها أمام إدارة الجمعية أثناء اجتماع عقدته في نيسان عام ١٨٩٠ م، أشار القسيس سيميون بكروفسكي إلى ما يلي: " إن مصير الأرثوذكسية في الأرض المقدسة في الوقت الحاضر مرتبط فقط ببلادنا التي تعمل من خلال الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية، والتي تحقق الكثير من النجاحات بالرغم من الصعوبات الكبيرة التي تواجهها، وبالتالي لا بد لنا من تجميع قوانا، وعدم الخجل من إمكاناتنا المتواضعة لإنجاز هذه المهمة المقدسة، ودعم الأرثوذكسية في الأرض المقدسة، خصوصا وأننا نرى ما يفعله رؤساء البعثة الروحية الروسية في القدس الأرخيماندريد بارفيري، والأرخيماندريد أنطونين في سبيل خدمة الأرثوذكسية، على الرغم من قلة المساعدات المالية التي تقدم لهما, وبالرغم من عدم تقديم الدبلوماسية الروسية على الغالب للمساعدات اللازمة لهم على عكس ما تفعله الدبلوماسية الإنكليزية، والأمريكية والفرنسية مع بعثاتها البروتستانتية والكاثوليكية " (٢٨).

لابد من الإشارة هنا إلى أن الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية كانت قد ألغت في آذار عام ١٨٨٩ م لجنة فلسطين، وتولت كافة المهام التي كانت تقوم بها، كما وضعت يدها على أرصدتها المالية وضمتها إلى ميزانيتها، وأصبحت تشرف على كافة المدارس الأرثوذكسية الروسية في فلسطين. وكانت مدرسة الناصرة الداخلية من أفضل المدارس، وقد تخرجت منها الدفعة الأولى عام ١٨٩٠ م فاتخذت الجمعية الإمبراطورية قراراً بإرسال الطلاب الخريجين الأوائل إلى روسية لمتابعة التحصيل العالي في أكاديمية كييف الروحية، وأصبح ذلك تقليداً متبعاً منذ ذلك التاريخ. وفي عام ١٨٩٣ م بدأت الدفعة الأولى من خريجي أكاديمية كييف الروحية، بعد عودتها إلى

فلسطين بالعمل في المؤسسات التعليمية والمدارس التابعة للجمعية الإمبراطورية، وقد ورد في مجلة أخبار الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية عدد نيسان الخبر التالي: " بدأ خريجو أكاديمية كييف الروحية من السكان المحليين (سوريين وفلسطينيين) بالعمل معنا الآن في مدارس الجمعية ". (٢٩)

وقد لعب هؤلاء الخريجون دوراً كبيراً في رفع مستوى التعليم في مدارس الجمعية، وأعطوا الجمعية دفعاً جديداً لتوسيع نشاطاتها، فقامت بافتتاح سبع مدارس جديدة في منطقة الخليل كان من ضمنها مدرسة في معلولا، وأخرى في كفر كيتي، وثالثة على مقربة من الناصرة، في حين افتتحت المدارس الأخرى في جبال الجليل وحيفا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. وقد أشارت الجمعية في جلستها التي عقدتها في ١٩ كانون الأول عام ١٨٩٣ م، إلى أن عدد التلاميذ الذين يدرسون في ١٧ مدرسة تابعة للجمعية في منطقة الجليل وحدها وصل إلى ١٥٠٠ تلميذ.

غير أن الأوضاع المحلية في فلسطين بعد عام ١٨٩٥ م لم تعد في صالح البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية، بسبب عدم تعاون بطركية القدس معها، فركزت الجمعية نشاطاتها في منطقة الجليل وقطاع بلدة الناصرة التي كانت تقع خارج نطاق سلطة بطركية القدس الأرثوذكسية وقامت بافتتاح مدرستين جديدتين، وبذلك وصل عدد المدارس في الجليل إلى ١٩ مدرسة، لكنها لم تستطع ممارسة نشاطاتها في منطقة نابلس، على الرغم من وجود حاجة ماسة لافتتاح المدارس فيها وبالتالي بقيت المدارس الروسية في هذه المنطقة في مستوى متدني وعددها قليل جداً.(٣٠)

وقد ورد في التقرير الذي أعدته الجمعية عن نشاطاتها عام ١٨٩٦ م ما يلي: "ماذا فعلنا نحن الروس؟ لقد ألقينا بأنفسنا في الماء من أجل اخوتنا، وهذا أمر صعب جداً عندما يكون الماء عميقاً ويقف على الشاطئ أخوة آخرين يدفعوننا نحو الوراء ". (٣١)

وعلى الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهتها الجمعية في تلك المرحلة، فقد

قامت بافتتاح خمسة مدارس جديدة في الجليل، بالإضافة إلى معهد في بيت جالا عوضاً عن المدرسة النسائية، وذلك لتخريج المدرِّسات، وقد أصبح هذا المعهد خلال فترة قصيرة من أهم المعاهد بالنسبة للسكان السوريين من النساء، حيث بدأت خريجاته ترفد المدارس السورية التابعة للجمعية بالكوادر التعليمية اللازمة. وعندما فتحت الجمعية مدرسة جديدة لها في القدس عام ١٨٩٨ م، لتعليم التلاميذ الأرثوذكس من سكان المدينة المقدسة، قاطعها السكان المحليّون، ولم يقدموا لها الدعم اللازم. وفي عام ١٩٠٠ م، حولت الجمعية مدرسة الناصرة الداخلية للذكور إلى مركز للأبحاث والدراسات ويقول البروفسور نيتسكوف. ن. م. الذي قدم إلى فلسطين في عام ١٨٩٩م، من أجل إجراء التفتيش على المدارس الروسية التابعة للجمعية الإمبراطورية واصفاً العلاقات التي كانت سائدة بين بطركية القدس الأرثوذكسية، ومدارس الجمعية كما يلي:

"تتعامل السلطة الروحية العليا في فلسطين بنوع من عدم الاهتمام مع المدارس الروسية التي بنتها الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية. وفي نابلس سمعت عبارات من قبل ممثلي السلطات الروحية المحلية. مثل " إن مدارس الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية توجد بشكل مستقل، وليست لنا بها أية علاقة على الإطلاق " (٣٢) ونظراً لهذه الأوضاع غير المرضية اضطرت الجمعية الإمبراطورية إلى تخفيف نشاطها في فلسطين، واقتصرت مهمتها هناك على مسألة تقديم المساعدات المالية للمدارس التي أقامتها، والإشراف عليها، في حين ركزت نشاطها في هذه المرحلة على سورية كما سنرى لاحقاً.

بقي لنا أن نشير إلى ما أوردته المصادر الروسية إلى أن معاملة المدرسين في المدارس الروسية التابعة للجمعية الإمبراطورية اختلفت إلى حد كبير عن المعاملة التي كانت تجري في المدارس التابعة للبعثات التبفيرية الكاثوليكية، والبروتستانتية. كما اختلفت أهدافها عن أهداف التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي. كانت مهمة

المدارس الغربية أن تجبر التلميذ العربي على سماع كل شيء، والأخذ به. في حين كانت مهمة مدارسنا الروسية أن تجعل منهم أناساً مثقفين محببين للخير ولأوطانهم. كما كانت المدارس الغربية تسعى إلى التبشير بعقائدها الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية وسط السكان العرب المسلمين.في حين لم تفعل المدارس الروسية الأرثوذكسية ذلك على الإطلاق، وحتى أنها كانت تدرس تلاميذها تاريخ ظهور الإسلام على الأراضي الروسية، والعلاقات الطيبة مع العرب التي بدأت منذ القرن العاشر الميلادي (٣٣).

٣ـ الدراسات والتنقيبات الأثرية والبحوث العلمية التي قامت بها الجمعية في جنوب بلاد الشام (فلسطين):

إلى جانب حركة التنوير التي قامت بها الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية منذ تأسيسها، كانت الأعمال والبحوث العلمية أحد أهم توجهاتها واهتماماتها، حيث شارك فيها مشاركة فعالة أعظم علماء روسية خلال تلك الفترة من مستشرقين وفنانين وعلماء آثار، بالإضافة إلى عدد من المؤرخين الدينيين. كما أشرفت الجمعية على إعداد وتمويل البعثات العلمية إلى بلاد الشام، وقامت بأعمال التنقيب الأثري في بيت المقدس، وأشرفت على مناقشات العلماء الروس الذين قاموا برحلات إلى مناطق الشرق بمهمات خاصة، للبحث عن المخطوطات الشرقية واليونانية، وتمكنت الجمعية أيضاً من جمع وامتلاك التحف الأثرية والمخطوطات المسيحية الشرقية. (٣٤)

ووجدت أعمال البحث العلمي التي أشرفت عليها الجمعية الإمبراطورية انعكاساً قوياً لها في المطبوعات التي أصدرتها ونشرتها، حيث قد وضعت في أولى درجات سلم أولوياتها مسألة جمع وطباعة كل المصادر التي تحصل عليها، والنتائج التي يتم التوصل إليها حول الأرض المقدسة (فلسطين) سواء في روسية أوفي الغرب، والمتصل بماضي هذه الأرض أوحاضرها وتقييم البحوث والنتائج. وقد نالت

المعلومات العلمية القيمة التي نشرتها الجمعية إعجاب العديد من الباحثين والمستشرقين الذين يدرسون تاريخ الأرض المقدسة.

خلال فترة قصيرة من الزمن، تمكنت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية من جمع وطباعة نفائس المصادر التاريخية المرتبطة بالأرض المقدسة، بدءاً من القرن الخامس عشر. وأصدرت المجلة الدورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وقدمت معلومات مستفيضة عن آثار وطبوغرافية الأرض المقدسة ومناطقها الرئيسية، ورحلات الحجاج الروس واليونانيين، والحجاج الغربيين، مع شروح قيمة وهامة عن فلسطين وجيولوجيتها وتاريخ كنائسها وعادات وتقاليد شعبها والمخطوطات المدونة باللغات العربية واليونانية والكروزينية، بالإضافة إلى المخطوطات الأرمنية. وقد جمعت الجمعية كل هذه المعلومات والاكتشافات العلمية ووضعتها في ٥٢ مجلداً. كما قامت بطبع مجلدات أخرى عرّفت جيدا بتاريخ مصر وسيناء، وكذلك الشرق اليوناني القديم، بالإضافة إلى جمع أعداد كبيرة من المخطوطات القديمة التي كانت في مكاتب منطقة الشرق العربي.(٣٥)

من جهة ثانية، قام علماء الجمعية الإمبراطورية بالاطلاع على كافة المطبوعات والمنشورات التي أصدرتها مجموعات علماء الاستشراق من الغربيين، الذين استخدموا في دراساتهم مصادر قديمة جداً وسبقوا المستشرقين الروس إلى دراسة الأرض المقدسة (فلسطين)، فتبين لهم أن النتائج التي يعرضها المستشرقون الغربيون في الغالب غير صحيحة، وسُخِرت ودُوِّنت بالشكل الذي يخدم مصالحهم وتطلعاتهم لا أكثر، وبالتالي فقد قام المستشرقون الروس من علماء الجمعية بإعادة دراسة الأرض المقدسة (فلسطين) دراسة جديدة ومتكاملة، تمكنوا خلالها من رفض وتكذيب الكثير من الدراسات والنتائج التي وضعها علماء الاستشراق من الغربيين، كما قدمت الجمعية خدمة جيدة لعلم التاريخ، عندما أشرفت على جمع وإعداد وإصدار أكبر مجموعة دراسات حول أقدم نشاطات بعثات الحج إلى الأرض المقدسة (فلسطين) ليس

فقط عن مرحلة ما بعد القرن الخامس عشر بل وكذلك حول فترات تعود إلى العهد البيزنطي والسلافي، وحتى الفترة اللاتينية القديمة. وقد اعتمد علماء الجمعية في دراساتهم هذه على مخطوطات دانيال، بعد أن تمكنوا من جمع أقسام منها كانت مفقودة، وقام م. أ. فينيفتينوفا من تحقيقها وطباعتها على نفقة الجمعية ويعتبر الإحصاء الذي تضمنته إحدى المخطوطات والذي يعود إلى عام ١٤٩٦ من أفضل الإحصاءات المتعلقة بالحجاج إلى بيت المقدس على الإطلاق.

إلى جانب نشاطات الطباعة والنشر قامت الجمعية الفلسطينية الأرثونكسية بتنظيم وإرسال بعثات أثرية قامت بأعمال التنقيب في الأرض المقدسة واستخدمت كل الإمكانات المتوفرة للحصول على اللقى الأثرية وامتلاكها، بالإضافة إلى شراء كميات كبيرة من المخطوطات التاريخية (٣٦).

تُعدّ مسألة شراء الإنجيل الأثري واحدة من أهم المهام والمسائل التي سعت الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية للقيام بها. وقد كلف المسؤول الأول في الجمعية عن البحث والتنقيب الأثري بشراء " المكان الروسي " في القدس القريب من كنيسة القيامة. هذا المكان الذي كان يسمى في السابق " ديباتا " وكان دائماً يلفت أنظار علماء الآثار الذين زاروا فلسطين أمثال بيروتي، كونديير، م فيفورز، توبلير روبينزون، سيب، بروف، اليسنيتسكي . ومنذ عام ١٨٥٨ م، كان المجلس الفلسطيني يشرف على " ديباتا " وأصبح يعرف منذ ذلك التاريخ بالمكان الروسي.

نتج عن أعمال التنقيب الأثري في منطقة " المكان الروسي " اكتشاف أعمدة بازلتية تعود إلى العهد البيزنطي، وقد تطلبت عملية إعادة ترميمها إنشاء بناء لتغطيتها وحمايتها من المطار والعوامل الجوية الأخرى. على الرغم من أن الجمعية لاقت صعوبات كبرى في البداية، إلا أنها تمكنت بطريقتها الخاصة من تجاوزها، وفي موقع الحفر، أقامت الجمعية فناءاً واسعاً للحجاج الروس الراغبين بحضور الصلوات التي

تقام في كنيسة القيامة، ثم أُخذ القسم الأعظم من هــذا الفنــاء لبنــاء ديــر القديــس الكساندرنيفيسكي فيما بعد. (٣٧)

في أيلول عام ١٨٨٧ م، وبمناسبة ذكرى اليوم الذي أمرت فيه الإمبراطورة هلينة عام ٣٣٩م ببناء أول دير مسيحي في القدس، وضعت الجمعية الأرثوذكسية حجر الأساس لأول منشأة لها في القدس. وفي عام ١٨٩٦ م، كانت الكنيسة المسماة باسم القديس الكساندرنيفيسكي قد بنيت. وبهذا الشكل يكون مكان التنقيب الأثري الروسي قد أُغلق. كما قامت الجمعية بإجراء عمليات تنقيب أثرية في تلة جبل ليون فــي مكــان قريب جداً من القدس، وشاركت أيضاً في بعثة التنقيب التي كانت تعمل فــي " بيــت شعر " والمسماة على الغالب بيت زاهر الواقعة في منتصف الطريــق بيــن القــدس والخليل، وهنا تمّ العثور على بقايا كنيسة قديمة جداً أرضها من الموزاييــك، وعليــها بقايا صور، آدميين ملتصقي الرأس وكأنهما يقبلان بعضهما البعــض. وقــد أعطــت عملية العثور على هذه الأطلال الأساس للاعتقاد بأن بيت زاهر، هو المكــان الــذي التقت وتصافحت فيه الأمّان " أم الرب واليصابات " وهذا ما يتوافق مع ما ورد فــي القصص الدينية المسيحية " مريم القادمة من الناصرة الجليلية، تســير عــبر الجبــال وتدخل بيت زاهر وتقبل اليصابات ".(٣٨)

وبناء على طلب الجمعية الإمبراطورية، قام المسؤول عن الضرائب في فلســطين كونزادسنيك، والأرخيماندريد أنطونين المعروف باسم (كابوســتين) بمتابعــة أعمــال التنقيب التي كان الأرخيماندريد أنطونين قد بدأ بها عام ١٨٦٩ م بالقرب من مدينة يافا على طريق القدس، وفي إحدى زوايا أحد البساتين تمّ العثور على مدفن تحت الأرض وموزاييك رائعة أكد على أن هذا البستان يعد المدفن الحقيقي المعمّد من قبل القديــس بطرس. وخلال التنقيبات التي أجريت في بريهون تم العثور على أديرة مهدمة تعــود إلى القرن السادس الميلادي وحجر بازلتي عليه نقوش وكتابات وأخيراً فــي تيميريــا وعلى شاطئ بحر الجليل وخلال بناء مسكن للحجاج في القســم المخصــص للبعثــة

وبمحض الصدفة تم العثور على أساس قديم بشكل حسب رأي البروفسور روستوفتسف الذي كان يترأس عملية التنقيب يعود إلى بقايا مدينة قديمة تعود إلى عهد هيرودوس أنتيباس.

واستغلت الجمعية الامبراطورية كل الإمكانات المتاحة لها من أجل امتلاك أكبر كمية ممكنة من اللقى الأثرية في فلسطين، والإشراف على الأراضي التي وجدت فيها، وكانت ترسل بشكل دائم بعثات من العلماء لشراء الأوابد الأثرية الثمينة، والسهلة النقل والحمل، والمخطوطات والبحوث المكتوبة ونقلها إلى روسية. وفي عام ١٨٨٢م قدمت المساعدات المادية اللازمة لتشكيل بعثة أثرية وعلمية برئاسة البروفسور أ.أتساغاريللي إلى سيناء وبيت المقدس، لدراسة المخطوطات الكروزينية والآثار القديمة التي ما تزال قائمة في هذه الأماكن، حيث دونت البعثة بعد إنجاز مهمتها النتائج التي توصلت إليها في العمل الكبير الذي أعده البروفسور تساغاريللي، والذي أسماه "الآثار الكرورينية القديمة في الأرض المقدسة وسيناء"(٣٩)

٤ـ نشاط الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في شمال بلاد الشام (سورية):

خلال فترة وجود البطرك سيرافيم على رأس السلطة الروحية في بطركية أنطاكية وسائر المشرق (١٨١٣-١٨٢٣)م، وجدت في دمشق مدرسة صغيرة للذكور، اقتصر التعليم فيها على دراسة "قوانين الرب" واستمر نشاط هذه المدرسة خلال فترة تولي البطرك ميفودي (١٨٢٣-١٨٥٠)م حتى عام ١٨٣٢م، حيث تسلم ابراهيم باشا الحكم في بلاد الشام، وأعطى للمسيحيين فيها حرية ممارسة عقائدهم الدينية. وخلال هذه الفترة عيّن ابراهيم باشا بحري بك سكريتاراً له، والذي كان ينتمي إلى المذهب الكاثوليكي اليوناني. وبفضل قوة بحري بك ومساعدة القنصلية الفرنسية تمكنت الجمعية اليونانية الكاثوليكية من شراء قطعة من الأرض في دمشق، أقامت عليها بناء مدرسة وكنيسة، ثم افتتحت عدداً من المدارس الكاثوليكية اليونانية في دمشق. وبعد

فترة وجيزة قامت الجمعية أيضاً بافتتاح مدارس جديدة أخرى مستغلة التسامح الديني الكبير الذي أبداه ابراهيم باشا، وبدأت أعدادٌ كبيرة من الكاثوليك اليونانيين بزيارة بلاد الشام، وخلال زمن بسيط بدأ أولاد الطائفة الأرثوذكسية يرسلون أولادهم إلى المدارس الكاثوليكية، حيث كانت تتم تربيتهم في أجواء العقيدة الكاثوليكية.

ولم يكن بطرك انطاكية وسائر المشرق ميفودي قادراً على تحمل مثل هذا الوضع، فطلب المساعدة من روسية في وقت أحبَّ فيه العقيدة الأرثوذكسية وفهم أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه في الصراع مع الدعاية الكاثوليكية المضادة للأرثوذكسية، وقام ضمن حدود الإمكانات المتوفرة لديه بافتتاح المدارس الشعبية. في عام ١٨٤٣م، عندما كان المستشرق الروسي والراهب المعروف بارفيري أوسبينسكي يقوم بزيارة لدمشق، طلب منه البطرك ميفودي لفت أنظار السينود الروسي المقدس إلى الحاجة الملحّة لبطركية انطاكية وسائر المشرق، لافتتاح المدارس الأرثوذكسية في دمشق، بيروت، حماه، حمص وأضنة، وذلك من أجل مواجهة المد التبشيري الكاثوليكي والبروتستانتي على أن يقوم المسيحيون الأرثوذكس العرب بإنشاء الأبنية اللازمة لذلك بتمويل من السينود الروسي المقدس.

تلبية للنداء الذي وجهه ميفودي بطريارك أنطاكية وسائر المشرق، سمحت الحكومة القيصرية الروسية لممثلي البطركية بزيارة روسية، وجمع التبرعات لدعم الأرثوذكسية في دمشق. وخلال فترة قصيرة تمكن البطرك ميفودي من الحصول على المساعدات المادية، وفي عام ١٨٤٦م. افتتحت مدرسة أرثوذكسية للذكور على مقربة من بطركية أنطاكية، درست فيها العقيدة المسيحية الأرثوذكسية، واللغة العربية، واللغات اليونانية، والتركية والإيطالية، وكانت روسية ترسل كل عام مبلغ ألف روبل لتغطية نفقات هذه المدرسة، ومنذ ذلك التاريخ بدأت المساعدات المالية الروسية تصل إلى بطركية أنطاكية وسائر المشرق، وخلال استقبال بطرك روسية ديروفي، للبطرك ميفودي أثناء زيارة الأخير لروسية، قدمت البطركية الروسية له المساعدات المالية

اللازمة لبناء مدرسة للبنات في دمشق، أشرفت عليها بعد افتتاحها إحدى راهبات ديـو صيدنايا المعروف جيداً في سورية. كما قامت البطركية الروسية بوضع مبلغ كبير من المال في البنك الروسي، ورصدت فوائده السنوية لتمويل المدارس الأرثوذكسية التابعة لبطركية أنطاكية وسائر المشرق في دمشق.

وفهم رئيس السلطة الروحية في الكنيسة الأرثوذكسـية الروسـية التـي أرسـلها المبشرون الروس في دمشق، أنه ومن أجل ضمان تطوّر ناجح للمدارس الأرثوذكسية في سورية، لا بد من تأليف وطباعة الكتب الدراسية باللغة العربية، غير أن الأمـوال اللازمة لتغطية نفقات الطباعة، وبناء مطبعة في دمشق لم تكن متوفرة لدى السـلطة الروحية الأرثوذكسية في سورية، لذلك كلفت الكنيسة الروسية بارفيري أوسبينسـكي بتأمين المبلغ اللازم وقام بارفيري نفسه بتجهيز دار لطباعة الكتب باللغـة العربيـة، واللغة اليونانية في عام ١٨٥٣م، وفي شباط عام ١٨٥٤م أصدرت هـذه الـدار أول كتابين دراسيين باللغة العربية(٤٠).

بعد تأسيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في ٢١ أيـار ١٨٨٢م، ركزت البعثات التبشيرية الروسية جلّ اهتماماتها في الأرض المقدسة فلسطين، ولـم تعط لأنشطتها في سورية ولبنان الاهتمام المطلوب، وفي وقت نشطت فيـه البعثـات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية فيها إلى حد كبير وخصوصاً في لبنان، وبالتـالي فقد اقتصرت أعمال الجمعية الامبراطورية خلال هذه الفترة في سورية علـى تقديـم المساعدات المالية اللازمة لاستمرار المدرستين السابقتين لها في دمشق.

ونظراً للوضع السيء الذي كانت تعيشه الكنائس السورية، بسبب إهمال أبنيتـها وعدم الإهتمام على الإطلاق بإصلاحها وبناء أديرة جديدة، بسبب عدم توفر الأمـوال اللازمة لذلك، كتب بارفيري أوسبينسكي رئيس البعثة الروحية الروسـية فـي بيـت المقدس رسالة إلى الجمعية الامبراطورية تضمنت ما يلـي: "إن الأديـرة والكنـائس

العربية في سورية في وضع محزن للغاية، ومهددة بالتداعي والسقوط".[٤١] فقامت الجمعيةالإمبراطورية بتقديم المساعدات المادية اللازمة للأديرة والكنائس المحتاجة، عن طريق بطركية أنطاكية وسائر المشرق في دمشق والسلطات الروحية المحلية في المدن السورية الأخرى، كما قامت الجمعية بإجراء الإصلاحات اللازمة في عدد من الأديرة، وأهدت في عام ١٨٨٨م عدداً من النواقيس، لكنائس وأديرة حماه وحمص ثم إلى دير صيدنايا للنساء في عام ١٩٠١م.[٤٢]

في عام ١٨٩١م، قامت الجمعية الامبراطورية بإرسال بعثة علمية إلى بلاد الشام برئاسة الأكاديمي ن.ب كونداكوف، وعضوية البروفسور أ.أ. البسنيتسكي، قامت بدراسة المواقع الأثرية والأديرة والكنائس الموجودة فيها. وقد وضعت النتائج التي تم التوصل إليها في كتاب كونداكوف المعروف "جولة استطلاعات واستكشافات أثرية في سورية وفلسطين".[٤٣]

في عام ١٨٩٢م، وبمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، أعطت الجمعية منحاً جديدة للعرب الأرثوذكس المولودين في المناطق التابعة لبطركية أنطاكية وسائر المشرق، وبطركية الإسكندرية، وبطركية القدس، وذلك من أجل الدراسة في الأكاديميات الروحية الروسية. لكن ذلك لم يلقَ أي تشجيع من بطركية القدس، في حين رحّبت بطركية أنطاكية بهذه الخطوة ترحيباً حاراً. وفي صيف عام ١٨٩٥م بعث البطرك سبيريدون رئيس السلطة الروحية في بطركية أنطاكية وسائر المشرق (١٨٩١-١٨٩٧)م برسالة إلى رئيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، تضمنت ما يلي: "معروف بالنسبة لكم حالة ووضع بطركيتنا وقلة الإمكانات المادية المتوفرة لديها بالمقارنة مع ما تمتلكه البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية في سورية، نحن لا نستطيع مقاومة الدعاية المعادية للأرثوذكسية، لسبب بسيط هوأنه في دمشق، وفي سورية بأكملها، لا توجد مدارس أرثوذكسية جيدة، لذلك يرسل الأرثوذكس أطفالهم إلى مدارس معادية

للأرثوذكسية، وفيما يتعلق بتلاميذ المدارس الأرثوذكسية الموجودة، فإن التحصيل العلمي لديها في مستوى غير مرضٍ، وغير كافٍ على الإطلاق، والأرثوذكس المتخرجون من المدارس الأرثوذكسية، يشكلون مكسباً قوياً وحصاداً غنياً بالنسبة للاتين والبروتستانتية، ولن يكونوا على الإطلاق في وضع يمكن أن يعمقوا فيه العقيدة الأرثوذكسية في الشعب السوري، وهذه العقيدة تضعف يوماً بعد يوم. أقصد من ذلك أن تسرعوا في تحييد هذا الخطر الذي يحيط بالأرثوذكسية، والرب يأمرنا بالدفاع عنها بصدق. نحن نتوجه إليكم راجين أن تأتوا إلى مساعدتنا، ومساعدة الكنيسة الشرقية المساعدات التي ترسلونها لدعم وتغطية نفقات مدرستي الذكور والإناث في دمشق غير كافية للحفاظ عليها بالشكل المطلوب، وجذب الأطفال الأرثوذكس في دمشق إليها. وقد قمنا بتغطية الديون المترتبة على مدرسة الإناث، ونحن بحاجة إلى تغطية الديون المترتبة على مدرسة الذكور، وفيما يخص مدرسة الإناث أيضاً، نرجومنكم إعادة النظر في نظام التربية والتعليم فيها ورفع مستوى التعليم، هذا غير ممكن دون المساعدات المادية أيضاً".(٤٤)

انضم إلى بطرك أنطاكية وسائر المشرق في طلبه هذا أيضاً أساقفة المدن السورية الأخرى كما طالبوا بالإشراف على الأرثوذكسية وحمايتها، في مناطقهم، وتقديم العون المادي اللازم، وبالتالي لم تستطع الجمعية الامبراطورية رفض هذا الطلب الجماعي، فأدخلت تحت إشرافها المدارس التالية: مدرسة الإناث في دمشق، مدرسة الذكور أيضاً، ومدرسة سوق الغرب، ومدرسة مار مارون والعمرة، والمعلقة، وثلاث مدارس في حمص، ومدرسة للإناث في صيدنايا، وجميع المدارس الأرثوذكسية الأخرى في سورية.(٤٥)

في عام ١٨٩٦م. ازداد عدد المنتسبين في سورية إلى المؤسسات التعليمية التابعة للجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية إلى حد كبير وقد بلغ عدد التلاميذ في مدارس حمص ٥٠٠ تلميذاً، وفي مدارس دمشق حوالي ٤٥٠ تلميذاً، ودرست في هذه

المدارس العقيدة الأرثوذكسية، واللغات العربية، والروسية، واليونانية. بالإضافة إلى نشاط الجمعية في مجال حركة التنوير، أعارت الجمعية اهتماماً كبيراً لمسألة الخدمات الطبية، والرعاية الصحية التي قامت بتقديمها للسكان المحليين وهكذا. وفي ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨٩٧م تم افتتاح مستوصف في دمشق، وبدأت عملية استقبال ومعالجة المرضى مجاناً، وبغض النظر عن عقائدهم سواء أكانوا من المسلمين أوالمسيحيين، وخلال الأشهر الأولى التي انقضت بعد افتتاح المستوصف في دمشق، تمت معالجة ٤٥٦ مريضاً.

وفي ١٢ كانون الأول عام ١٨٩٧م، بعثت الرابطة الأرثوذكسية المحلية نيابة عن مجلس دمشق برسالة إلى مجلس الجمعية الامبراطورية، أعربت فيها عن امتنانها للجمعية على هذه المؤسسة الخيرية في دمشق.(٤٦)

وفي عام ١٨٩٨م، موّلت الجمعية الامبراطورية بعثة مدير معهد الآثار البروفسور أوسبينسكي الذي قام بدراسة ميدانية لآثار تدمر وبعلبك وفلسطين، ووضع نتائج جولته وأبحاثه التي قام بها في كتابه المعروف "الأوابد الأثرية في سورية".(٤٧)

في عام ١٨٩٩م، تم انتخاب ميليتي رئيساً لبطركية أنطاكية وسائر المشرق، والبطرك ميليتي من أصل عربي، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ عام ١٧٤٢م التي يتسلم فيها بطركية أنطاكية وسائر المشرق الأرثوذكسية بطرك عربي، حيث جرت العادة أن ينتخب البطرك من اليونانيين، وكان ميليتي الذي بقي في منصبه الروحي هذا حتى عام ١٩٠٦م، من المتعاطفين جداً مع روسية، ورأى فيها المدافع الحقيقي عن الأرثوذكسية في الشرق، وكان يعتبر الشعب الروسي أخاً للشعب العربي السوري، الذي يرتبط الأرثوذكس من أبنائه معه بروابط العقيدة الأرثوذكسية الواحدة. من هذا المنطلق، وثّق البطرك ميليتي العلاقات بين البطركية، والجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وكان يرى أن نشاطاتها تمثل المرحلة الأولى من العلاقة

الكنائسية الروحية بين أبناء العقيدة الواحدة، واعتبر أن الجمعية ضرورية جداً لمساعدة الأرثوذكس السوريين، لذلك كان دائماً يهتم بإنجاح أعمالها ونشاطاتها التي كانت تقوم بها، وتعامل بمحبة مع جميع الروس الذين زاروا دمشق والبطرياركية خلال تلك الفترة.(٤٨)

في عام ١٩٠٠م، افتتح مركز البحوث الأرثوذكسية في دير البلمند (على أرض لبنان حالياً) وبناء على طلب البطرك ميايتي نفسه، تضمن برنامج المركز تدريس اللغة الروسية خلال ست سنوات، وذلك ليتمكن الدارسون العرب في المركز، من استخدام الكتب والمراجع المكتوبة باللغة الروسية، والاطلاع أيضاً على الآداب الروسية بلغتها الأم، كما كان المركز يرسل الطلاب الأوائل إلى روسية، من أجل متابعة دراستهم العالية، ولتحقيق مستوى أفضل للعاملين في المركز باللغة الروسية طلب البطرك ميليتي من الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية إرسال أساتذة روس من الأكاديميات الروحية الأرثوذكسية للتدريس في المركز.(٤٩)

في عام ١٩٠٠م، بلغ عدد المدارس الأرثوذكسية التي تشرف عليها الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية ٢٥ مدرسة، ترجمت المواد التي كانت تدرس فيها إلى اللغة العربية، مثل تاريخ العقيدة الأرثوذكسية وصلوات مختصرة، بالإضافة إلى الحساب، واللغة العربية، ومواد أخرى، وكانت الجمعية قد فتحت أبواب مدارسها فقط لاستقبال التلاميذ من أبناء الطائفة الأرثوذكسية حصراً، ولم تقبل تدريس أبناء الطوائف المسيحية الأخرى، وذلك من أجل الحفاظ على العقيدة الأرثوذكسية، وعلى الأطفال من التأثر بالعقائد المسيحية الأخرى. ولم تسع كما فعلت بقية البعثات التبشيرية الأخرى، البروتستانتية، والكاثوليكية، إلى إدخال المسلمين في العقيدة المسيحية.

ولم تتمكن الجمعية الامبراطورية من بناء مدارس أرثوذكسية أخرى في سورية،

بسبب قلة الإمكانات المادية المتوفرة لديها، وبالتالي بدأت بشكل جدي العمل على تجديد وتطوير المناهج التعليمية، التي كانت متبّعة في هذه المدارس، ورفع مستواها بشكل مستمر، ووضع البرامج الجديدة للعمل فيها، ولا بد من أن نشير هنا إلى أن ظهور المدارس الأرثوذكسية التي كانت تعلم التلاميذ مجاناً في أكثر من مكان أدت إلى إغلاق المدارس غير الأرثوذكسية فيها، خصوصاً عندما غيرت المدارس البروتستانتية والكاثوليكية من نظامها الداخلي مع مطلع القرن العشرين، وبدأت تطلب مبالغ كبيرة مقابل قبول التلاميذ فيها، وبنتيجة ذلك ازدادت أعداد التلاميذ في المدارس الأرثوذكسية بشكل كبير، وقد لاحظ السكان المحليون أنفسهم مدى اهمية الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية لهم ولأطفالهم، خصوصاً وأن تعليم اولادهم كان يجري في جوالعقيدة الأرثوذكسية.

وعلى خلاف المدارس الكاثوليكية والبروتستانتية، كانت المدارس الأرثوذكسية التابعة للجمعية تعمل دائماً على تربية تلاميذها العرب الأرثوذكس، على حب وطنهم وقوميتهم العربية، والاعتزاز بها، وتحريضهم على النضال من أجل استقلال بلادهم وسيادتها، وفيما يلي ما ورد في مذكرات البروفسور فاسيليف: "تتمايز المدارس التابعة للجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، عن مدارس البعثات التبشيرية اللاتينية، والبروتستانتية بما يلي: حاولت المدارس اللاتينية، والبروتستانتية، دفع العرب المسلمين لتبني اللاتينية، أوالبروتستانتية، ومدارس الجمعية الامبراطورية لم تفعل ذلك على الإطلاق، وكل ما فعلته الجمعية أنها كانت تسعى دائماً للتعرف أكثر على العرب وماضيهم المجيد، وإطلاعهم على ماضينا العريق، وظهور الإسلام في بلادنا، وإطلاعهم على ثقافاتنا وآدابنا"(٥٠)

في عام ١٩٠٢م، تم الإعتراف من قبل السلطات العثمانية بكافة المدارس الأجنبية الموجودة في سورية ، وهذا ما أعطى دفعاً جديداً للجمعية الأمبراطورية في تجديد نشاطاتها وتفعيلها. ولم ينس العاملون في الجمعية تقديم الخدمات الطبية للسكان

المحليين، وخلال عامي ١٩٠٥-١٩٠٦م قامت مستشفيات ومستوصفات الجمعية بمعالجة ١٢٦ ألف مريض. وفي عام ١٩٠٥م تولى ي.ي. صوكالوف رئاسة تحرير مجلة (أخبار الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية)، وهوأستاذ متخصص بتاريخ بيزنطة، في اكاديمية سانكت بطرس بورغ الروحية، وقد شارك في إعداد منشورات المجلة عدد كبير من العلماء الروس المتخصصين بالتاريخ، والدراسات البيزنطية، بالإضافة إلى عدد كبير من المستشرقين، أمثال ف.غ. فاسيليفسكي، ي.ي. تروتسكي، ي.ف بميالوفسكي والأرخيماندريد انطونين (كابوستين) والأرخيماندريد ليونيد (كافيلين) وعلماء آخرون.

في ٢٠-٢١ أيار ١٩٠٧م، احتفلت الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بمناسبة مرور ٢٥عاماً على تأسيسها، وقام بطرك أنطاكية وسائر المشرق غريغوري الرابع، بإقامة صلاة خاصة بهذه المناسبة. كما احتفلت كنائس حمص وحماه بهذه المناسبة بإشراف الأساقفة، وبحضور طلاب المدارس الأرثوذكسية، التابعة للجمعية الأمبراطورية. وفي نهاية الاحتفال تم استقبال الوفد الذي يمثل الجمعية من قبل البطرك غريغوري الرابع نفسه بحضور القنصل الروسي العام في دمشق آنذاك.

خلال العام الدراسي ١٩٠٨-١٩٠٩م، ازداد عدد التلاميذ في مدارس الجمعية بشكل كبير، ففي جنوب سورية بلغ عدد التلاميذ ٥١٥٥ تلميذاً توزعوا على ٥٠ مدرسة، في ٣٥ مدينة وقرية وعمل فيها ١٦٤ مدرساً منهم ٨٩ مدرساً من الرجال و٧٥ من النساء، وفي العام الدراسي ١٩٠٩-١٩١٠م وصل عدد التلاميذ الذين يدرسون في مدارس الجمعية في شمال سورية إلى ٢٧٦٦ تلميذاً موزعين على ٢٠ مدرسة، درّس فيها ٤٥ مدرساً و٤٢ مدرّسة. وفي مركز البحوث في بيليمناريا التي كانت تعد المركز الروحي الوحيد الذي يقوم بتخريج رجال الدين الأرثوذكسي، والتابع لبطركية أنطاكية وسائر المشرق. تم تخريج ٣٥ رجل دين في العام الدراسي ١٩٠٩-١٩١٠م، وكان الأرخيماندريد أغناطيوس تيروس، الذي سبق وأنهى دراسته الأكاديمية

العالية في الأكاديمية الروحية الأرثوذكسية في موسكو، وحصل على دكتوراه في علم اللاهوت، المشرف العام على هذا المركز، وقد تولى بالإضافة إلى ذلك تدريس اللغة الروسية، والكتاب المقدس، وفي عام ١٩١١م تم إرسال خمسة من خريجي المركز لإتمام التحصيل العالي في روسية.

في ١٧ أيلول عام ١٩١٠م، تم افتتاح مدرسة متوسطة في حمص، وذلك من أجل رفع مستوى التعليم لدى الأرثوذكس السوريين، والرد على الدعايات المعادية للأرثوذكسية، حيث أمر رئيس الأساقفة هناك أفاناسي بتدريس اللغات العربية والروسية والإنكليزية، في هذه المدرسة بدءاً من العام الدراسي ١٩١١-١٩١٢م.

عندما كان البطرك غريغوري الرابع بزيارة لسانكت بطرس بورغ، في ٢١ آذار ١٩١٣م، قام بزيارة مقرّ الجمعية الأرثوذكسية، وأعرب عن امتنانه لها على الأعمال الخيّرة التي قامت بها في سورية لخدمة الأرثوذكسية. ومع بداية الحرب العالمية الأولى كانت سورية ما تزال تنعم بالسلام. غير أنه وبعد مرور شهر على إعلان ألمانية الحرب على روسية، عاشت سورية ظروفاً قاسية وفقدت السلع الاستهلاكية من أسواقها، حيث قامت السلطات العثمانية بمصادرتها لتمويل قواتها. وساءت الأوضاع المعاشية في البلاد إلى حد كبير وأصبحت المؤسسات التابعة للجمعية الامبراطورية في وضع صعب للغاية، بسبب استحالة وصول المساعدات المالية إليها من روسية، ولم يعد باستطاعة مجلس الجمعية تمويل المدارس التي شُلّت بشكل تام. وفي ٢١ آب ١٩١٤م، اتخذ مجلس الجمعية الامبراطورية الاجراءات التالية:

١- إغلاق جميع المدارس التابعة للجمعية، وأوكل مهمة الحفاظ على هذه المدارس والممتلكات التابعة لها إلى أقدم مدرّس في كل مدرسة منها.

٢- تم تخيير المدرسّين الذين كانوا يعملون في هذه المدارس بين العودة إلى الوطن أوالبقاء في أماكن آمنة ضمن القدس أوفي مصر.

وبالفعل فقد أغلقت الجمعية جميع المدارس التابعة لها، غير أن المدرسين لم يتمكنوا من العودة إلى روسية وبالتالي تم جمعهم من مختلف المدن السورية، والفلسطينية واللبنانية. في مدينة دمشق ريثما تأتيهم المساعدات اللازمة، بما في ذلك تكاليف السفر عن طريق وزارة الخارجية الروسية. وفي ١٦ أيار ١٩١٥م، تسلم القنصل الروسي في الإسكندرية أ.م بيتروف مبلغ خمسين ألف فرنك فرنسي، خصص منها ٢٠ ألف لترحيل مدرسي الجمعية من دمشق إلى روسية. وخلال هذه الفترة لم تستطع الجمعية الامبراطورية الحصول على أية معلومات عن وضع وحالة مدرسيها في سورية، في وقت احتلت فيه القوات العثمانية البلاد بأكملها، أو أية معلومات عن الروس الذين بقوا في سورية خلال تلك المرحلة. وفي أواسط شهر حزيران ١٩١٥م، وصل إلى الاسكندرية قناصل إيطالية قادمين من سورية، بعد أن دعتهم حكومتهم للعودة إلى وطنهم ومنهم ساليرنوميللي، والغراف سيني، ومن خلال هؤلاء اطلّعت الجمعية على وضع المواطنين الروس في دمشق بمن فيهم المدرسين التابعين لها، وعلمت بأن السلطات العثمانية كانت قد قامت بنقلهم مع بقية المواطنين الإنكليز والفرنسيين إلى داخل سورية، في أورفه وديار بكر، منذ تاريخ ١٨ أيار ١٩١٥م، ولم يبق من العاملين في إطار الجمعية سوى ٣١ امرأة ورجل واحد في دمشق. وتبين فيما بعد أن السلطات العثمانية جمعت المواطنين الروس في دير للأرمن في أورفه، ووضعت كل ١٢ رجلاً في غرفة واحدة عاشوا خلالها ظروف حياة قاسية جداً، ومات قسم كبير منهم، ولم يتمكن القسم الذي بقي على قيدِ الحياة من العودة إلى روسية، إلاّ بعد تحرير سورية من القوات العثمانية، على يد الحلفاء والقوات العربية المتعاونة معها.

٥ـ الخاتمة:

في نهاية هذا البحث لا بد من الإشارة إلى أن البعثات التبشيرية الروسية كانت

كغيرها من البعثات التبشيرية الأخرى البروتستانتية والكاثوليكية والتي سبقتها إلى منطقة الشرق العربي تسعى إلى تحقيق مهمة مزدوجة ظاهرها إنساني، وباطنها غايات وأطماع توسعية أوكحد أدنى توسيع دائرة النفوذ أكثر ما يمكن، لكن هذا برأينا وللأمانة العلمية والإنصاف، لا ينفي على الإطلاق وجود بعض الآثار الإيجابية التي نتجت عن وجود البعثات التبشيرية الروسية في المجتمع العربي في الشرق، وفيما يلي الاستنتاجات التي توصلت إليها بنتيجة هذه الدراسة:

١- ساعدت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية على انبعاث الروح القومية في منطقة الشرق العربي، وخصوصاً خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٥-١٨٨٠م. وجاءت مساهمتها في ذلك من خلال اهتمامها بتدريس اللغة العربية، كما رأينا في المدارس التي قامت بفتحها في سورية وفلسطين، وتعريب المناهج الدراسية، وتدريس التاريخ العربي، واهتمامها أيضاً بكل ما يمكن أن يفصل بين العرب والدولة العثمانية.

٢- ساهم خريجومدارس البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية مع غيرهم من خريجي مدارس البعثات التبشيرية الأخرى، في تشكيل الجمعيات العربية مثل جمعية الآداب والعلوم، التي أسسها العالمان (في اللغة العربية) ناصيف اليازجي وبطرس البستاني في بيروت عام ١٨٤٧م والجمعية الشرقية التي أقيمت في بيروت عام ١٨٥٠م، والجمعية العلمية السورية سنة ١٨٥٧، والتي دخل في عضويتها ١٥٠ من المثقفين العرب من مختلف الأديان، وكانت الوحدة الوطنية القائمة على الاعتزاز بالتراث العربي شعار هذه الجمعية، الذي أصبح شعاراً لليقظة العربية. وجمعية بيروت السرية التي شكلت عام ١٨٧٥م، والتي كانت تطالب باستقلال سورية، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فيها. وفي عام ١٨٨١م، قامت جمعية حقوق الملّة العربية من المثقفين العرب في بيروت، ودمشق وطرابلس وصيدا، بتوزيع منشورات تحثّ العرب على

اليقظة، وتذكرهم بأمجادهم، وأن الأتراك اختلسوا الخلافة من العرب الذين قامت على أكتافهم الفتوحات.(٥١)

٣- لقيت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية مضايقات كبيرة من قبل السلطات العثمانية، لأنها كانت مرتابة جداً من روسية القيصرية، التي وقفت وراء أشغال الثورة اليونانية عام ١٨١٥م من خلال موقفها المعلن، والمؤيد لتأسيس جمعية (فيليكا هيتاريا) التي طرحت شعار اليونان لليونانيين، بالإضافة إلى مشاركة أعداد كبيرة من المتطوعين الروس في هذه الثورة، والتي انتهت باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية عام ١٨٣٠م. من هنا كانت السلطات العثمانية تسعى دائماً إلى تحجيم نشاط البعثات التبشيرية الروسية في بلاد الشام، خوفاً من أن تمتد نار الثورات إليها، وزادت الضغوط التي كانت تمارسها عليها، بشكل خاص بعد عام ١٨٧٨م، وحصول أقاليم البلقان على الاستقلال عن الدولة العثمانية بدعم من روسية القيصرية، حتى أن الدولة العثمانية لجأت في سنوات ١٨٩٤-١٨٩٥-١٨٩٦م إلى إرتكاب مجازر مروعة بحق الشعب الأرمني، وذلك لوقف التطلعات السياسية القومية لدى هذا الشعب، بعدما أذكت روسية فيه الروح القومية خلال تلك الفترة وكانت تلك المجازر بمثابة رسالة تحذير وجهتها إلى الحركة القومية العربية المتعاظمة آنذاك.

٤- كانت لروسية القيصرية غايات وأهداف سياسية واقتصادية في بلاد الشام، أرادت تحقيقها عن طريق بعثاتها التبشيرية الأرثوذكسية، ومثلت هذه البعثات عيون روسية في المنطقة وراقبت كل حدث فيها، وتنقلت في أصقاعها بحجة التبشير وإجراء التنقيبات الأثرية، وأرسلت الكثير من التقارير التي تضمنت مشاهداتها فيها بما في ذلك رصد نشاطات الدول الغربية أيضاً في هذه المنطقة، عن طريق بعثاتها التبشيرية هي الأخرى الكاثوليكية والبروتستانتية.

كما حاولت روسية إيجاد رأس جسر لها في هذه المنطقة، عن طريق البعثات التبشيرية هذه. وقد شكلت البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية عامل دفع وتشجيع غير مباشر للحكومة الروسية على اتباع هذا الأسلوب، بعدما لاحظت أن الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال كانت قد جعلت من البعثات التبشيرية البروتستانتية، وسيلة تجديد تساهم في عرض البضائع والمنتجات الأمريكية في بلاد الشام وبالتالي أصبحت هذه البعثات ممثلة للامبريالية التجارية إن صحّ التعبير.

٥- شكلت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام، جزءاً من الدبلوماسية الروسية العامة، تجاه هذه المنطقة خلال تلك الفترة، في وقت فهمت فيه أن البعثات التبشيرية الأخرى وبخاصة البروتستانتية، تعتمد في نشاطاتها وتواجدها الكبير في المنطقة على تغطية وحماية الدبلوماسية الإنكليزية، والأمريكية، وفي وقت كان فيه الأسطول الأمريكي يزور معظم الأحيان الموانئ السورية، لإظهار مدى اهتمام الولايات المتحدة بهذه البعثات. "وبعد عام ١٨٥٠م، كان العديد من المبشرين الأمريكيين يعملون في المنطقة، لهم صلاحيات القناصل"(٥٢) وبالتالي فقد أرادت الحكومة القيصرية أن تعمق دورها السياسي في المنطقة أيضاً، عن طريق بعثاتها التبشيرية، آملة الحصول على حصة لها على الأقل، عندما يحين موعد تصفية الحسابات المتعلقة بالمسألة الشرقية. لكن روسية وكما دلّت الأحداث اللاحقة، لم تكن موفقة في ذلك على الإطلاق وتبين أنها دخلت الصراع في وقت متأخر جداً.

٦- كان من أحد أهم أسباب عدم نجاح البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام، قلة الإمكانات المادية التي قدمتها لها الحكومة القيصرية، والتي لم تكن تتناسب مع حجم المهمة الكبيرة التي ألقيت على عاتق هذه البعثات، بالإضافة إلى محاربة البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية لها من

خلال شن دعاية معادية قوية ضدها، أدت إلى تخلي أعداد كبيرة من الأرثوذكس عن عقيدتهم، وتبني البروتستانتية أو الكاثوليكية، غير أن السبب الأهم هو أن الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، كانت مصممة على قطع الطريق على روسية، ومنعها من ترويج موضة الثورات القومية التي أشعلتها في البلقان، والحيلولة دون انتقال عدواها إلى المنطقة العربية، خصوصاً وأنها أصبحت قريبة جداً منها. عام ١٨٩٤م عندما نفخت الروح في القومية الأرمنية، والدليل على ذلك هو:"أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت اقتراحاً تقدم به وزير المستعمرات البريطاني جوزيف تشامبرلين في أيلول عام ١٨٩٦م إلى رئيس وزراء بريطانية، تضمن أن تقوم الدولتان بعرض مشترك لأسطوليهما البحريين، للتأثير على السلطان العثماني، ووقف المذابح المروعة بحق الأرمن، والبدء بإصلاحات سياسية"(٥٣)

٧- كانت البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية أقلّ تأثيراً على المجتمع العربي في الشرق بشكل عام، من البعثات البروتستانتية والكاثوليكية. ويكفي أن نذكر دليلاً على ذلك الفارق الكبير في عدد المدارس التي افتتحتها بالمقارنة مع المدارس التي افتتحتها البعثات التبشيرية البروتستانتية، إذا لم يتجاوز عدد المدارس الروسية الخمسين مدرسة في بلاد الشام، في حين "بلغ عدد المدارس البروتستانتية في عام ١٩٠٠م ٣٦ مدرسة عليا، تضم ٢٧٠٠ تلميذاً، و٣٩٨ مدرسة ابتدائية، تضم ١٥ ألف تلميذاً، بالإضافة إلى امتلاكها جامعة في بيروت، عرفت باسم الكلية السورية. (٥٤)".

٨- كانت مسألة الصراع الدولي على منطقة الشرق العربي قد حسمت -على الأقل ضمنياً- عندما دخلت البعثات التبشيرية الروسية هذه المنطقة بفعالية، بعد تأسيس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام ١٨٨٢م فقد ازداد عدد التجار ورجال الأعمال والمهندسين الأمريكيين في الشرق، وتوسعت

المصالح الأمريكية إلى حدّ كبير، ومنذ ذلك التاريخ استطاعت الولايات المتحدة بسياستها الاستراتيجية الأكثر بعداً، والأنجح تخطيطاً، أن تجد لنفسها شريكاً يخدمها، وفي نفس الوقت لا يمكن أن يشكل خطراً على مصالحها في المنطقة، ويمكنها أيضاً استخدامه ضد بقية الدول الأخرى -عندما تدعو الضرورة إلى ذلك- حتى وإن كانت من حليفاتها عندما تتعارض مصالحها معها، وهذا الشريك هوالحركة الصهيونية العالمية، وراحت الأوساط السياسية الأمريكية منذ ذلك التاريخ تنفخ بكل ما لديها من قوة في بوتقة اختراع وخلق قومية ليس لها وجود في التاريخ هي بدعة "القومية اليهودية" والتي انتهت بخلق واختراع كيان استيطاني في قلب الشرق العربي لا شبيه له في التاريخ والنشأة، والأيديولوجية والتكوين، إلا الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

مصادر ومراجع البحث

المصادر والمراجع العربية:

أنطونيوس جورج: **يقظة العرب**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٦م.

٢- بريسون. أ. توماس: **العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ إلى ١٩٧٥م.**

٣- بيهم محمد جميل: **العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب**، بيروت المطبعة الوطنية ١٩٦٨م.

٤- الحكيم يوسف: **سورية والعهد العثماني**، بيروت، دار النهار، ١٩٨٠م.

٥- **حوادث ١٨٦٠م في لبنان ودمشق**، لجنة بيروت الدولية، المحاضر الكاملة ١٨٦٠-١٨٦٢م، ترجمة أنطون حنو، بيروت، ١٩٩٦م.

٦- حوراني البرت: **الفكر العربي في عصر النهضة**، ترجمة كريم عزقول، بيروت دار النهار ١٩٦٨م.

٧- ريجينكوف.م. وسميلينسكايا: **سورية ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر**

٨- **مذكرات رحالة- تقارير علمية وصادية**، ترجمة يوسف عطا الله بيروت ١٩٩٣م.

٩- زريق مزدريك: **نهضة العرب**، دمشق، مطبعة ابن خلدون ١٩٤٩م.

١٠- زين نور الدين زين: **نشوء القومية العربية**، بيروت، دار النهار ١٩٦٨م.

١١- سلطان علي: **تاريخ سورية ١٩٠٨-١٩١٨م نهاية الحكم التركي**، دمشق طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

١٢- طلس محمد أسعد: **تاريخ الأمة العربية** ترجمة وعصر الانبعاث بيروت ١٩٦٣م.

١٣- عازوري نجيب: **يقظة الأمة العربية**، ترجمة أحمد بوملحم، بيروت المؤسسة العربية للدراسات.

١٤- عتريسي طلال: **البعثات اليسوعية- مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان**، الوكالة العالمية، ١٩٨٧م.

١٥- غرايبة عبد الكريم: **سورية في القرن التاسع عشر**، القاهرة، ١٩٦٢م.

المصادر والمراجع الأجنبية:

1. ЦГИА. Рукописи синода. Ф. 834. оп. 4. Ед. хр. 934.
2. Богословские труды. № 20. 1979. с. 15.
3. Маркс К., Энгельс Ф. Соч. т. 10. с. 17.
4. Дмитриевский А. А. Православное Палестинское Общество и его деятельность за истекшую четверть века (1882-1907 гг.). СПб. 1907. с. 220.
5. Там же. с. 220.
6. Хитрово В. Н. Православие во Святой Земле. „Православный Палестинский Сборник." т. 1 вып. 1 СПб. 1881. с. 81-83.
7. Русская дипломатия и Российское Императорское Православное Палестинское Общество. По материалам АВПР. Дипломатический ежегодник. М. Межд. Отнош. 1992. с. 258.
8. Православный Палестинский Сборник 1882-1992. Вып. 31. М. 1992. с. 120.
9. Русская дипломатия и Российское Императорское Православное ... с. 260.
10. Никонов А. Бюджеты Западной Европы в России. 1911. с. 237.
11. Там же с. 242.
12. „Прибавления к Херсонским Епархиальным ведомостям." 1883. № 18 с. 869-870.

13. „Виссарион". 1900. №49-50. с. 534-535.
14. Там же с. 591.
15. Православный Палестинский Сб. с. 108.
16. Дмитриевский А. А. Православное... с. 241.
17. Там же с. 265-266.
18. „Церковный Вестник." 1885. №22. июнь. с. 360.
19. „Труды КДА". 1907. май. с. 105.
20. Елисеев А. В. Путь к Синаю 1881. „Православный Палестинский Сб." т. II. вып. 1. СПб. 1883. с. 15.
21. Православный Палестинский Сб. с. 113.
22. „Церковный Вестник". 1888. №2. янв. с. 25-26.
23. Прибавления к Церковным Ведомостям. 1888. №16. с. 447-448.
24. Церковные Ведомости. 1888. №31.32. июль. с. 199.
25. Православный Пал. Сб. с. 116.
26. Церковный Вест. 1889. №26. июнь. с. 461-462.
27. Там же с. 462.
28. Свящ. Симеон Покровский. О современном состоянии православия и иноверной пропоганды во Святой Земле. Астрахань. 1900. с. 15-22.
29. Суворин А. А. Палестина. С-П. 1898. с. 298-299.

30. Сообщения Православного Палестинского Общества. т. VII. СПб. 1897. с. 139.
31. Там же. т. VIII. СПб. 1898. с. 10.
32. Там же. т. IX. СПб. 1899. с. 664.
33. Оде - Васильева К.В. Взгляд в прошлое. Пал. Сб. М.-Л. 1966. вып. 13(76). с. 175.
34. Православный Пал. Сб. с. 110.
35. Там же.
36. Там же. с. 111.
37. Там же.
38. Книга житий святых. Месяц июний. дня 24. Киев. 1875. с. 75.
39. Православный Пал. Сб. с. 112.
40. Там же с. 120.
41. Каптерев Н.Ф. Сношения иерусалимских патриархов с русским правительством в XIX - столетии. Православный Палестинский Сб. т. XV. вып. 3 СПб. 1898. с. 637.
42. Православный Пал. Сб. с. 121.
43. Там же.
44. Там же. с. 122.
45. Там же.
46. Там же.
47. Там же.
48. Там же.
49. Там же. с. 123.
50. Палестинский Сб. №13(76). 1965. с. 175.

موقف بريطانية من نشاط الجامعة العربية

في إمارات ساحل الخليج العربي* (١٩٦٤ـ١٩٦٥)

في ضوء الوثائق البريطانية

أولاً: المقدمة:

كما هو معروف أن بريطانية منذ أن أدخلت إمارات الخليج العربي تحت حمايتها منذ النصف الأول من القرن التاسع، نصبت نفسها كوصية عليها في كل تحرك من تحركاتها، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، وإن كانت سياستها المعلنة عدم التدخل في شؤون الإمارات المذكورة، وبالأخص شؤونها الداخلية بحسب ما ادعت وثائقها، والتي كان من أهمها تلك الوثيقة التي أفصح عنها أحد مقيميها السياسيين في المنطقة، موضحاً مرتكزات سياسة بلاده في المنطقة على النحو التالي:

أولاً: ترك الحكّام وشعوبهم يقومون بإدارة شؤونهم بأنفسهم تحت إشراف ورعاية الحكومة البريطانية.

ثانياً: الاستماع بشكل جيد للحكّام عند مناقشة القضايا الهامة.

ثالثاً: وهو الأهم، خلق قناعة عند الحكّام، وشعوبهم بأن الحكومة البريطانية تقوم بحمايتهم من الانصهار في جيرانهم الأقوياء والتأكيد على أنها الحامية الطبيعية لهم(١).

---

* إمارات الساحل هنا تعني كمصطلح تاريخي إمارات ساحل عمان التي هي دولة الإمارات العربية الآن.

ومع التسليم بتلك السياسة، إلا أن الكثير من المستجدّات التي حدثت في المنطقة والتي كانت في أغلبها تتعلق بالشؤون الداخلية، كالصراع على الحكم، أو قيام حركات شعبية تطالب حكوماتها بنوع من الإصلاح الداخلي مثل ما حدث في البحرين على سبيل المثال، خلال فترة الخمسينات، نجد السلطات البريطانية تلقي بثقلها في وضع العراقيل التي من شأنها إفشال ما كانت تطالب به تلك الحركات، خوفاً من المساس بمصالحها التي بدأت تكبر يوماً بعد يوم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطات ذاتها، تقف بالمرصاد لأي تحرك تقوم به الإمارات الخليجية على الساحة الخارجية سواءً الإقليمية أو الدولية، اللهم إلا بعض النشاطات ذات الطابع البروتوكولي، كتبادل التهاني في المناسبات، وبعض الزيارات الودية التي ليست لها طابع سياسي، بالإضافة إلى سماحها بعقد بعض الاتفاقيات ذات الطابع الثقافي، التي كانت تخدم المصلحة البريطانية ذاتها، وتحت إشرافها، كالاستفادة من بعض الخبرات التعليمية ليس إلا. بيد أن هذا النهج السياسي البريطاني في المنطقة، بدأ يتجه نحو التآكل شيئاً فشيئا مع مرور الأيام وذلك بسبب ظهور المستجدات الجديدة التي بدأت تفرض نفسها على الساحة العالمية والإقليمية والمحلية، خاصة خلال وبعد الحرب العالمية الثانية، مؤثرة تأثيراً سلبياً على النفوذ البريطاني في المنطقة. ولعل من أبرز تلك المستجدات، ظهور الولايات المتحدة كمنافس قوي، ومحاولتها تحجيم السيطرة البريطانية التي انفردت بها في المنطقة دون منازع وذلك عن طريق حصول عدد من شركاتها النفطية على عدد كبير من عقود الامتيازات النفطية، التي كثيراً ما كانت الدوائر البريطانية تحاول أن تكون تلك العقود من نصيب شركات بلادها، بالإضافة إلى ظهور وعي سياسي في المنطقة خلال أعوام الحرب، بفضل النشاط الدعائي السياسي الذي ساد المنطقة بسبب الصحف والإذاعات، ومن ثم تحوّل هذا الوعي إلى شبه فكر أيدلوجي تقدمي ذي طابع إصلاحي تبنته الفئات المستنيرة في المنطقة في وقت تزايد فيه تيّار المد القومي العربي على إثر ولادة حركة القوميين العرب بعد

نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، التي جعلت من القضية الفلسطينية جوهر تحركاتها في قضايا الأمة العربية المختلفة، وعلى رأسها قضايا التحرر والقضاء على الاستعمار. وقد توجت تلك المستجدات، بقيام ثورات وطنية في بعض البلاد العربية كثورتي يوليو المصرية عام ١٩٥٢، وثورة تموز العراقية عام ١٩٥٨، اللتين أطاحتا بأكبر ملكين كانا مدعومين من بريطانية ولعشرات الأعوام(٢).

ويبدو أن الحكومة البريطانية وعلى رأسها وزارة الخارجية كانت مدركة بما ستؤول إليه الأمور في حالة عدم قيامها بشيء من شأنه المحافظة على قوة نفوذها في المنطقة والوقوف أمام التحديات الجديدة التي بدأت تواجهها فيها، ولذلك بدأ المسؤولون في الخارجية البريطانية في طرح ما يعرف بالسياسة التنموية في الخليج* ولكن بحذر شديد، خاصة فيما يتعلق بالشؤون السياسية والعلاقات الخارجية، بحيث ظلت تلك السياسة تحاول بقدر الإمكان منذ العمل بها تسييج المنطقة بسياج بريطاني قوي، الهدف منه منع أي تغلغل خارجي من شأنه أن يضر بالمصالح البريطانية ويضعها في مهب الريح، وخاصة في الإمارات القليلة الموارد التي من المتوقع أن تكون عرضة لأية تأثيرات خارجية من أي جهة، سواء أكانت دولة، أو منظمة إقليمية ذات طابع سياسي كجامعة الدول العربية. إذ كانت أكثر إمارات الخليج عرضة لذلك إمارات الساحل بأكملها باستثناء أبو ظبي الغنية بالنفط. وهذا ما سوف نحاول إلقاء الضوء عليه من خلال الوثائق البريطانية حول موقف الجهات المسؤولة البريطانية في لندن والخليج تجاه نشاط جامعة الدول العربية في إمارات الساحل الذي هو موضوع دراستنا هذه.

---

* لمزيد من التفاصيل عن السياسة التنموية في الخليج انظر: إبراهيم شهداد. المرجع السابق.

ثانياً: بدايات اهتمام الجامعة العربية بإمارات الخليج العربي:

بداية، لا بد لنا من الإشارة إلى أن تأسيس الجامعة العربية كان حدثاً مهماً في تاريخ الأمة العربية، والخطة الرسمية والعملية الأولى في سبيل الوحدة العربية على المدى البعيد، وبخلاف ذلك فليس من المبالغة القول بأن الجامعة العربية منذ بداية طرح فكرتها لاقت التشجيع والمباركة من الحكومة البريطانية، ليس حباً في وحدة الصف العربي، ولكن من باب مصالحها العليا ليس في البلاد العربية بل في الشرق الأوسط، فأغلب ما تداولته جهات القرار في بريطانية، وخاصة وزارة الخارجية، كانت في صف تشجيع قيام الجامعة العربية، والعمل على تطويرها بناءً على قناعات مختلفة. فعلى سبيل المثال، ذكر أحد المسؤولين عن الشؤون المصرية والعربية بوزارة الخارجية البريطانية: أن تنمية الجامعة العربية هي لمصلحتنا على الأمد الطويل، مبرراً ذلك، بأن الشرق الأوسط لن يكون له نفس الطابع الذي تميّز به قبل الحرب، فالأمريكيون يزدادون اهتماماً به، ومصالحهم ستنمو مع تطور صناعة النفط في الخليج، وبناء خط الأنابيب الجديد الممتد إلى البحر المتوسط، كما أن الروس بدأوا بإظهار شيء من الاهتمام، وأن سياسة فرق تسد قد لا تكون شعاراً مفيداً في المستقبل، لأن الآخرين قد يستفيدون من الانقسامات لتحقيق أغراضهم الخاصة. فما حدث في البلقان هو درس لما يمكن أن يحدث حينما تتنافس الدول الكبرى في خلق الانقسامات، وفي دعم الكتل المتصارعة، ولكننا حيث أخفقنا في خلق أي تضامن محلي في البلقان، على الرغم من المحاولات العديدة، فإن الدول المحلية في الشرق الأوسط قامت بذلك من تلقاء نفسها مع تشجيع بسيط نسبياً، إنني أرى- والحديث لمسؤول الشؤون المصرية والعربية- أن مما سيعود بفوائد كبيرة في المستقبل هو توثيق التضامن بين الدول العربية وتشجيعها على الاتجاه إلينا بطلب القيادة والمعونة، إذ أن لديهم ميلاً قوياً لذلك، ثم استطرد قائلاً إنني أرى كذلك في تنمية الجامعة العربية فائدة أخرى، إذ أننا لو قمنا من جانبنا بتأسيس منظمة أمنية إقليمية في الشرق الأوسط، كان علينا أن

ندخل فيها الأمريكيين والفرنسيين والروس، فضلاً عن الدول المحلية ربما فيها تركية وإيران، وذلك سيجعلنا أقلية ضئيلة بين الدول الأخرى، وسيؤدي هذا إلى تضاؤل مكانتنا ونفوذنا في الدول العربية في الشرق الأوسط. أما الآن فنظراً لعلاقتنا الوثيقة مع كثير من أعضاء الجامعة العربية سنكون قادرين على التأثير في فعالياتها أكثر مما تستطيعه أية دولة أخرى، لذلك فإن وجود منظمة إقليمية في الشرق الأوسط كالجامعة العربية أمر لا بد منه(٣).

تأسيساً على ذلك نستشف بأن المسؤولين البريطانيين وجدوا في تأسيس الجامعة العربية ضماناً لديمومة مصالح بلادهم، وسلاحاً في إبعاد من ينافسونها في مناطق نفوذها ولذلك نراها تقوم بدور الممهد والمشجع والمبارك لقيام الجامعة العربية، التي تم الإعلان عن ميلادها في ٢٢ آذار/ مارس ١٩٤٥، ولعل أطرف إشارة وبعبارات ذات دلالة بمناسبة إنشائها ما أشار إليه الملك عبد الله بقوله: (الجامعة العربية صوت فاه به نوري باشا السعيد، وتلقفه مصطفى باشا النحاس، وأيده انتوني إيدن، فهو جراب أدخلت فيه سبعة رؤوس، اليمن والعراق والشام ولبنان ومصر وشرقي الأردن* بسرعة عجيبة في وقت كانت فيه سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وشرقي الأردن تحت الانتداب البريطاني، والعراق ومصر تحت المعاهدتين الساريتين حتى ذلك الوقت، فالدول العربية كانت حينذاك في قيود انتدابية وتعاهدية، ماعدا اليمن ونجد، فإنهما كانتا حرتين ... وظن الغريب الراضي عن هذه الجامعة أننا سنكون خير أداة لدوام الانتدابات ودوام الأحكام التعاهدية)(٤).

هكذا ولدت الجامعة العربية، لتكون أول منظمة إقليمية ذات طابع عربي، تخطو على الساحة الدولية، محاولة على المستوى العربي تقريب وتوحيد سياستهم إلى حد ما

---

* يلاحظ أنه لم يرد في مقولة الملك عبد الله اسم السعودية مع أنه أشر إلى سبع دول، ولا يعرف هل كان إغفالها مقصوداً أم أنها سقطت سهواً، كما يلاحظ أنه حين تطرق إليها فيما بعد سمّاها (نجداً؟!).

والعمل على حل مشكلاتهم في إطارها، بينما على المستوى الدولي، محاولتها فرض نوع من الإرادة العربية، واتخاذ مواقف متجانسة على الأقل تجاه بعض القضايا الإقليمية والعالمية.

وانسجاماً مع ما سبق بدأت تتحرك بخطوات مشجعة على الساحة العربية لتؤكد بأنها بيت العرب جميعاً، مادةً يدها للبلدان العربية سواءً المستقلة أو التي ما تزال واقعة تحت نفوذ دول أخرى، لمساعدتها على مختلف الأصعدة، وفي جميع المجالات، فكانت منطقة الخليج إحدى مجالات تحركها ومحطّ اهتمامها، إذ أنها تمشياً مع ظروف بلدان المنطقة التي كان الاستعمار البريطاني يعتبرها جزءاً من مناطق نفوذه الهامة، قامت بنوع من النشاط يكاد يكون مؤيداً من قبل السلطات البريطانية، عندما بدأت ولأول مرة بدعم إحدى القضايا الخليجية التي كانت تمس سيادة إحدى إماراتها وكان ذلك في أعقاب قيام الخارجية الإيرانية عام ١٩٥٤م، بتوجيه مذكرة إلى البعثات السياسية الأجنبية في طهران، تطلب فيها عدم قيام طيرانها عند اجتياز الحدود الإيرانية أو الخروج منها بالهبوط في مطار البحرين على اعتبار أنه مطار دولي إلا بإذن مسبق من السلطات الإيرانية، لأن البحرين منطقة إيرانية داخلية. ونتيجة لذلك قام مجلس الجامعة العربية ببحث الموضوع، وقرر أن تقوم البعثات السياسية العربية في طهران بمعارضة الطلب الإيراني مع التأكيد، على أن البحرين بلد عربي غير خاضع لسيادة إيران ولا تربطه بها علاقة تبعية من أي نوع كان(٥).

وتواصلاً للاهتمام السابق من الجامعة العربية للمنطقة، قام الأمين العام، بتقديم مذكرة إلى مجلس الجامعة في دورته الـ٢٣ عام ١٩٥٥م، يدعو فيها المجلس إلى ضرورة المضي في سياسة الجامعة التي تعنى بالبلاد العربية في الخليج العربي والساعية إلى تأييد استقلالها تنفيذاً لميثاق الجامعة(٦).

واستجابة لدعوة الأمين العام بدأ نشاط الجامعة يزداد بشكل ملحوظ وكبير في

المنطقة مع بداية عقد الستينات، مستهلة ذلك النشاط وكسياسة احتوائية منها لمنع التسلل الإسرائيلي للأسواق الخليجية وبالتالي اختراق المقاطعة العربية لها، أصدر مجلس الجامعة العربية قراراً في آذار/مارس ١٩٦٣ ببذل المساعي لدى إمارات الخليج بغية إنشاء مكاتب إقليمية للمقاطعة بها، وبإرسال وفد إلى تلك الإمارات لدراسة تقديم اقتراحات لشيوخ المنطقة بشأن الإجراءات الكفيلة بمنع تعاملها مع إسرائيل أو الشركات الأجنبية الضالعة معها. وقد كان رد الحكّام لذلك سريعاً بعد زيارة وفد الجامعة العربية لإماراتهم في شهر أيار/مايو ١٩٦٣، حيث أصدر حكّام كل من قطر والبحرين ودبي والشارقة وأبو ظبي مراسيم تنص على إنشاء مكاتب للمقاطعة في إماراتهم، لتطبيق أحكّام المقاطعة المعمول بها في الدول العربية أعضاء الجامعة(٧).

ويبدو لنا أن هذا الرد الإيجابي والسريع من قبل حكّام الإمارات الخمس،إنما جاء تعبيراً عن شعور ديني وعربي، لما يكنه هؤلاء وشعوبهم من غضب وحنق تجاه الدولة اليهودية في فلسطين، وحتى لا يكون هؤلاء الحكّام في وضع محرج أمام شعوبهم في حالة معرفتهم- أي الشعوب- رفض حكوماتهم وحكّامهم إنشاء مثل تلك المكاتب، وخاصة أن بعض الإذاعات العربية كصوت العرب سوف تشن حملة إعلامية غاضبة عليهم في حالة رفضهم، حيث تصفهم بالمتعاونين مع الإسرائيلين بإيحاء من الحكومة البريطانية، أو أنهم واقعين تحت تأثير الضغوط البريطانية، ولذا وجدوا في افتتاح تلك المكاتب فرصة لتأكيد دورهم العربي في مقاومة التغلغل الإسرائيلي في البلاد العربية، وتحجيم دوره في المنطقة.

وبخلاف النشاط السابق، وامتثالاً لما تضمنه ميثاق الجامعة العربية في الملحق الخاص بالتعاون مع البلاد العربية غير الأعضاء في مجلس الجامعة، اتخذ مجلس الجامعة عدة قرارات بشأن منطقة الخليج كان من أهمها القرار الذي اتخذه في ٣١ آذار/مارس ١٩٦٤م، بإرسال بعثة برئاسة الأمين العام للجامعة تضم ممثلين شخصيين لملوك ورؤساء الدول العربية المجاورة لهذه الإمارات للاتفاق مع حكّامها على تقييد

الهجرة الأجنبية اتقاءً لأخطارها المشتركة، وبحث وسائل توثيق الروابط الأخوية مع إماراتهم(٨).

وتنفيذاً لما جاء في القرار المذكور، تم تأليف لجنة سُميت بلجنة الخليج العربي تضم كلاً من الأمين العام للجامعة والأمين العام المساعد للشؤون السياسية وممثلين شخصيين عن المملكة العربية السعودية، ورئيس الجمهورية العراقية وأمير دولة الكويت، وقد قرر هؤلاء خلال اجتماعهم في يومي ١٣و١٤ حزيران/يونيو ١٩٦٤، انتداب ممثل الكويت والمبعوث الشخصي لأمير الكويت (بدر خالد البدر) لزيارة إمارات الخليج وذلك للتمهيد لزيارة اللجنة ومعرفة متطلبات المنطقة، مع حمل رسائل شخصية من الأمين العام إلى حكّام المنطقة توضح مهمة اللجنة الأساسية على أنها تقوم على وضع خطة لتعاون أعضاء الجامعة العربية مع الإمارات الشقيقة في شتى الميادين، والتذاكر في المصالح المشتركة.

وقد جاءت ردود حكّام الإمارات تتضمن الترحيب بقدوم اللجنة في أواخر صيف عام ١٩٦٤، رغم الإشاعات التي بدأت بعض الإذاعات والصحف غير المؤيدة لزيارة اللجنة بنشرها واصفة الزيارة بأنها دليل على بداية تدخل الجامعة العربية في الشؤون الداخلية للإمارات، بينما انتهى بعضها إلى القول بأن زيارة اللجنة قد تثير المظاهرات والاضطرابات في المنطقة(٩).

فعلى إثر عودة مندوب اللجنة- لجنة الخليج العربي- عاودت اجتماعاتها يومي ١٣و١٤ تموز/يوليو ١٩٦٤، وبعد دراسة نتائج الزيارة* اتخذت قراراً يتعلق بزيارة المنطقة مع بداية شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤م والاجتماع بحكّامها.

---

* لمزيد من التفاصيل حول نتائج زيارة مبعوث لجنة الخليج العربي بالجامعة العربية أنظر: تقرير بدر خالد البدر الممثل الشخصي لأمير الكويت ومبعوث لجنة الخليج العربي إلى إمارات الساحل في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٦٤.

كان من الطبيعي أن يكون قرار مجلس الجامعة العربية إرسال وفد منها إلى إمارات الخليج محل اهتمام كبير من قبل أصحاب المصلحة الأولى في الخليج، وهم البريطانيون الذين كانت الكلمة العليا لهم في تسيير دفة الأمور في هذه الإمارات بدون منازع، وخاصة أنهم كانوا يعتبرونها منطقة محرّمة على الآخرين، ولذلك كان إرسال الوفد المذكور، بمثابة تحدٍ لهم، لما تشكله زيارة وفد الجامعة من خطورة بحسب اعتقادهم وخاصة في وقت، بدأوا يواجهون فيها سيلاً من المشكلات في المنطقة كتصاعد الروح الوطنية فيها، وتسرب تيارات مختلفة إليها كتيار المد القومي بقيادة مصر والعراق، والتيار الشيوعي الذي بدأ السوفييت يحاولون بواسطة شعاراته أن يجدوا من خلالها موطأ قدم في المنطقة، بالإضافة إلى تولد روح الاستقلال في نفوس أبناء هذه الإمارات، ولذلك بات البريطانيون متحفزين تجاه هذا الوفد أشد التحفز، محاولين بكل السبل السعي لإحباط مهمته سواء بطريق غير مباشر، أو حتى مباشر، حينما تصل الأمور إلى مرحلة اللاعودة، وهذا ما سوف تكشفه لنا الوثائق البريطانية ذاتها بهذا الصدد.

ثالثاً: بريطانيا وموقفها من مقترحات الجامعة العربية:

كما ذكرنا سالفاً كان رد الفعل المتوقع لبريطانية وسلطاتها تجاه وفد الجامعة العربية للمنطقة، الرد المتحفّظ والمتحفّز في آن واحد، لأنها كانت تعدُّ ذلك في حساباتها نوعاً من التدخل في شؤونها، ولذلك بدأ مسئولوها بطرح موضوع الوفد على بساط مناقشاتهم اليومية، واضعين في حساباتهم، أن أي فكرة اتصال رسمي ودائم بين إمارات الخليج والجامعة تشكل أخطاراً كبيرة منها على سبيل المثال:

أ ـ زيادة النفوذ المصري والعراقي في الخليج.

ب ـ إضعاف الروابط مع بريطانية.

جـ ـ تقوية المقاطعة ضد إسرائيل.

د ـ انغماس حكّام الإمارات بشكل أكثر في الشؤون العربية.

ولذلك لا بد من الوقوف موقفاً صلباً تجاه ذلك وخاصة فيما يتعلق بمسؤولياتهم عن الشؤون الخارجية، عن طريق النصح والضغط على الحكّام في آن واحد وإبلاغهم بأن أي اتصال رسمي مع الجامعة العربية سيكون سابقاً لأوانه وأنه لن يحظى بموافقتهم(١٠)

ومع اقتراب موعد قدوم وفد الجامعة العربية برئاسة الأمين العام، عبد الخالق حسونة، بدأ المسؤولون في المنطقة، وعلى رأسهم الحكّام التباحث مع المسؤولين البريطانيين في كيفية التعامل مع أعضاء الوفد، والخطوات والمواقف التي يجب اتخاذها فيما يتوقع أن يطرحه الوفد عليهم. فعلى سبيل المثال، بما أن البحرين كانت المحطة الأولى التي سيقوم الوفد بزيارتها في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤، انطلاقاً من الكويت، فقد اقترح حاكمها على الجهات البريطانية، أن يقوم بمقابلة الوفد بحفاوة مع عدم السماح لهم بعقد اجتماعات عامة، وأكد أنه إذا ما حاول الوفد الضغط عليه لتكون إمارته على علاقة مباشرة مع الجامعة العربية، فإنه سوف يرد عليهم بأن البحرين ليست مستعدة لهذه المبادرة في الوقت الراهن. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، طلب المقيم السياسي البريطاني في المنطقة من الحكّام عدم المبادرة في إثارة موضوع زيادة العلاقات الرسمية مع الجامعة العربية أو موضوع التمثيل الدائم لإماراتهم في الجامعة العربية(١١).

ومما هو جدير بالإشارة، أن السلطات البريطانية قد أثارت أثناء مداولاتها لموضوع زيارة وفد الجامعة، موضوع العلاقات الرسمية بين إمارات الخليج والجامعة، إذ فسرت تلك السلطات معنى العلاقات الرسمية على أنها تغطي أي شيء ابتداءً من العضوية الكاملة أو العضوية المشاركة، إلا أنها استبعدت طلب الوفد من الحكّام العضوية الكاملة، لأن ذلك يتضمن الاعتراف بهم كحكومات وحكّام مستقلين،

الأمر الذي يجعل من الصعب فيما بعد مهاجمتهم من قبل الجامعة ووصفهم بأنهم دمى بريطانية. وفي الوقت ذاته، وضعت تلك السلطات البريطانية، وعلى رأسها وزارة الخارجية، في اعتبارها أنه في حالة وجود توجه لدى هذه الإمارات الانضمام، أو الدخول في علاقات دائمة مع الجامعة العربية، أن ذلك سيجعل موقفها في غاية الإحراج في حالة رفضها لذلك، لأن جميع الاتفاقيات الشاملة المعقودة مع حكّام المنطقة، التي تنص على مسئوليتهم عن الدفاع والشؤون الخارجية لإمارات المنطقة، والتي تحول دون اتصال حكّام المنطقة وإقامة علاقات إلا بواسطتها. لم تشر إلى منع هؤلاء الحكّام من انضمام إماراتهم إلى أية منظمات دولية مثل الأمم المتحدة، أو الجامعة العربية، ولذلك من الممكن أن تثير الحكومات المناهضة لبريطانية في حالة منعها حكّام الإمارات من الدخول في علاقات رسمية مع الجامعة العربية، لأنهم يعدّون ذلك تجاوزاً لما جاء في الاتفاقيات المعقودة معهم، ومع ذلك فإن السلطات البريطانية أصرّت على عدم موافقتها دخول حكّام الإمارات في علاقات رسمية مع الجامعة العربية، لأن في ذلك تهديداً لمصالح بلادها في الخليج، لكون الجامعة ما هي إلا غطاء للتدخل المصري والعراقي في الشؤون المحلية لإمارات الخليج، ومن ثم الضغط عليها باتباع الخط الناصري بالإضافة إلى طلبها عدم استخدام العمالة غير العربية، ومقاطعة إسرائيل بشكل أكثر صرامة، وإلغاء التسهيلات الدفاعية البريطانية في البحرين والشارقة أو جعلها تطالب بثمن غالٍ مقابل تلك التسهيلات.

وتحسباً من تلك السلطات لما يمكن أن يواجهها من ردود فعل خارجية تجاه موقفها الرافض، دخول إمارات الخليج في علاقات رسمية مع الجامعة العربية، وضعت مجموعة من المبررات لموقفها السابق تمثلت في الآتي:

أولاً: أنه على الرغم من أنهم المسؤولين قانونياً عن الشؤون الخارجية لتلك الإمارات إلا أنهم لا يتدخلون عملياً في العلاقات بين تلك الإمارات والدول العربية الأخرى، سواءً داخل أو خارج الخليج، مثل تلك التي بين كل من

البحرين وقطر والمملكة العربية السعودية.

ثانياً: إن جميع الإمارات لا تقبل نصيحتهم، فقطر مثلاً تعمل خارج السرب، ولا تهتم بآرائهم، إذا كانت ضد مصالحها.

ثالثاً: انضمت قطر إلى الأوبك، وأصبحت عضواً مشاركاً في اليونسكو، ومنظمة الصحة العالمية، وهي الآن على بعد خطوة من العضوية الكاملة في هذه المنظمات. وسيكون من الصعب علينا منع ذلك(١٢).

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من المبررات الآنفة الذكر، التي أعدّتها السلطات البريطانية للرد على ما يمكن أن يواجه موقفها من قبل الرأي العام الخارجي بالنسبة لموضوع علاقات إمارات الخليج مع الجامعة العربية، فإن تلك السلطات توقعت أن ذلك المنع سيشجع البلاد العربية الكبرى في تغيير الوضع في الخليج، وإجراء المزيد من المحاولات للتدخل في علاقاتها مع حكّام الخليج(١٣).

وفي مسعى آخر من قبل السلطات البريطانية وفي إطار نفس المسألة، سارع وكيلها السياسي بإجراء محادثات مع كل من حكّام أبو ظبي وقطر والشارقة ودبي لاستجلاء موقفهم من وفد الجامعة، حيث كانت نتيجة تلك المحادثات، أن أعرب حاكما قطر ودبي عن مخاوفهما من أن زيارة الوفد قد تكون خطوة أولى للتدخل المصري والصراع في الخليج، وما ستجلبه تلك الخطوة من أخطار على العلاقات البريطانية مع إماراتيهما، مشيرين إلى أنهما سوف يرحبّان بالزيارة، ويستمعان إلى ما سيقال، ولكن ليس في نيتهما الموافقة على عمل علاقة مع الجامعة العربية كفتح مكاتب للجامعة في بلديهما أو تمثيل إمارات الخليج فيها، وقد أعربا في الوقت ذاته عن قلقهما حول توجه حاكم الشارقة الذي بدأ يظهر نوعاً من الاستعداد للتعاون مع الجامعة العربية وقد هاجماه بقوة، في حين أكد حاكم الشارقة خلال تلك المحادثات للوكيل السياسي أنه لن يدخل في أية التزامات مع الجامعة العربية بدون التشاور مع السلطات البريطانية،

طالباً النصيحة حول ما سيكون ردّه إذا قدّم الوفد له إعانة مالية للتنمية في إمارته والتي هو بحاجة شديدة لها، فردّ عليه الوكيل السياسي أن ذلك يعتمد على شروط العرض، وما إذا كانت هناك ذيول سياسية له، فكان رد الحاكم أنه لا توجد ذيول، متعهداً بإحاطة السلطات البريطانية بما سيدور بينه وبين الوفد بالكامل. أما حاكم أبو ظبي فقد أعرب عن نفس الموقف الذي كان قد أعرب عنه حاكما قطر ودبي(١٤).

ومن الضرورة بمكان أن نشير هنا وفي صدد نفس المسألة، أنه في نفس الوقت الذي تحركت فيه السلطات البريطانية للاتصال بحكّام الخليج، كان هناك مسعى سعودي مماثل للسعي البريطاني من أجل إقناع حكّام الإمارات المذكورة في اتخاذ موقف سلبي تجاه ما يطرح عليهم من قبل وفد الجامعة العربية، حيث قام السفير السعودي في الكويت محمد المنصور، بالاتصال بحاكم أبو ظبي الشيخ شخبوط صباح يوم ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، وهو نفس يوم وصول الوفد إلى أبو ظبي قادماً من قطر، طالباً مقابلته على عجل، وقد تم له ذلك في مساء نفس اليوم، حيث أبلغ السفير الشيخ شخبوط تحيات الأمير فيصل بن عبد العزيز، الذي كان آنذاك ولياً للعهد كاشفاً له في بداية الأمر عن أنه تم توجيهه من قبل الأمير فيصل ليراقب أعضاء وفد الجامعة، مبدياً بَعد ذلك للشيخ استعداد بلاده تقديم أية مساعدات له، موضحاً في الوقت ذاته سبب زيارته له، بأنه كلف من قبل الأمير فيصل بتقديم النصح له بعدم الارتباط مع وفد الجامعة بأية التزامات كالالتزام بالانضمام للجامعة العربية، وقد طلب إليه كذلك أن يثير مع عبد الخالق حسونة موضوع الإهانات المستمرة من راديو صوت العرب والقاهرة الموجه إلى حكّام بعض الدول العربية، مشيراً بأن حاكمي قطر والبحرين قد أثارا موضوع تلك الإهانات مع عبد الخالق حسونة.

وقد عمل حاكم أبو ظبي الشيخ شخبوط بنصيحة السفير السعودي حينما قابل أعضاء الوفد في يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر، رغم الجو الودي الذي فرضه الأمين العام للجامعة على المقابلة حيث بدأ حديثه بكلمات معسولة، بحسب ما ذكر في

المصادر البريطانية، مبدياً استعداد الجامعة تقديم أي نوع من المساعدة لإمارته، منهياً حديثه بالترحيب بانضمام إمارته للجامعة العربية، فرد عليه الحاكم بالشكر، وبكلمات ودية ثم أضاف قائلاً لعبد الخالق: أنه يشعر بألم من الإهانات المستمرة من راديو القاهرة للزعماء العرب مشيراً أن هذا الأمر شاذ وغريب على العرب المعروفين بأدبهم تجاه الآخرين، ونتيجة لذلك ظهرت علامات الإحراج على وجه عبد الخالق، وللخروج عن إطار ما أثاره الحاكم، وافقه على كلامه، ثم حول الموضوع إلى بعض القضايا العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية والوحدة العربية، ومدى حاجة العرب إليها، ومع ذلك فقد كان جو اللقاء ودياً(١٥).

ونظراً للتحفظ الشديد تجاه وفد الجامعة العربية من قبل الحكّام، فإن حاكم دبي الشيخ راشد بن مكتوم أرسل أحد الشخصيات التجارية من إمارته، وهو ثويني بن عبد الله، لاستشفاف ما جرى بين حاكم أبو ظبي وأعضاء وفد الجسعة، تحت غطاء أنه جاء لمصاحبتهم إلى دبي كنوع من الترحيب بهم، فوصل الوفد إلى دبي يوم ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ،واستقبل استقبالاً رسمياً وجماهيرياً في مطار دبي، وكعلامة من علامات الترحيب قام البعض بمظاهرة هتف باسم عبد الناصر، وبالشعارات المعادية للاستعمار، وقد خرجت المظاهرة المذكورة بعض الأحيان عن إطارها السلمي، مما أدى إلى جرح عدد من رجال الشرطة والوكيل السياسي البريطاني، الأمر الذي جعل الحاكم يصدر أوامره بتفريقها بالقوة. ومع ذلك فقد جرت المحادثات بين حاكم دبي والوفد في جو ودي متخذة نفس النهج الذي اتخذته مع حاكم أبو ظبي، وكان للسفير السعودي دور كبير في ذلك بسبب اجتماعه بالشيخ راشد قبل اجتماع الأخير بالوفد. وقد أشار الشيخ راشد إلى مجمل محادثاته مع الوفد ذاكراً أن الوفد عرض عليه موضوع المعونة التي يرغب الحصول عليها، إلا أنه من جانبه لم يعطه إجابة محددة، بالإضافة إلى ذلك ذكر أن الوفد أثار معه موضوع هجرة الإيرانيين، فكان ردّه، أن هذا الموضوع مبالغ فيه، ومن فعل الدعايات المغرضة، موضحاً لهم أن الإيرانيين

والجاليات الأخرى يَعدّون من مواطني دبي، وهم مفيدون للمجتمع. وبخلاف الموضوعين المذكورين فقد أوضح الشيخ راشد بأن الوفد لم يثر معه موضوع إنشاء مكتب للجامعة في إمارته(١٦).

ومما هو جدير بالإشارة أن سبب إثارة وفد الجامعة لموضوع الهجرة الإيرانية لدبي وغيرها من الإمارات عائد لتولد قناعات في أوساط الجامعة العربية أن هذه الهجرة نتيجة لسياسة مشتركة بين بريطانية وإيران الهدف منها في حالة نجاحها تحقيق ما يلي:

أولاً: أن تكون إيران الوريث النهائي لبريطانية في المنطقة كنظرة مستقبلية.

ثانياً: كمحاولة للحفاظ على الوجود البريطاني من خلال تحذير هذه الإمارات بحاجتها إليها لحماية ما يسمى باستقلالها.

ثالثاً: استخدام إيران كورقة ضغط يمكن أن تلعب بها الإمبريالية البريطانية في المنطقة(١٧).

غادر وفد الجامعة بعد انتهاء محادثاته في دبي إلى الشارقة، وذلك في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر، تصاحبه أعداد كبيرة من الجماهير تضمّ تلاميذ المدارس وعمال عدنيين ويمنيين وبعض الإيرانيين، حيث قام معلّمو المدارس بجمعهم، وكانت الشارقة مزدانة منذ إعلان قدوم الوفد إليها بالأعلام والأقواس. وقد ذكرت بعض المصادر ان حاكم الشارقة الشيخ صقر بن محمد القاسمي، طلب ٥٠٠ روبية من كل تاجر لشراء الأعلام، وهدد بغرامة مالية قدرها ٥٠٠ روبية يدفعها كل شخص لا يعلق علماً، وكانت أغلب الأعلام هي أعلام للجمهورية العربية المتحدة، لأن الناس كانوا يجهلون علم الجامعة العربية.

وقد أثار الوفد مع حاكم الشارقة نفس الموضوعات التي أثارها مع حاكم دبي، وقد

ذكرت بعض المصادر أن الشيخ صقر أظهر تعاطفاً وحماساً كبيرين تجاه ما طرح عليه من قبل الوفد وخاصة ما يتعلق بالمعونة بأشكالها المختلفة، إلا أنه لم يعطِ موافقته النهائية على ذلك وطلب تأخيرها إلى وقت لاحق وأيده في ذلك كل من عضوي دولة الكويت والعراق في الوفد(١٨).

وقد غادر الوفد في اليوم التالي من زيارته للشارقة إلى عجمان وأم القوين والفجيرة ورأس الخيمة التي كانت اكثر احتفالاً بالوفد، حيث ظهرت الأعلام والأقواس، وقد فسَّر ذلك أن حاكم رأس الخيمة الشيخ صقر بن سالم القاسمي كان يرغب في مناقشة مصدر محتمل للإعانة، وهذا ما حدث خلال محادثاته مع الوفد إذ تقدم بطلبات محددة للمساعدة في مجال الصحة والكهرباء والزراعة، وقد تلقى الحاكم وعداً من الوفد بدراسة ما طالب به(١٩).

وعلى إثر إنهاء الوفد جولته الخليجية في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر، قام بتقديم تقرير مفصل عما دار بينه وبين حكّام المنطقة، بالإضافة إلى إعطاء صورة كاملة للوضع القائم آنذاك مقدماً عدة مقترحات لمعالجة الوضع فيها كان من أهمها، تنظيم مساعدات مادية لإمارات الخليج على أن تستثنى من ذلك البحرين وقطر وأبو ظبي لوفرة الدخل فيها ثم تأتي الشارقة ودبي بعد هذه الإمارات، أما الإمارات الأكثر احتياجاً إلى المعونات العربية فهي الإمارات الصغيرة كعجمان، ورأس الخيمة، وأم القوين، والفجيرة، وذلك حتى لا تضطر إلى قبول ما يعرض عليها من مساعدات إيرانية، كما جاء ضمن الاقتراحات إرسال بعثة تضم خبراء في مجال الطرق والكهرباء والمياه والزراعة والتجارة والتنمية الاقتصادية بالإضافة إلى ذلك دعم التعاون الثقافي والصحي والاجتماعي والاقتصادي ما بين دول الجامعة العربية وهذه الإمارات والعمل على إنشاء مكاتب للتنمية للجامعة العربية في إمارات ساحل عمان،

وكذلك النظر في تطوير وفد الجامعة العربية بحيث يصبح لجنة دائمة* للإشراف على تنفيذ الخطط العربية للمنطقة. وبخلاف ذلك فقد تضمن أحد الاقتراحات وقف جميع الحملات الإذاعية والصحفية ضد حكّام الإمارات والمسؤولين فيها تهيئة لجو التعاون المطلوب أو الاقتصار على نشر الوعي العربي وتنمية الروابط الأخوية(٢٠).

تمَّ عرض جميع المقترحات السابقة على اجتماع رؤساء الحكومات العربية الأول الذي عقد في كانون الثاني/يناير ١٩٦٥، حيث وافق عليها الجميع، بالإضافة إلى اتخاذ قرار بإنشاء صندوق في الجامعة العربية لإنشاء المشروعات، وتشكيل لجنة دائمة برئاسة الأمين العام تضم أعضاء من الدول العربية المساهمة في الصندوق(٢١).

بناءً إلى ما سبق لا بد من طرح السؤال التالي، ما هو رد الفعل البريطاني تجاه تلك المقترحات؟

قبل الإجابة عن السؤال المذكور، من الأهميّة بمكان الإشارة إلى أن الإجابة عن السؤال تطول، وقد تشغل أغلب الصفحات القادمة من الدراسة، لكونها تتناول أدقَ التفاصيل حول الموقف البريطاني تجاه مقترحات الجامعة العربية، وهذا ما تريد الدراسة توضيحه والتأكيد عليه.

فالموقف البريطاني كما مر بنا في السابق كان يتوجس خيفة من تحرك الجامعة العربية على الساحة الخليجية، ولذلك كانت السلطات البريطانية تراقب كل تحركات الوفد خلال زيارته المنطقة، محاولة التأثير بطريق مباشر أو غير مباشر في زرع المخاوف في نفوس الحكّام تجاه أهداف الوفد، ثم قيامها بعد ذلك بطرح مشروعات شبيه بالمشروعات التي اقترحها وفد الجامعة العربية بعد جولته الاستطلاعية للمنطقة، والتي تمت الموافقة عليها بالفعل في اجتماع مجلس الجامعة العربية في كانون

---

* سوف يطلق على اللجنة اسم (لجنة الخليج).

الثاني/يناير ١٩٦٥، وخاصة بما يتعلق بإنشاء صندوق الجامعة العربية لتنمية إمارات ساحل عمان، تساهم فيه الدول العربية الأعضاء في الجامعة وبعض بلدان الخليج الغنية كالكويت وقطر وأبو ظبي والبحرين. وكانت أولى خطوات التحرك البريطاني لإفشال ذلك المشروع، قيامها في أول آذار/مارس ١٩٦٥، بواسطة مقيمها السياسي في الخليج السير وليم لوس W.Luce في الاجتماع الذي عقده مجلس الإمارات المتصالحه* بإقناع حكّام الإمارات بإنشاء مكتب للتطوير ينبثق منه صندوق للتنمية ترد إليه جميع المساعدات المالية، واعتبار هذا الصندوق هو القناة الوحيدة لأية معونات، ولتغطية موقف حكّام الإمارات الذين وافقوا على ذلك، قامت السلطات البريطانية على تشجيع كل من حكّام أبو ظبي وقطر والبحرين للمساهمة بمليون جنيه إسترليني للصندوق لتغطية نفقات مشروعات جديدة متفق عليها مع الحكّام قبل ذلك، بالإضافة إلى قيام المقيم السياسي برفع توصية لحكومته بضرورة المساهمة بمبلغ مليون جنيه إسترليني لصندوق التنمية، لأن هذا المبلغ سوف يساعد على وجود فائض قدره نصف مليون جنيه يمكن توظيفه في مشروعات جديدة خلال ١٩٦٥-١٩٦٦، الأمر الذي يساعد في تماسك إمارات الساحل، بالإضافة إن ذلك سيقوي المنافسة تجاه جهود الجامعة العربية في المنطقة، مع العمل على أن تتجه الجهود والمساعي للمحافظة على إبقاء كل من عجمان وأم القوين والفجيرة، في خط واحد مع قرار مجلس حكّام الإمارات المتصالحة في الأول من آذار/مارس، مع أن حكّام تلك الإمارات قد أرسلوا خطابات إلى الأمين العام المساعد للجامعة العربية السيد نوفل، مبدين موافقتهم على دعم الجامعة لهم، واعتبروا أن ذلك لا يتعارض مع القرار الأخير(٢٢). ومع ذلك وفي الوقت ذاته فقد كانت السلطات البريطانية ذاتها منزعجة تمام الانزعاج من مواقف كل

* مجلس اقترحته بريطانية ١٩٦٣، وذلك لمناقشة الأمور المشتركة بين الإمارات، وجعل الهدف من إنشائه تنسيق خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإقرار القضايا ذات الطبيعة الواحدة لجميع الإمارات.

من حاكمي رأس الخيمة والشارقة بسبب موافقة الأول على فتح مكتب للجامعة في إماراته وبالتالي اعتبرت مشكلتها معه معقدة، لذلك عقدت العزم على ممارسة ضغوط عليه بكل الوسائل حتى يلغي قراره المذكور، بينما رأت في حاكم الشارقة الشيخ صقر بن محمد القاسمي الذي كان يبدي تعاطفاً كبيراً مع الأفكار القومية العربية، ظهر هذا واضحاً في حماسه الشديد لنشاط الجامعة العربية، وموافقته على فتح مكتب للجامعة العربية في إمارته، واصفة إياه بأنه بذلك يحرق سفنه، بمعنى أنه وصل إلى خط اللارجعة فيما هو عاقد العزم عليه، ولذلك ومن أجل إحباط ما كان يسعى إليه، قامت بتحريك بعض المسؤولين في المنطقة من أجل إقناعه بتغيير موقفه، وكان على رأس هؤلاء المسؤولين الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ولي العهد ونائب حاكم قطر، وكذلك الشيخ خليفة بن سلمان من البحرين، وأكثر من ذلك فإن حاكم قطر ونائبه، قد أبديا في ١٣ آذار/مارس ١٩٦٥، استعدادهما لمساعدة الشيخ صقر إذا كانت لديه مشاكل مالية أو ديون متراكمة في مقابل أن يسحب موافقته على فتح مكتب للجامعة العربية في إمارته، وكبديل للخطوة السابقة فإن السلطات البريطانية وضعت عدة بدائل في حالة فشل الخطوة المذكورة يمكن بواسطتها تكدير حياة الشيخ صقر وخاصة في حالة تجاهله تحذيرات وزير الخارجية البريطانية طومسون ـ Thomson له في ١٢ أيار/مايو عام ١٩٦٥ أثناء زيارته له، كان منها على سبيل المثال:

أولاً: إغلاق مهبط القوات الجوية الملكية أمام حركة الطيران المدني الأمر سيجعل موظفي الجامعة العربية ينزلون في مطار دبي، وبالتالي تمكين شرطة دبي مراقبة تحركاتهم بدقة.

ثانياً: تشجيع شيخ الحمريه وكذلك حث الشيخ راشد حاكم دبي على تحريك بني قتب الذين يعتبرون من أكبر القبائل في إمارة الشارقة في إحداث مشاكل للشيخ صقر وأن يصاحب ذلك إعلان الرفض وعدم التدخل في ذلك من جانبها.

ثالثاً: قطع التيار الكهربائي عنه!!

رابعاً: العمل على تهميش العلاقة بينها -أي السلطات البريطانية- وبين الشيخ صقر اللهم في حالة الضرورة، وأكثر من ذلك قطع الاتصالات بين زوجات موظفي الوكالة البريطانية من البريطانيين وقريبات الشيخ صقر وأن يكون ذلك بشكل ظاهري(٢٣).

ومما هو جدير بالإشارة أن وتيرة القلق البريطاني وسلطاتها قد زادت تجاه نشاط الجامعة العربية على إثر الزيارة التي قام بها الأمين العام المساعد للجامعة العربية سيد نوفل للإمارات في الفترة من ١١-١٣ أيار/مايو عام ١٩٦٥، وإبلاغه الحكّام خلالها أن الجامعة قد جمعت ٤٠٠ ألف جنيه إسترليني من مصر، و٢٥٠ ألف جنيه من كل من العراق والكويت أي ٩٠٠ ألف جنيه للعام الأول لبرنامج تنمية الإمارات، وأعطى كل حاكم قائمة بالمشروعات التي سيتم تنفيذها في إمارته* طالباً من كل واحد منهم التوقيع على خطاب يرّحب بمعونة الجامعة العربية بدون شروط.

ويمكن تفسير طلب الأمين العام المساعد للجامعة من الحكّام الترحيب بمعونة الجامعة العربية دون شروط كخطة للالتفاف حول خطة بريطانية التي كانت ترمي إلى تحجيم دور معونات الجامعة، وجعلها تصب في صندوق تنمية إمارات الساحل الذي أعلن عنه في اجتماع أول آذار/مارس ١٩٦٥، لحكّام إمارات الساحل وبوحي من بريطانية.

واستجابة لطلب الأمين العام المساعد للجامعة، قام كل من حكّام الفجيرة وعجمان وأم القوين بالتوقيع على خطاب ترحيب قبولهم.معونة الجامعة، بينما قام حاكم كل من الشارقة وراس الخيمة بأكثر من ذلك حينما قاما بالإضافة إلى ذلك بالموافقة على

---

* لمعرفة تفاصيل تلك المشروعات انظر. سيد نوفل. **المرجع السابق**، ص٢٣٥-٢٣٦.

توفير مكاتب للتنمية تابعة للجامعة العربية في إمارتيهما، أما حاكم دبي فكان على عكس جيرانه، فلم يبدِ موافقته سواءً على التوقيع على الخطاب أو فتح مكتب للتنمية خاص بالجامعة العربية في إمارته، مبرراً ذلك بأن القناة الوحيدة للمعونة هي مكتب التنمية التابع لدول الساحل والذي أنشأ بقرار من مجلس حكّام إمارات الساحل في ١ آذار/مارس عام ١٩٦٥(٢٤).

وإزاء ما نشأ عن زيارة الأمين العام المساعد للجامعة تحركت الجهات المعنية البريطانية سواءً في المنطقة أو في لندن من أجل إيقاف وتعطيل مشروع الجامعة التنموي في إمارات الساحل، لأنها كانت في حالة نجاح الجامعة العربية في مشروعها، سوف تتعقد علاقتها مع إمارات الساحل خاصة، والمنطقة بوجه عام، فعلى مستوى إمارات الساحل، إنه من شأن ذلك المشروع إحداث المزيد من الانقسامات بينها، وبالتالي صعوبة تحقيق أي نوع من الاتحاد تحت مظلتها مما يقلل أهميتها في الخليج بما في ذلك البحرين وسلطنة عمان ومسقط وفوق ذلك ستجعل كل من إيران والسعودية تفقد ثقتها في قدرة الحكومة البريطانية على التحكّم في مقاليد الأمور في الخليج، الأمر الذي ربما يدفعهما إلى اتخاذ إجراءات مستقلة لحماية نفسيهما مما يؤدي إلى ارتفاع وتيرة الاضطرابات في المنطقة.

ولمواجهة ذلك الوضع عقدت لجنة مشكّلة من مجلس الوزراء والدفاع والسياسة الخارجية، اجتماعاً في ٢٠ أيار/مايو عام ١٩٦٥، اقترح وزير الخارجية خلاله ثلاثة اقتراحات من أجل إفشال مشروع الجامعة العربية كانت على النحو التالي:

أولاً: تقديم معونة تنموية إضافية فورية إلى إمارات الساحل فوق المبلغ ال٢٠٠ ألف جنيه إسترليني الذي كانت الحكومة البريطانية تدفعها سنوياً.

ثانياً: إقناع حاكم الشارقة بسحب التزامه بقبول فتح مكتب للجامعة العربية في إمارته، وإذا لم يتم ذلك لآبد حينئذ النظر في طرق أخرى للتعامل معه.

ثالثاً: التشاور مع أصدقائنا خاصة السعوديين والأمريكان حول طرق التعاون لمواجهة هذا التهديد.

وقد نوّه وزير الخارجية أثناء طرحه لاقتراحاته المذكورة بأن الاقتراحين الأخيرين، أكثر عملية من ناحية تطبيقهما والأخذ بهما، لأنه كان يرى في الأول صعوبة تنفيذه، بسبب عدم موافقة وزارة المالية توفير المبلغ المقترح من قبل السلطات البريطانية المعنية في الخليج العربي قبل ذلك، وهو مبلغ مليون جنيه إسترليني، والموافقة فقط على مبلغ ٥٠٠ ألف جنيه، لثلاثة أعوام قادمة، وبالتالي فإن المبلغ الذي تساهم به الحكومة البريطانية، متواضع مقارنةً بالمبلغ الذي رصد من قبل الجامعة العربية، وهو مبلغ ٩٠٠ ألف جنيه إسترليني للعام الواحد فقط، مما يخلق انطباعاً لدى حكّام الساحل بعدم جديتنا في مساهمتنا لتنمية إماراتهم(٢٥).

وعلى ضوء ما جاء في اقتراحات وزير الخارجية، وخاصة بما يتعلق بالاقتراحين الأخيرين، وبالذات الاقتراح الثالث، نشطت الجهات البريطانية المسؤولة في المنطقة في تفعيل ما جاء في الاقتراح السابق، وخاصة بعد وصول تأكيدات للمقيم السياسي البريطاني في الخليج من الملك فيصل* عن طريق مبعوثه، بأنه على استعداد لدفع مبلغ مليون جنيه إسترليني، لصندوق تنمية إمارات الساحل، في مقابل إرسال حكّام تلك الإمارات برقيات له يعلنون فيها قبولهم تلك المعونة، مع التأكيد في الوقت ذاته بأن المبلغ المذكور لن يرسل إلا بعد إبعاد الجامعة العربية من المنطقة.

يبدو لنا أن هذا الموقف من قبل الملك فيصل آنذاك تجاه مجهودات وخطط الجامعة العربية، كان بدافع الخوف الذي يسيطر عليه وخاصةً من جانب مصر والعراق، وكان

---

* تولي فيصل مقاليد الحكم في السعودية بعد تنازل الملك سعود له عن الحكم في آذار / مارس ١٩٦٥ بضغط من الأسرة المالكة وعلماء الدين.

فيصل يعتبرهما من مصدري الأفكار الثورية والتحررية للمنطقة. يضاف إلى ذلك أن كلاً من مصر والعراق كانا ينافسان السعودية في قيادة المنطقة وبالتالي يحولان دون الزعامة المنتظرة للسعودية في المنطقة، وبخلاف ذلك، فإن فيصل كان يرى أنه في حالة نجاح إنشاء مكاتب للجامعة فإن تلك المكاتب ومن خلال تأثيرات مصرية وعراقية ستلعب دوراً كبيراً في تطويق السعودية من جميع الجهات، خاصة بعد قيام الحكومة الثورية في اليمن بالإطاحة بنظام الإمامة فيها.

وعلى ضوء عرض الملك فيصل، أجرى الوكيل السياسي البريطاني في دبي بناء على توجيه من المقيم السياسي البريطاني، محادثات مشتركة مع كل من حكّام أم القوين والفجيرة وعجمان، لمعرفة موقفهم من العرض المذكور، إلا أن الثلاثة رفضوا العرض وكذلك رفضوا إرسال الخطابات المشار إليها، وكانت حجتهم أنهم لم يساعدوهم قبل ذلك في تطوير أو تنمية إماراتهم، والآن لديهم عرض الجامعة العربية لمشروعات تنموية وأموال لتنفيذها، مؤكدين في النهاية أنه في كل الأحوال فهم يضمنون عدم تدخل الجامعة العربية سياسياً في شؤونهم، رابطين الموافقة على إرسال البرقيات إلى الملك فيصل بتعهد الحكومة البريطانية لهم كتابة على منع الصقرين ــ أي حاكمي الشارقة ورأس الخيمة ــ السماح بتنفيذ مشروعات الجامعة العربية ودخول موظفيها إلى إمارتيهما، واتخاذ الإجراءات اللازمة إذا رفضا ذلك...

ونتيجة لذلك حثّ مبعوث الملك فيصل المقيم السياسي البريطاني على فعل أي شيء ممكن لتغيير موقف الحكّام الثلاثة، وذلك لتفويت الفرصة وعدم طرح مشروع تنمية إمارات الساحل على مجلس الجامعة العربية في ٢٦ أيار عام ١٩٦٥، من أجل التصديق عليه، وأكثر من ذلك فقد اقترح المبعوث أن يتحدث البريطانيون مع الكويتيين لكي يقترحوا ــ أي الكويتيين ــ في اجتماع مجلس الجامعة المذكور، إصدار قرار بتأجيل مشروع معونة تنمية إمارات الساحل إلى الاجتماع القادم استناداً إلى عدم موافقة الحكّام على الطريقة التي يتم فيها منح المعونة(٣٦).

ويمكننا تفسير الطلب السعودي قيام الكويتيين باقتراح تأجيل الموافقة على مشروع تنمية الساحل، إلى إن السعوديين كانوا لا يريدون الدخول في مواجهة مكشوفة مع أعضاء مجلس الجامعة العربية وخاصة مع مصر والعراق بالتالي اتهامهما لهم بأنهم وراء مخطط تعطيل مشروع الجامعة العربية، وفوق ذلك لإظهار أن هذا الاقتراح جاء من جانب أحد أعضاء لجنة الخليج المكلفين لمتابعة مشروع الجامعة، وبالتالي يكون الأمر طبيعياً لأعضاء الجامعة ويبقي الاقتراح تأييداً منهم إلى حد ما.

والحقيقة كانت السلطات البريطانية تشعر بصعوبة الموقف، وعلى رأسها المقيم السياسي البريطاني السير وليم لوس، وخاصة أنه كان متشككاً في إمكانية نجاح ما اقترحه مبعوث الملك فيصل، ولذلك كان يرى ضرورة اتخاذ موقف صلب وسريع بشأن موقفهم ومصالحهم المستقبلية في الخليج العربي، وخاصة تجاه أهداف الجمهورية العربية المتحدة، والجامعة العربية، قبل الاجتماع التالي لمجلس الجامعة العربية في يوم ٢٦ أيار/مايو، لأن جميع حكّام الخليج والسعودية، كانوا يعتبرون الموقف الناشئ عن خطط الجامعة العربية في المنطقة، يمثّل تحدياً لتصميم الحكومة البريطانية على مواجهة أخطار التدخل المصري وكيفية معالجته[٢٧]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى باتت كذلك وزارة الخارجية البريطانية على قناعة تامة بأن علاقتها مع حكّام الخليج قد وصلت إلى مرحلة صعبة بسبب محاولاتها تدخل الجامعة في المنطقة، وشاركت المقيم السياسي رأيه في ضرورة اتخاذ موقف صلب لاستعادة المسؤولين في المنطقة ثقتهم في بريطانية، ولذلك بات من الضروري عزل حاكم الشارقة وقريبه حاكم رأس الخيمة، واضعةً في اعتبارها أنه لتحقيق ذلك لابد من الاستفادة لأقصى حد من رغبة السعودية في التعاون مع بريطانية تجاه خطط الجامعة العربية، وبالمساهمة الجدية لها في صندوق تنمية إمارات الساحل، مع التأكيد على عدم الدخول في مواجهة مفتوحة مع الجامعة العربية، مع الإصرار في الوقت ذاته على أن يكون الحكّام على علم بأن الحكومة البريطانية مستعدة، وبقوة، لمنع فتح

مكاتب للجامعة العربية في إمارات الساحل، وأن الحكومة البريطانية سوف تتخذ الإجراءات الضرورية إذا رفض أي حاكم قبول نصيحتها في هذا الشأن. وفي الوقت ذاته، أصدرت الخارجية البريطانية تعليماتها لمقيمها السياسي في المنطقة، بأنه في حالة محاولة موظفي الجامعة العربية الدخول للشارقة لابد من اتخاذ إجراء إداري للتدخل. مثل الإعلان أن مطاري الشارقة ودبي غير مستعدين حالياً لخدمة الطيران المدني، وإذا ما وصلت الطائرات المقلة لأولئك الموظفين بشكل مفاجئ عندئذٍ يجب عدم منحها حق الهبوط استناداً إلى عدم وجود تأشيرات دخول لهم ــ أي الموظفين ــ.(٢٨)

وفي محاولة من الخارجية البريطانية، لتفعيل الدور السعودي، وإمكانية لعبه دوراً رئيساً في الموضوع، أرسلت إلى سفيرها في جدة في ٢٤ أيار/مايو عام ١٩٦٥ لإبلاغ الملك فيصل، وعلى عجل بأن الحكومة البريطانية مستعدة للوقوف بصلابة ضد إنشاء مكاتب للجامعة العربية في إمارات الساحل، شريطة أن تساهم الحكومة السعودية بمبلغ مليون جنيه لصندوق تنمية إمارات الساحل في وقت لاحق، مع ضرورة توضيح أن الحكومة البريطانية وكلاً من قطر وأبو ظبي والبحرين، قد ساهمت في الصندوق المذكور ولكن مع ذلك فإن المساهمة السعودية مطلوبة بشكل عاجل، مع التنويه بأنه –أي البريطانيون– يأملون في أن يتمكن السعوديون في اتخاذ عمل فعال في الجامعة العربية لعرقلة خطط الأخيرة في إنشاء مكاتب مستقلة في إمارات الساحل، وإذا فشلوا في ذلك فيكون البديل الآخر هو العمل على الأقل على تأجيل إصدار قرار الجامعة بإنشاء المكاتب المذكورة.(٢٩) ومن ناحية أخرى، قام الوكيل السياسي البريطاني بالفور Balfour، في دبي بإجراء عدة مقابلات يوم ٢٥ أيار/مايو ١٩٦٥ مع نوّاب في كل من قطر والبحرين وأبو ظبي ودبي، للوقوف على جهودهم ومحاولتهم في إقناع حاكمي عجمان وأم القوين بإرسال برقيات للملك فيصل يقبلون فيها المساهمة السعودية، إلا أن الحكّام أبلغوه بأن جهودهم باءت بالفشل،

منوهين بضرورة قيام بريطانية بعمل ما، مؤكدين في الوقت ذاته، أن أي إجراء تتخذه الحكومة البريطانية بشأن منع إنشاء مكاتب للجامعة، سوف يقومون بتأييده مائة في المائة، ذاكرين أنهم على ثقة بأن المعونة السعودية سوف تصل إذا لم يكن هناك مكاتب للجامعة العربية.

وفي عصر اليوم ذاته، قام الوكيل السياسي بمقابلة حاكم عجمان لاستطلاع رأيه، فكان رد الحاكم، بأنه سوف يرسل برقية للملك فيصل، إذا وافق حاكم أم القوين على ذلك، وبعد ذلك قابل الوكيل السياسي حاكم أم القوين الذي ربط موافقته على إرسال البرقية بعد التشاور مع حاكمي الشارقة ورأس الخيمة، وطلب منه الاتصال بهما وبالحكّام الآخرين لعقد اجتماع في صباح اليوم التالي لمناقشة الأمر، غير أن الوكيل السياسي لم يأخذ برأيه لأنه كان يرى في ذلك وسيلة للاختفاء وراء الحاكمين المذكورين.[٣٠] وفي مسار الموضوع ذاته وموضوع مكاتب الجامعة، قام المقيم السياسي من جانبه في اليوم التالي -أي يوم ٢٦ أيار/مايو- بمقابلة حاكم رأس الخيمة الذي اعترف، أنه وفر مكاناً لمكتب الجامعة العربية في إمارته ذاكراً للمقيم، أنه لم يتوقع أن تتأثر علاقته مع الحكومة البريطانية إلى هذه الدرجة، مؤكداً له أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً آملاً أن تكون العواقب غير وخيمة. وفي الوقت ذاته امتنع المقيم السياسي عن مقابلة حاكم الشارقة، لأنه كان على علم بموقفة الرافض مسبقاً من خلال حاكمي قطر والبحرين * المساعي غير المجدية بشأن إقناع الحكّام المذكورين من أجل تغيير مواقفهم السابقة. تولدت لدى المقيم السياسي قناعة بضرورة اتخاذ إجراءات فورية ضد حاكمي عجمان وأم القوين، مستفيداً من وجود بعض نواب حكّام المنطقة في دبي، لإبلاغهم بنية حكومته على منع فتح مكاتب للجامعة الغربية، قبل معرفة الموقف السعودي، مقترحاً على الجهات المعنية في حكومته ضرورة إبلاغ الجامعة بأسلوب فيه شيء من الدبلوماسية، أن الحكومة البريطانية ترحب بمعونة الجامعة ووجود مندوب لها في مكتب تنمية إمارات الساحل، ولكنها لن تسمح للجامعة بفتح

مكاتب خاصة لها في تلك الإمارات(٣١).

ويبدو لنا أن هدف المقيم السياسي من تلك الخطوة، هو إحداث شرخ في مواقف حكّام الإمارات الأربع، بالإضافة إلى التأكيد لحاكمي الشارقة ورأس الخيمة بأن الحكومة البريطانية، عاقدة العزم وبشكل جاد على منع الجامعة العربية في سعيها لفتح مكاتب لها في إمارات الساحل وتنفيذ سياستها من خلالها.

وفي الوقت الذي كان يبذل فيه المسؤولون البريطانيون في المنطقة محاولاتهم لمواجهة سعي الجامعة لفتح مكاتب لها في الخليج، وصلت للخارجية البريطانية من سفيرها في جدة مستر مان Mr. Man، في ٢٩ أيار/مايو عام ١٩٦٥، برقية تفيد بأن نائب الوكيل الدائم لوزارة الخارجية السعودية أبلغه بأن الوفد السعودي في القاهرة، نجح في إحباط محاولة مصرية لإدراج موضوع الخليج في أجندة اجتماع الجامعة العربية القادم، استناداً إلى أن هناك لجنة خاصة للجامعة تتعامل مع هذا الموضوع، وأضافت البرقية أن نائب الوكيل الدائم، أكّد له وعلى لسان الملك فيصل أن الحالة في الخليج تحت النظر في الرياض، وأن جلالته سوف يتخذ قراراً بشأن المساهمة السعودية بعد وصوله إلى الطائف في ٢ حزيران/يونيو، وأن سبب التردد السعودي في استعجال إرسال المساهمة راجع إلى تخوف السعوديين بأن يظهروا في دور الشركاء في مؤامرة إمبريالية تقودها بريطانية ضد القومية العربية، وخاصة أن هناك في ذلك الوقت أربعة حكّام من الخليج من بين سبعة يقفون ضدنا(٣٢).

وفي تطّور جديد للوضع تسربت أخبار للسلطات البريطانية بأن الحكّام الأربعة الذين عقدوا العزم على التعامل مع الجامعة العربية، بدأوا يعقدون اجتماعات يومية، وفي اجتماع لهم في ٢٥ أيار/مايو، وافقوا على أسس سياسة مشتركة تمثلت فيما يأتي:

أولاً: رفض الاتفاق مع الحكومة البريطانية بشأن معونة ومكاتب الجامعة العربية.

ثانياً: أن يطلبوا من الجمهورية العربية المتحدة العمل كقوة حامية لهم.

ثالثاً: قبول عرض السفير السوفيتي في الكويت لتزويدهم بالسلاح.

وقد شككت السلطات البريطانية المحلية في مصداقية المسألة الأخيرة، بينما توقعت الأخذ بالمسألتين الأولى والثانية.

والجدير بالإشارة أنه أثناء تلك الاجتماعات أبلغ شيخ الحمريه* حاكم دبي بأنه قابل وسيطاً من الشيخ صقر حاكم الشارقة يعرض عليه الاستقلال والأموال مقابل قبوله سياسته تجاه الجامعة العربية إلا أنه رفض العرض(٣٣).

وعلى ضوء تلك التطورات، والتي أوضحت مدى جدية الحكّام الأربعة في السير فيما هم ماضين فيه بشأن علاقتهم بالجامعة العربية، بدأت الجهات العليا في الحكومة البريطانية في إعداد اقتراح من شأنه إحباط مساعي كلّ من الحكّام الأربعة والجامعة العربية، وبعد عدة مداولات بين أعضاء لجنة الدفاع والسياسة الخارجية تم طرح اقتراح، يقضي بمنع دخول موظفي الجامعة العربية إلى إمارات الساحل بواسطة كشّافة عمان والساحل* والنظر كذلك في إمكانية طرد موظفي الجامعة العربية الذين قد ينجحون في دخول إمارات الساحل. إلا أن ذلك الاقتراح كان بحاجة إلى تغطية قانونية للأخذ به، بالرغم من أن إشرافهم على الشؤون الخارجية لتلك الإمارات، يعطيهم حق الطلب من الحاكم طرد موظفي الجامعة، إلا أنه لم يكن واضحاً لهم الحق في أن يطلبوا منه اعتقالهم وترحيلهم، كما أنه من ناحية القانون الدولي فإن استخدام القوات لتطبيق الحقوق التعاهدية غير قانوني، اللهم في ظل وجود حاكم مطيع ومتعاون وملتزم، وتشريع يسمح لهم بذلك(٣٤). وفي نفس الوقت، فقد لفت وزير الدفاع

---

* الحمرية قرية تابعة للشارقة بين عجمان وأم القوين.

* فرق قامت بإنشائها السلطات البريطانية في إمارات الساحل، وكانت بمثابة جيوش محلية رادعة، وكان يقودها بريطاني.

نظر وزير الخارجية، أن من شأن القيام بذلك العمل أن يفسر أنه جاء بناءً على تعليمات من الحكومة البريطانية، الأمر الذي سيكون له نتائج خطيرة لموقفهم في الخليج، وأنه من الصعب الدفاع عن ذلك سواءً في البرلمان أم في الأمم المتحدة، ولذلك رؤي أنه من الأفضل، عند اتخاذ أي قرار يجب ألا يكون مرتبطاً بالحكومة البريطانية، مشيراً إلى إمكانية اتخاذ إجراءات تمنع إقامة موظفي الجامعة وتحد من فعالية مكاتبها دون اللجوء إلى عملية منع دخولهم إمارات الساحل(٣٥).

ومما هو جدير بالإشارة، أنه أثناء تلك المداولات وصلت برقية من جدّة إلى وزير الخارجية البريطانية من قبل سفيرها تفيد بأن الشيخ حافظ وهبه أبلغه يوم ٦ حزيران/يونيو، أن الملك فيصل أبلغ حكّام البحرين وقطر وأبو ظبي، أنه سيدفع المليون جنيه لصندوق التنمية بالإضافة إلى إبلاغه أن الملك فيصل موافق على الموقف الصلب الذي تنوي حكومته اتخاذه لمنع انتشار مكاتب للجامعة العربية في إمارات الساحل(٣٦). ومن ناحية أخرى، فقد حصلت الوكالة السياسية البريطانية على نسخ من الوثائق تكشف عن المشروعات التي تنوي الجامعة العربية تنفيذها في إمارات الساحل في السنة الأولى من خطتها الخمسية، والتي سلّمها نوفل الأمين العام المساعد للجامعة خلال زيارته الأخيرة لحكّام الإمارات التي كان من أبرز مشروعاتها، توسيع طريق الساحل الرئيسي، وإنشاء طريق الساحل الشرقي بين كلبا وخورفكان، بالإضافة إلى إصلاح الطرق الرئيسية، وعمل توصيلات هاتفية لكافة الإمارات، إلى جانب القيام بمسح للتربة الزراعية، وتقديم خدمات زراعية متنوعة تشمل منح مضخات للمياه مجاناً للمزارعين، وبناء عيادة للرضّع والأطفال في كل بلدية، وكل هذه المشروعات تحمل اسم الجامعة العربية بطبيعة الحال(٣٧).

وفي تطور جديد يصب في صلب مسألة الجامعة، أبلغ الشيخ راشد بن مكتوم حاكم دبي، الوكيل السياسي البريطاني، عن خشيته وصول وفد كبير من الجامعة العربية، وأن حكّام الإمارات المنشقين الأربعة، بحسب تعبير برقية المقيم السياسي لوزارة

خارجيته يعدون العدة لاستقبال الوفد استقبالاً كبيراً بحيث لن تتمكن شرطة دبي من السيطرة على الوضع، وخاصة وأن مطار دبي واسع، كذلك فإن الشيخ راشد يسأل عما يمكن تقديمه من مساعدة في هذه الظروف(٣٨).

ويبدو لنا أن مخاوف الشيخ راشد كانت نابعة من القرار الذي اتخذته اللجنة الدائمة للخليج العربي في الجامعة العربية في ٦ حزيران/يونيو عام ١٩٦٥، الخاص بتشكيل لجنة من الخبراء* مهمتها تنفيذ مشروعات التنمية في إمارات الساحل وتحديد يوم ٢٤ حزيران/يونيو، كموعد لسفرها إلى دبي. ويبدو أن الشيخ راشد حصل على تلك المعلومات عن طريق مكتب الكويت الدائم بدبي الذي أبلغ عن طريق وزارة الخارجية الكويتية بموعد وصول اللجنة المذكورة(٣٩).

ونتيجة لذلك التطوّر، بدأت السلطات البريطانية في الخليج التشاور مع حكومتها في لندن حول ما يمكن عمله في حالة وصول خبراء الجامعة ومن يرافقهم يوم ٢٤ حزيران/يونيو، وكان الخط العام لمجابهة ذلك هو منع دخول لجنة الخليج إلى إمارات الساحل، بالإضافة إلى إصدار تعليمات للوكيل السياسي في دبي بطرد القادمين بدون تأشيرة دخول. إلا أن الوكيل السياسي اعترف بصعوبة تطبيق ذلك من الناحية العملية، فعلى سبيل المثال، فإن ضابط جوازات الحاكم في الشارقة سوف يسمح لأي شخص يرغب الحاكم إدخاله، سواءً كانت لديه تأشيرة أم لا، وكذلك في دبي فإنه على الرغم من إصدار الحاكم تعليمات إلى الشرطة بطرد القادمين بدون تأشيرة، إلا أنه في حالة وصول طائرة كبيرة، ووجود ضابطين فقط آنذاك للجوازات يمكن أن يتسلل بعض الذين لا يحملون تأشيرات دخول.

وبناءً على تلك التوضيحات، ولتجنّب ما يمكن أن يحدث من تسلل وجدت السلطات

---

* سوف يطلق اسم لجنة الخليج على لجنة الخبراء في الصفحات القادمة من الدراسة.

البريطانية أن أفضل طريقة عملية لتطبيق قرار المنع هو منع دخول غير الحاملين لتأشيرات دخول بقيام شرطة قطر –التي ستمر بها الطائرة– بفحص جوازات ركاب الترانزيت المتوجهين إلى دبي أو الشارقة ومنع أي شخص لا يحمل تأشيرة من الدخول إلى الطائرة، وإذا شعرت الحكومة القطرية أن ذلك سيحرجها، عندئذ يطلب منها إرسال أسماء الأشخاص الذين لا يحملون تأشيرات دخول برقياً إلى الوكالة السياسية في دبي(٤٠). ومن ناحية أخرى وبخلاف تلك الإجراءات، بدأت وزارة الخارجية البريطانية والسلطات البريطانية في المنطقة، التفكير في إجراءات أكثر صرامة تجاه مشروع الجامعة في المنطقة، منها على سبيل المثال التضحية بحاكمي الشارقة ورأس الخيمة، حتى يكونا عبرة للحكّام الآخرين، وبالتالي يمتنعون عن إنشاء مكاتب للجامعة في إماراتهم، إلا أن تلك السلطات ارتأت عدم القيام بذلك في بداية الأمر مفضلة اتخاذ خطوة تمهيدية، تتمثل في إعلان حكومتها سحب حاميتها من إمارتي الحاكمين المعنيين، ويكون ذلك قبيل وصول وفد خبراء الجامعة العربية للمنطقة مباشرة، استناداً إلى أن الحاكمين قد خرقا بنود المعاهدة بينهما وبين الحكومة البريطانية، ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا أن أصحاب ذلك الإجراء كانوا يتوقعون بعد سحب الحامية من الحاكمين خلق وضع حرج يؤدي بالتالي إلى توقع احتمالين أولهما يتمثل في تعرّض أحد الحاكمين لعملية اغتيال بواسطة رجال القبائل أو حدوث عملية انقلابية عن طريق إحلال فرد آخر من عائلة القواسم كبديل لأحدهما في إحدى الإمارتين. أما الاحتمال الآخر كان يتمثل في استمرار الحاكمين لبعض الوقت تحت حماية حرسهم الخاص، وقد يطلبان حماية عبد الناصر أو طلب العضوية في الجامعة العربية آنذاك، إلا أنه كان يعتقد صعوبة قيام عبد الناصر بإرسال قوات عسكرية لهما إلا أنه ربما كان يحاول تعيين سفراء من المقيمين هناك(٤١).

ويمكن تفسير سبب اتخاذ وزارة الخارجية لهذا الخط المتشدد بأنه راجع إلى شعورها بخطورة الموقف، إذ أنها كانت ترى أنه في حالة نجاح مشروع الجامعة

العربية وإنشائها مكاتب لها في المنطقة، فإن ذلك سيحرج موقفها، وبالتالي يبدأ بعض الحكّام بتحديها علناً وسيتبعهم الآخرون مما قد يترتب عليه انسحاب بريطاني من الخليج في المستقبل القريب، بالإضافة إلى تحجيم موقف البريطانيين في الشرق الأوسط، مع ما يصاحب ذلك من شعورهم بالخذلان لدى حليفتهم الولايات المتحدة، التي لديها الكثير من المصالح، وعلى رأسها المصالح النفطية، وهي معتمدة كل الاعتماد عليهم في الحفاظ على الأمن والاستقرار في المنطقة[٤٢].

ومن الأهمية بمكان الإشارة أن خطوة سحب الحماية من حاكمي الشارقة وراس الخيمة لاقت اعتراضاً من أقرب المؤيدين للسياسات البريطانية وأكثرهم نفوراً من نشاط الجامعة العربية وهو حاكم دبي الذي أبدى عدم موافقته على تلك الخطوة حينما فاتحه في ذلك المقيم السياسي، ذاكراً له أنه لا يوافق على ذلك في الوقت الراهن، مبرراً ذلك بأن الصقرين -أي حاكمي الشارقة ورأس الخيمة- سيتخذان من ذلك دعاية لهما أنه -أي حاكم دبي- لن يكون سعيداً بطلب الصقريّين الحماية من الجمهورية العربية المتحدة، أو أي حماية عربية أخرى، لأن ذلك يؤدي إلى المزيد من المد القومي العربي في المنطقة، مؤكداً أن إزاحة حاكم الشارقة هو الحل الوحيد والناجع لإعادة الحالة كما كانت عليه[٤٣].

ومع تسارع الأحداث وخاصة بعد قرار لجنة الخليج بالجامعة العربية السفر في يوم ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٦٥ إلى دبي عن طريق الكويت، باتت السلطات البريطانية أكثر قناعة بالتضحية بحاكم الشارقة وتنحيته عن الحكم، لأن وصول اللجنة معناه إرباك الوضع في منطقة الساحل مما يؤدي إلى إحراج السلطات البريطانية والمحلية، كما أن اتخاذ إجراءات مناهضة ضدها، سوف يثير الرأي العام العربي وحتى العالمي على الأقل في المنابر الدولية، ولذلك لجأت إلى سياسة قطع الطريق على مساعي لجنة الخليج عن طريق تنحية الشيخ صقر القاسمي حاكم الشارقة، ليكون عبرة للحكّام الآخرين الذين كانوا يبدون تعاطفهم ويميلون إلى التعامل مع الجامعة العربية ونشاط

لجنتها التنموية بحسب اعتقادنا، والذي حدث إنه حينما غادرت لجنة الخليج الكويت صباح يوم الخميس ٢٤ حزيران/يونيو على متن الطائرة الكويتية المتجهة إلى دبي، وعند توقف الطائرة في مطار البحرين، أخبر الركاب بأن الرحلة إلى دبي من المنتظر أن لا تتم، وبعد قليل استأنفت الطائرة رحلتها إلى الدوحة، وانضم إلى ركاب الطائرة من البحرين الشيخ سلطان بن صقر القاسمي ابن حاكم الشارقة. وبعد وصول الطائرة تأكد لدى أعضاء لجنة الخليج استحالة مواصلة الرحلة إلى دبي لغلق المطار هناك لأسباب غير معروفة، وأخبروا ركاب الطائرة أن الطائرة ستعود إلى البحرين ثم إلى الكويت، وأثناء ذلك عرض الشيخ سلطان بن صقر على أعضاء اللجنة استئجار طائرة خاصة لنقلهم إلى الشارقة نظراً لغلق مطار دبي، وبعد محاولات تبين استحالة ذلك، وفي أثناء استراحة أعضاء اللجنة في أحد فنادق الدوحة أخبرهم الشيخ سلطان بأن والده قد نحي عن الحكم، وأنه سيعود إلى البحرين حيث ينزل والده بعد تنحيته. لهذا قررت اللجنة العودة إلى البحرين انتظاراً لفتح مطار دبي، وحتى تتمكن من الاتصال بالمسئولين في الكويت لإعلامهم بالموقف وتلقى التعليمات، وقد سمح بادئ الأمر عند وصول اللجنة البحرين بالنزول، ولكنها بعد مدة فوجئت بقرار السلطات البحرينية بعدم السماح لمندوبي العراق ومصر بالنزول ولذلك قررت اللجنة بكاملها العودة إلى الكويت[٤٤]، ومما هو جدير بالذكر أن البعض فسر لجوء بريطانية إلى تنحية حاكم الشارقة بالذات لأنه كان أكثر التصاقاً بالمدّ القومي، وأكثر حماساً وتجاوباً مع مشروعات الجامعة العربية.

وبعد يومين من عملية تنحية حاكم الشارقة، قامت بريطانية بالضغط على حكّام الإمارات الأخرى من أجل إرسال برقيات إلى الجامعة العربية يعلنون فيها سحب موافقاتهم السابقة، وبالفعل تلقى بدر الخالد العضو الكويتي في لجنة الخليج عبر وزارة خارجية بلاده برقيتين من حاكم عجمان وأم القوين يطلبان فيها بأن تكون المساعدات العربية عن طريق صندوق تطوير إمارات الساحل المتصالح، كما تلقت الجامعة بعد

ذلك برقية من حاكم دبي رداً على برقية الجامعة المرسلة إليه في ٢٤ حزيران/يونيو حول نية زيارة لجنة الجامعة لإمارته، يبلغ الجامعة فيها بأن الزيارة غير مناسبة وأن المساعدات يجب أن تكون عن طريق صندوق تطوير إمارات الساحل المتصالح[٤٥].

أثار العمل البريطاني تجاه حاكم الشارقة، وعملية عرقلة لجنة الخليج، موجة احتجاجات من قبل الأوساط العربية، وعلى رأسها الجامعة العربية، حيث قام أمينها العام في تموز/يوليو عام ١٩٦٥، بتقديم احتجاج لدى الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها في القاهرة بسبب موقفها من مشاريع الجامعة التنموية في الخليج، وإبلاغه رفض الجامعة العربية تقديم معوناتها عن طريق صندوق تطوير إمارات الساحل الذي أنشأته بريطانية، وقد رد السفير البريطاني على احتجاج الأمين العام ذاكراً، أن موقف الحكومة البريطانية موقف لا يتسم بالعداء، كما أن موقفها بالنسبة للمشروعات هو موقف الإحاطة إلى صندوق التطوير، وأن هناك إمكانية التنسيق بين مشروعات الجامعة ومشروعات صندوق التطوير[٤٦].

إن فشل الجامعة في تنفيذ مشروعاتها في إمارات الساحل بسبب الموقف البريطاني الناهض لمشاريعها، لم يكن نهاية المطاف لنشاطها في المنطقة، حيث قامت اللجنة السياسية في ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٦٦ بعد النظر في تقرير الأمانة العامة بشأن التطورات الأخيرة في إمارات الساحل باتخاذ القرارين التاليين:

أولاً: مساعدات شعب المنطقة على التحرير والتقدم ومتابعة المساعي في نطاق اللجنة الدائمة للخليج بالجامعة لتقديم المعونات المقررة التي حالت السلطات البريطانية في الخليج دون تقديمها.

ثانياً: توحيد جهود الدول الأعضاء لمساعدة شعب الخليج في المحافظة على عروبته[٤٧].

خاتمة:

وتأسيساً على ما تم طرحه خلال الدراسة، رأينا كيف استطاعت بريطانية بسبب نفوذها المطلق في الخليج العربي آنذاك، إفشال سعي الجامعة العربية في أن يكون لها حضور في المنطقة عبر مشروعات تنموية، بالرغم من أن إنشاء الجامعة كما أوضحت بعض المصادر، كان من وحي وتشجيع بريطانية، فلماذا وقفت بريطانية هذا الموقف من نشاطها في إمارات الساحل؟!

حقيقة وكما يبدو لنا أن الأمر أساساً يتعلق بمصالح بريطانية وحلفائها في المنطقة وخارجها، فبريطانية حينما شجعت قيام الجامعة العربية في الأربعينات كانت أغلب الدول التي دخلت في عضويتها تدور في فلك النفوذ والسياسة البريطانية، إلا أن الوضع في الستينات قد تغير، فالدول الأساسية المؤسسة للجامعة العربية، وذات النفوذ فيها، وعلى رأسها مصر والعراق، وقد تحولت إلى أعداء لبريطانية، إذ أن هذين القطرين وصل إلى سدة الحكم فيهما فئة من الثوريين، أظهرت أشد العداء لبريطانية، وبدأت تخطط محاولة اقتلاع النفوذ البريطاني في أي جزء من الوطن العربي، ومنه منطقة الخليج بطبيعة الحال، حيث كان النفوذ البريطاني مستشريا في إماراتها عن طريق تغذية شعوبها بالأفكار الراديكالية والشعور الوطني ومناهضة الاستعمار، مما أدى مع مرور الأيام إلى تولد شعور عدائي في الشارع الخليجي ضد بريطانية وضد كل من يدور في فلكها. ولعل أبرز دليل على ذلك وقوع بعض الحوادث في المنطقة. على سبيل المثال ردود الفعل الشعبية العنيفة تجاه العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ في الشارع الخليجي،* وكذلك الاحتجاجات والإضرابات التي قام بها معلمو المدارس

* لمزيد من التفاصيل عن تلك الردود، انظر. إبراهيم شهداد. ردود الفعل الشعبية في إمارات الخليج العربي تجاه العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦، من واقع الوثائق البريطانية، حولية كلية الإنسانيات، جامعة قطر، العدد ١٥، ١٩٩٣.

الثانوية في البحرين ١٩٦٢، ومشاركة النساء في المعارضة الشعبية لأول مـرة فـي تاريخ البحرين، عندما تظاهرن تأييداً للاتفاق الذي تم التوقيع عليه بين مصر وسورية والأردن بشأن الوحدة ١٩٦٣، وقد حدث نفس الشيء في قطر وفي نفس العام حينمـا حدث تحرك شعبي ابتهاجاً بنفس المناسبة، وكان لهذا التحرك توابعه حينما أعلن فـي أثره قيام جبهة اتحاد وطني مطالبة بإنشاء مجلس تمثيلي والحد من سـلطات الأسـرة الحاكمة(٤٨).

فهذه التحركات وغيرها كانت كلها تلقي بثقلها على وضع السياسـة البريطانيـة، وخلفت لديهم –أي البريطانيين– شعوراً بما يمكن أن يحدث في حالة وجود داعم فعلي لمؤثرات عربية داخل إمارات الخليج. ولذلك نرى بريطانية وبسلطاتها المختلفة، تأخذ هذا الموقف من نشاط الجامعة العربية خوفاً من أن يكون هذا النشاط غطاء لضعضعة وجودها في المنطقة بأسرها. والغريب في ذلك أن بعض الأقطار العربية ومن بينـها أقطار خليجية كانت تدعم بريطانية في موقفها ذلك، لا حباً فيها ولكن نكايةً في بعض القيادات العربية التي كانت توجهاتها السياسية تتضارب مع حكّـام وحكومـات تلـك الأقطار آنذاك!!

وبخلاف ذلك كله، فبريطانية بقيامها تنحية حاكم الشارقة من أجل إيقاف مشـاريع الجامعة العربية، كشفت مع سبق الإصرار، عن وجهها الاسـتعماري وعقليـة مـن يديرون سلطاتها في المناطق التي تسيطر عليها، بما فيـها منطقـة الخليـج، رغـم ادعاءاتها إنها جاءت لنشر السلم والسلام فيها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، اللـهم في حالة تعرضها لخطر جارف يهدد كياناتها بالكامل.

وتأسيساً على ما سبق لا بد من طرح السؤال التالي.. هل كان التوجـه التنمـوي للجامعة العربية، في المنطقة من نوع ذلك الخطر الذي يهدد تلـك الكيانـات بحـق وحقيقة؟.

هذا السؤال من المفروض أن يجيب عليه صناع القرار في وزارة الخارجية آنذاك، وأصحاب قول الفصل في قضايا الخليج لكون المنطقة كانت واقعة في إطار اختصاص وزارتهم وليس سواهم.

الحواشي

1- **Fo. 371/6844, Extract from Sir. Fowle**, The Political Resident, in The Gulf, 17 March 1939.

٢- إبراهيم شهداد، **سياسة بريطانية التنموية في مناطق النفط بالخليج العربي ودوافعها بعد الحرب العالمية الثانية** (دراسة وثائقية)، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٤١ و٤٢، ١٩٩٢، ص١٥٦-١٦٠.

٣- نجدة فتحي صفوت. **من نافذة السفارة (العرب في ضوء الوثائق البريطانية)**، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٢، ص٤٤-٦٠.

٤- نجدة فتحي صفوت. **المرجع السابق**، ص٤١-٤٢.

٥- أمانة مجلس الجامعة العربية. قرار مجلس الجامعة العربيـة. ق ٨٤٥، ٢٢٥، ج٦، ١٦/١٢/١٩٤٥.

٦- محمد عبد الوهاب الساكت. **الأمين العام لجامعة الدول العربية، اختصاصاته السياسية والإدارية**، دار الفكر العربي، مصر، ص٣٨٣.

٧- سيد نوفل. **الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة**، الكتاب الثاني، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٢، ص١٤٠.

٨- محمد عبد الوهاب الساكت، **المرجع السابق**، ص٣٨٣.

9- F. O 371/174700, Foreign Office to Cairo, enclosing English summary of Badrs Report, 29 September 1964.

10- F. O. 371/174100, Telegram No. 444. From Political Resident, Bahrain, to Sir. W. Luce, Foreign Office London, 9 October 1964., F. O 371/174100, Telegram No. 846. From Foreign Office London,

to Political Resident, Bahrain, 14 October 1964.

11- F. O 371/174100, Telegram No. 459. From Bahrain, to Foreign Office London, 15 October 1964.

12- F. O. 174700, Confidential Report about Relations between the Southern Gulf States and Arab League, 14 October 1964.

13- Loc. Cit.

14- 371/174700, Telegram No. 108, from Political Agency, Abudhabi, to Foreign Office, London. 22 October 1964.

15- F. O 371/174700, Telegram No. 114, from Political Agency, Abudhabi, to Foreign Office, London, 29 October 1964.

16- F. O 371/174700, Telegram No. 172, from Dubia, to Foreign Office, London, 29 October 1964.

١٧- الأمانة العامة للجامعة العربية. تقرير بعثة الجامعة العربية عن زيارتها لإمارات الخليج العربي، ١٠ نوفمبر ١٩٦٤.

18- F. O 371/174493, Letter from Political Agency, Trucial States, Dubai, to Political Resident, Bahrain, 2 November 1964.

19- F. O 371/174493, Report in full on activities of Arab League Mission, 10 November 1964.

٢٠- سيد نوفل. **المرجع السابق**، ص١٤٢-١٤٤، جمال زكريا. **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، المجلد الرابع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٦٢-١٦٣.

٢١- الأمانة العامة للجامعة العربية. تقرير وفد الجامعة العربية عند زيارته لإمارات الخليج، ١٠ نوفمبر ١٩٦٤.

22- F. O. 371/179902, encolsing brief for visit of Minister of State for 9 – 16 May 1965.

23- F. O. 371/179902, Letter No. 1072, from Political Resident, Bahrain, to Foreign Office, 17 May 1965., F. O. 371/179902, Letter No.

1015, from Political Resident, Bahrain, to G. Balfour, Dubai, 18 May 1965.

24- F. O. 371/179917, Secret Draft Cabinet, memorandum, by the Foreign Ministry, about Turcial States, 20 May 1965. P. P. 1-3.

25- F. O. 371/179917, Op. Cit. P. 6.

26- F. O. 371/179917, Telegram No. 382, from Political Resident, Bahrain, to Foreign Office, 21 May 1965. P. 16., F. O. 371/179917, Telegram No. 367.

27- F. O. 371/179917, Telegram No. 382, OP. Cit, P. 2.

28- F. O. 371/179917, Telegram No. 590, from Foreign Office, to Political Office, Bahrain, 24 May 1965.

29- F. O. 371/179917, Telegram No. 522, from Foreign Office, to Jeddah, 24 May 1965.

30- F. O. 371/179917, Telegram No. 103, from Political Agency, Dubai, to Foreign Office, 26 May 1965. P. P. 1-2.

31- F. O. 371/179917, Telegram No. 401, from Political Office, Bahrain, to Foreign Office, 26 May 1965.

32- F. O. 371/179917, Telegram No. 258, From Jeddah, to Foreign Office, 29 May 1965. P. P. 1-2.

33- F. O. 371/179917, Telegram No. 108, from Dubai, to Foreign Office, 30 May 1965.

34- F. O. 371/179917, Letter form Foreign Office, to Ministry Of Defense, 2 June 1965.

35- F. O. 371/179917, Letter form Ministry of Defense, to Foreign Office, 9 June 1965.

36- F. O. 371/179917, Telegram No. 265, from Jeddah, to Foreign Office, 6 June 1965.

37- F. O. 371/179917, Summary of Arab League Development Proposals.

38- F. O. 371/179917, Telegram No. 492, From Bahrain, to Foreign

Office, 11 June 1965.

٣٩- سيد نوفل، **المرجع السابق**، ص٢٦٦-٢٦٧.

40- F. O. 371/179905, Telegram No. 494, from Bahrain, to Foreign Office, 12 June 1965.

41- F. O. 371/179905, Telegram No. 762, from Foreign Office, to Bahrain, 15 June 1965.

42- F. O. 371/179905, Telegram No. 770, from Foreign Office, to Bahrain, 16 June 1965.

43- F. O. 371/179918, Telegram No. 521, from Bahrain, to Foreign Office, 18 June 1965.

٤٤- سيد نوفل، **المرجع السابق**، ص٢٦٧.

٤٥- سيد نوفل، **المرجع السابق**، ص٢٦٨. جمال زكريا، **المرجع السابق**، ص١٦٤.

٤٦- محمد عبد الوهاب الساكت. **المرجع السابق**، ص٣٨٧.

٤٧- الأمانة العامة للجامعة العربية. قرار مجلس الجامعة العربية، ق ٢٢٥٥، د٤٦، جـ ٢، ١٢ سبتمبر ١٩٦٦.

٤٨- فرد هوليداي. **النفط والتحرر الوطني في الخليج العربي وإيران**. دار ابن خلدون. بيروت. ١٩٧٥. ص٧٠.